

بسم الله الرحمن الرحيم
جمهورية السودان
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أم درمان الإسلامية
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات الأدبية والنقدية

فن

المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين

دراسة أدبية نقدية
بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراة في الدراسات الأدبية والنقدية
إعداد الطالبة

أسماء حسن محمد النويري

إشراف الدكتور

بشير عباس بشير

العام الجامعي

١٤٣٠ هـ . ٢٠٠٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ
الَّذِي يُوحِّدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)

النحل، آية ١٠٣

الإهداء

إلى زوجي العزيز
لو كانت الدنيا تهدي لأهديتها لك
وإلى أمي وأبي وإخوتي وأخواتي
وإلى ثمرة فؤادي أبنائي
أحمد وأشرف
وإلى كل طالب علم
أهدي هذا البحث

أسماء

شكر وتقدير

في مستهل هذا البحث يطيب لي أن أتقدم بجزيل شكري وتقديري لأسرة جامعة أم درمان الإسلامية وأخص بالشُّكر فضيلة الدكتور بشير عباس المشرف على هذا البحث الذي كان لتوجيهه الرَّشيد ونصحه السَّديد للأثر الكبير في مسيرة هذا البحث كما أتقدم بالشُّكر للدكتور عصام عبد الله الضو لما قدمه من مساعدة جلييلة والشُّكر لأسرة مركز جمعة الماجد لتوفيرها لي بعض مصادر هذا البحث .

والشُّكر لأسرتي الحبيبة التي يسرت لي سبيل البحث وأسأل الله العليّ القدير أن يجزي الجميع خير الجزاء .

الباحثة

مُتَلَمِّتٌ

١.١ أهمية البحث

٢.١ أسباب اختيار الموضوع

٣.١ أهداف البحث

٤.١ منهج البحث

٥.١ هيكل البحث

مقدمة

الحمد لله المنعوت بجميل الصفات ، وصلى الله على سيدنا محمد أشرف الكائنات ، المبعوث بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وعلى آله وصحبه الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن بيضة الدين حتى رفع الله بهم مناره ، وأعلى كلمته وجعله دينه المرضي ، وطريقه المستقيم ، أما بعد :

فالمقامة عبارة عن كتابة حسنة التأليف ، أنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة أدبية ومدارها على رواية لطيفة مختلفة تُسندُ إلى بعض الرواة ، ووقائع شتى تعزى إلى أحد الأدباء ؛ والمقصود منها غالباً جمع درر و غرر البيان وشوارد اللغه ونوادر الكلام ، منظوم ومنثور ، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعة والرقائق الأدبية ، كالرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية وتنسب المقامات غالباً بالمكان التي تجري فيه أحداثها فيقال المقامه الحلبيه أو الموصليه أو تنسب للمروي عنه ، وابتكر هذا الفن بديع الزمان الهمذاني وتلاه الحريري .

وزعم البعض أن أصل المقامات فارسي ، وأنها انتقلت من اللغة الفارسية إلى العربية ، ويرد على ذلك بأن المقامات قد ظهرت في اللغتين العبرية والسريانية بعد ترجمة مقامات الحريري ، ولو كان أصل المقامات فارسياً لكان الأولى أن تنتقل المقامات إلى هاتين اللغتين من المقامات الفارسية وليس العربية ، وعلى كل فقد تضاربت الأقوال في أصل المقامات غير أن التضارب حول من اخترعها كان أشد وأعنف ، فبينما يرى فريق أن بديع الزمان عارض أحاديث ابن دريد فنشأت المقامات ، يؤكد فريق آخر على أن البديع هو مخترع هذا الفن ، ويردون على زعم القول السابق بأن أحاديث ابن دريد نوادر ولطائف لم يستقل بها دون غيره ، فللجاحظ في الحيوان والبخلاء مثلها ، ولابن قتيبة في عيون الأخبار، ولابن عبد ربه في العقد الفريد كذلك ، كما أن ابن دريد يبدأ أحاديثه بذكر سند الحديث ولا يفعل البديع كذلك ، كما أن أبطال ابن دريد ورواته يختلفون من حديث لآخر ، أما بديع الزمان فبطله واحد وهو أبو الفتح الإسكندري، وراويته أيضاً واحد وهو عيسى بن هشام .

وعندما أطل القرن الرابع الهجري على الدولة الإسلامية وجدها من الوجهة السياسية تفاريق وأجزاء عصفت بها رياح الخلاف ، والاختلاف وأسهم فيها خلفاء بني العباس في قيام دويلات لهم ساهموا في الإغراء بقيامها إغراء قويا شديداً ، هذه الدويلات التي أنشأها بني العباس حركت الدوافع الكامنة في نفوس كثير من الأجناس ، والقوميات التي يتشكل فيها جسم الدولة العباسية على أساس عرقي أو إقليمي ، في ظل هذه الظروف السياسية ، وما أصاب الدولة الإسلامية من تدهور سياسي مريع برز فن المقامة واستوى ناضجا له أصوله ، ومقوماته ، ملامحه ، وسماته ، وبرزت الحركة الأدبية بروزا واسع النطاق في عصر كثرت به المشاكل ، والفتن بالإضافة إلى تغييرات في المجتمع العباسي في أساليب البناء ، والأكل ، والغناء ، والحياة بأسرها هي التي أصبحت الأساس التي قام عليها المجتمع العباسي الجديد ، والتي جهد في تصويرها بديع الزمان الهمذاني من خلال مقاماته .

ولقد تأثر الأندلسيون بمقامات البديع الهمذاني وخلفه الحريري تأثراً جلياً ، إذ كان من الطبيعي أن تثير إنجازاتهما إعجاباً بين الأدباء ، وتخلق تياراً من المحاكاة في ميدان الكتابة عموماً وفي فن كتابة المقامات خصوصاً وبدخول الأندلس عهد ملوك الطوائف كانت مقامات الهمذاني ورسائله قد انتشرت انتشاراً واسعاً حتى غدا الكثير من الأدباء يؤلفون في هذا الصنف من الأدب ، وفي مقدمة هؤلاء ابن شرف القيرواني الذي كتب مقامات أشار النقاد أنه تحدى بها البديع في حماه .

والظاهرة العامة التي اتسمت بها المقامة عامة هي ظاهرة النقد والثورة وكشف العيوب الإنسانية ، والاجتماعية ووضع البديل لها في بعض الأحيان ، ومن هنا تبدو الأهمية الحضارية ، والتاريخية لهذا الفن .

وفي هذا البحث تتناول الباحثة فن المقامة في القرنين السابع والثامن الهجريين بالتركيز على أهم كتاب المقامات في القرنين المذكورين وهم : [ابن الوردي والقلقشندي والشاب الظريف وابن المعظم] .

١.١ أهمية البحث :

١/ تتبين أهمية هذا البحث إذا علمنا أنه يندرج ضمن مباحث اللغة العربية التي حازت شرفاً عظيماً إذ نزل القرآن الكريم بلسانها المبين ، وقد اصطفاها الله

سبحانه لوحيه مِنْ بين لغات البشر ، وفي إنزال القرآن الكريم باللغة العربية مَرْتَبَةً رفيعة لِعِلْمِ العربية ، ووجه الدلالة أنه تعالى أخبر أنه أنزله عربيًّا في سياق التمدُّح والثناء على الكتاب بأنه مبين لم يتضمن لَبْسًا ، عزيزٌ [لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ]^١ ، وذلك يدلُّ دلالة ظاهرة على شرف اللغة التي أنزل بها .

٢/ يمثل هذا البحث دليل على عناية السلف بالعربية ، وإقبالهم على خدمتها على نحوٍ شامل ، لأنهم أيقنوا أن دراستها والتأليف فيها ضربٌ من ضروب العبادة ، يتقربون به إلى الله ، وأكثر ما يبين اهتمامهم وعنايتهم باللغة خدمة للقرآن ، ما ظهر لنا من معالم التأليف في لغات القبائل الواردة في القرآن ، والتأليف في الأضداد ، والمشارك اللغوي ، والمفردات القرآنية ، والألفاظ المعرَّبة وغريب القرآن ، والفروق اللغوية ، والمذكر والمؤنث ، ومواضع القطع والائتناف ، ومشكل القرآن ومعاجم اللغة المنهجية بجانب عنايتهم بالبلاغة .

٣/ بعد هذا البحث محاولة جادة لإثبات أن القرآن الكريم هو العامل الرئيس الذي ساعد على الشروع في الدراسات البلاغية بمختلف اتجاهاتها ؛ وذلك لدفع المطاعن والشكوك التي أثرت حوله ، وللتأكيد على إعجازه وتفوقه على الأساليب الأدبية ، بالإضافة إلى عنايتهم بالشعر في سبيل الاستشهاد به على غريب القرآن ومفرداته وبيانه إلى غير ذلك مما يدل على أن باب اللغة باب واسع بذل السلف مِنْ خلاله جهودًا طيبة أسهمت في فهم التنزيل العزيز ، وتدبر آياته .

٤/ بلا شك ان دراسة فن المقامات والتعريف بهذا الفن يأتي ضمن سلسلة الجهود المبذولة من قبل العلماء في الإهتمام باللغة وما يتصل بها من فنون وعلوم .

١ _ ٢ أسباب اختياره :

هناك بعض الأسباب التي دفعت الباحثة لاختيار موضوع هذا البحث ويمكن التعرُّض لها فما يلي :

١/ التعريف بالمقامة وبيان مدلولها اللغوي والاصطلاحي .

^١ - سورة فصلت ، الآية ٤٢ .

٣/ بيان عناية العلماء والأدباء بفن المقامات .

٣/ بيان نشأة وتطور فن المقامات .

٤/ التعريف بأهم كتّاب المقامات بالتركيز على كتّاب القرنين السابع والثامن

الهجريين .

١ . ٣ أهدافه :

تتمثل أهم أهداف هذا البحث في الآتي :

١/ إبراز جهود العلماء في خدمة فن المقامات .

٢/ التعريف بأهم كتّاب المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين وهم

[ابن الوردي والقلقشندي والشاب الظريف وابن المعظم] .

٣/ التركيز على أهم الأغراض والموضوعات التي تناولها كتّاب المقامات في

القرنين السابع والثامن الهجريين مثل : الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية بالإضافة إلى الموضوعات السلوكية والأخلاقية .

٤/ إبراز أهم الخصائص الفنية والأدبية لمقامات القرنين السابع والثامن

الهجريين بدراسة اللغة والأسلوب وتركيبات الجمل بالإضافة إلى التصوير البياني والبديعي .

١ . ٤ منهج البحث :

اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التاريخي ، الذي اعتمدت فيه على

الإستدال والاستنباط ، ويمكن توضيح سمات هذا المنهج في الآتي :

أولاً : جمع المادة العلمية :

قامت الباحثة بجمع مادة البحث من المصادر المعتمدة ، والتي تناولت هذا الموضوع ، فقد اعتمدت أولاً على المصادر التاريخية التي تناولت القرنين السابع والثامن الهجريين للتعريف بالأحوال السياسية والاجتماعية والعلمية بالإضافة إلى كتب التراجم التي تناولت التعريف بشخصيات الأدباء [ابن الوردي والقلقشندي والشاب الظريف وابن المعظم] مدار هذه الدراسة .

واستفادت الباحثة في بيان مدلولات الألفاظ والمصطلحات من معاجم اللغة كلسان العرب لابن منظور ، أما في مجال الدراسة الأدبية والبلاغية فقد مثلت كتب الأدب والدواوين الشعرية والمجموعات والمنتخبات الأدبية بجانب كتب البلاغة مصادرًا مهمة من مصادر هذا البحث .

ثانياً : توثيق النصوص :

قامت الباحثة بالتوثيق العلمي للنصوص المقتبسة من المصادر والمراجع ، وقد اشتمل منهجها في التوثيق على الآتي :

. وضع النص المقتبس [الذي لم اتصرف فيه] بين علامتي تنصيص .

. إعطاء النص رقماً للهامش .

- التوثيق للنص في الهامش ، بذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً ، ثم كتابة اسم المؤلف ولقبه المشهور به ، ثم ذكر رقم الجزء والصفحة ان كان الكتاب في أجزاء ، والا اكتفيت بذكر رقم الصفحة فقط ، ثم أذكر اسم المحقق ان كان الكتاب محققاً ، ثم ذكر الناشر والطبعة ، رقمها وتاريخها ان تيسر لي ذلك .

. اذا تكرر المصدر او المرجع اقوم بالاشارة الى اسمه فقط ، دون ذكر اسم

المؤلف وبقية المعلومات عنه .

ثالثاً : عزو الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية :

قامت الباحثة بعزو الآيات القرآنية بالرجوع الى المصحف الشريف ، بذكر اسم السورة ، فالآية ورقمها ، وكذا اهتمت بتخريج الأحاديث النبوية بالرجوع إلى المصادر الأصلية من دواوين السنة وفق المنهج المتبع في مثل هذه الدراسات .

رابعاً : شرح الكلمات الغريبة :

قامت الباحثة بشرح الكلمات الغريبة الواردة في البحث بالرجوع الى الكتب المعتمدة في ذلك مثل معاجم اللغة وكتب غريب الحديث .

خامساً : صناعة الفهارس الفنية وهي :

- . فهرس الآيات القرآنية ، بترتيب المصحف الشريف .
- . فهرس الأحاديث النبوية ، على حروف المعجم .
- . فهرس الأعلام المترجم لهم ، على حروف المعجم .
- . فهرس المصادر والمراجع ، بترتيب حروف المعجم .
- . فهرس الموضوعات .

٥.١ هيكل البحث :

المقدمة :

- . أهمية البحث .
- . أسباب اختياره .
- . أهدافه .
- . منهجه .
- . هيكله .

التمهيد : فن المقامات نشأتها وتطورها

الفصل الأول : الحياة السياسية الاجتماعية والأدبية في القرنين السابع والثامن الهجريين

- . المبحث الأول : الحياة السياسية .
- . المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية .
- . المبحث الثالث : الحياة الأدبية .

الفصل الثاني : كتاب المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين .

- . المبحث الأول : ابن الوردي .
- . المبحث الثاني : ابن المعظم .
- . المبحث الثالث : القلقشندي والشاب الظريف .

الفصل الثالث موضوعات المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين

. المبحث الأول : الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

. المبحث الثاني : الموضوعات الدينية .

. المبحث الثالث : الموضوعات السلوكية والأخلاقية .

الفصل الرابع : الأسلوب الفني في مقامات القرنين السابع والثامن الهجريين

. المبحث الأول : اللغة والأسلوب .

. المبحث الثاني : تركيبات الجمل .

. المبحث الثالث : التصوير البياني والبديعي .

الخاتمة :

نتائج البحث وتوصياته

الفهارس :

. فهرس الآيات القرآنية .

. فهرس الأحاديث النبوية .

. فهرس الأعلام المترجم لهم .

. فهرس المصادر والمراجع .

. فهرس الموضوعات .

مَهْيَدٌ

فن المقامات نشأتها وتطورها

تمهيد فن المقامات نشأتها وتطورها

المقامة في اللغة والاصطلاح :

المقامة لغة^١ : هي المجلس ، ومقامات الناس مجالسهم ، فاستعملت بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها على نحو قول زهير^٢ :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل^٣

وتأتي بمعنى الجماعة التي يضمها المجلس أو النادي كما في قول لبيد بن أبي ربيعة^٤ :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحسير قيام^٥

والمقامة بفتح الميم في أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس ، أما المقامة بالضم فبمعنى الإقامة^٦ .

^١ - لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي ، الناشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة الأولى ١٢/٤٩٦ .

^٢ - زهير بن أبي سلمى المزني من مضر ، حكيم الشعراء في الجاهلية ، من أئمة الأدب من يفضل على شعراء العرب كافة ، وهو أحد شعراء المعلقات السبعة المشهورة ، هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم باشا البغدادي ، وكالة المعارف . اسطنبول ١٩٥٥ م ١/١٩٦ .

^٣ - لسان العرب ١٢/٤٩٦ .

^٤ - لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري هو من أشرف الشعراء أدرك الإسلام وتوفي بالكوفة في حدود سنة ٦٠ هجرية له ديوان شعره مشهور ، هداية العارفين ١/٤٤٥ .

^٥ - لسان العرب ١٢/٤٩٦ .

^٦ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا : أحمد بن علي القلقشندي ، الناشر : دار الفكر - دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ م ، تحقيق : يوسف علي طويل ١٤/١٢٤ .

ومنه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ)^١ .

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة مأواهم جنات عدن أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله عز وجل^٢ .

فدار المقامة : دار الإقامة التي لا نقلة معها عنها ولا تحول والميم إذا ضمت من المقامة فهي من الإقامة فإذا فتحت فهي من المجلس والمكان الذي يقام فيه^٣ . قال الشاعر سلامة بن جندل^٤ :

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب^٥

وتطور معنى المقامة عبر العصور حتى أصبح يعني (الأحداث من الكلام) ، ويقول القلقشندي^٦ : (وسميت الأحداث من الكلام مقامة ، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها)^٧ .

١ - سورة فاطر ، الآية ٣٥ .

٢ - تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ٧٣٥/٣ .

٣ - تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن : محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر ، دار الفكر بيروت ٤١٦/١٠ .

٤ - سلامه بن جندل بن عبد عمرو ، من بني كعب بن سعد التميمي ، أبو مالك : شاعر جاهلي ، من الفرسان ، من أهل الحجاز ، في شعره حكمة وجودة ، يعد في طبقة المتلمس ، وهو من وصاف الخيل ، له ديوان شعر ، الأعلام : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة العاشرة ١٩٩٢ م ١٠٦/٣ .

٥ - الكامل في اللغة والادب : أبو العباس بن يزيد المبرد ، دار الفكر بيروت ص ٢٠٨ .

٦ - أحمد بن علي بن أحمد بن أحمد القلقشندي شهاب الدين أبو العباس المصري الشافعي توفي سنة ٨٢١ إحدى وعشرين وثمانمائة من تصانيفه : صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، هداية العارفين ٦٤/١ .

٧ - صبح الأعشى ١٢٤/١٤ .

المقامة اصطلاحاً^١ : هو فن كتابي سرد ، عبارة عن أحاديث خيالية أدبية بليغة ، تلقى في جماعة من الناس ، بطلها نموذج إنساني مكدر ومتسول ، لها راو وبطل وتقوم على حدث ظريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لوناً من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية وضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية" فهدفها الأساسي تعليم الناشئة اللغة وأساليبها .

يقول شوقي ضيف : (وبديع الزمان هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء ، إذ عبّر بها عن مقاماته المعروفة ، وهي جميعها تصور أحاديث تُلقى في جماعات ، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث)^٢ .

^١ - صبح الأعشى ١٢٤/١٤ ، وانظر : المقامة : شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة السابعة ، ص ٨ .

^٢ - المقامة : شوقي ضيف ، ص ٨ .

نشأة فن المقامات :

زعم البعض أن أصل المقامات فارسي ، وأنها انتقلت من اللغة الفارسية إلى العربية ، ويرد على ذلك بأن المقامات قد ظهرت في اللغتين العبرية والسريانية بعد ترجمة مقامات الحريري ، ولو كان أصل المقامات فارسياً لكان الأولى أن تنتقل المقامات إلى هاتين اللغتين من المقامات الفارسية وليس العربية .

كما أن أول من ألف مقامات فارسية هو القاضي حميد الدين الذي ذكر أنه ترسم خطى البديع والحريري رغبة منه في إدخال هذا الفن إلى اللغة الفارسية ، المقامة إذاً فن عربي أصيل ، وهدفه الأساسي هو تعليم اللغة العربية وأساليبها ، ومعرفة فنونها وأفنانها ، كما تضاربت الأقوال في أصل المقامات ، فإن التضارب حول من اخترعها كان أشد وأعنف ، فيرى فريق أن بديع الزمان عارض أحاديث ابن دريد^١ فنشأت المقامات ، ويستدلون على ذلك بعدة أقوال منها :

أولاً : قول الحصري^٢ في زهر الآداب أن بديع الزمان (لما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، في معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ... عارضه بأربعمئة مقامة في الكدية^٣ ، تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً)^٤ .

^١ - محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية ابن خيثم العربي البصري أبو بكر اللغوي الشافعي الأديب نزيل بغداد الشهير بابن دريد ولد سنة ٢٢٣ وتوفي سنة ٣٢١ إحدى وعشرين وثلاثمائة . من مصنفاته : أدب الكاتب ، أسماء القبائل ، هداية العارفين ٤٦٢/١ .

^٢ - أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني المعروف بالحصري " بضم الحاء المهملة " والقيرواني " بفتح القاف والراء " الشاعر المشهور توفي سنة ٤٥٣ ثلاث وخمسين وأربعمئة ، له كتاب زهر الآداب وثمر الألباب ، هداية العارفين ١ / ٤ .

^٣ - كَدَى الرجل يَكْدِي وَأَكْدَى قَلل عطاءه وقيل بخل ، وأصل الكُدْيَةُ : الأرض الصلبة والجمع كُدَى ، لسان العرب ٢١٦/١٥ .

^٤ - زهر الآداب وثمر الألباب : إبراهيم بن علي بن تميم الحصري ، تحقيق صلاح الدين الهواري ، دار الفكر ، ٢٠٠٥ م ١٠٦/١ .

وثانياً : بأن هناك نقاط اتفاق بين أحاديث ابن دريد ومقامات البديع ، وتتمثل هذه العلاقة في الاسم ، فإن من معاني المقامة [وهو الاسم الذي سمى به بديع الزمان فنه الأدبي] الحديث ، ويجمع على أحاديث وهو الاسم الذي اختاره ابن دريد لأقاصيصه ، كما أن الغاية من أحاديث ابن دريد ومقامات البديع واحدة وهي تعليم الناشئة اللغة^١ .

بينما يؤكد فريق آخر على أن البديع هو مخترع هذا الفن ، ويردون على زعم القول السابق بأن أحاديث ابن دريد نوارد ولطائف لم يستقل بها دون غيره ، فللجاحظ^٢ في الحيوان والبخلاء مثله ، ولابن قتيبة^٣ في عيون الأخبار، ولابن عبد ربه^٤ في العقد الفريد كذلك .

كما أن ابن دريد يبدأ أحاديثه بذكر سند الحديث، ولا يفعل البديع كذلك . كما أن أبطال ابن دريد ورواته يختلفون من حديث لآخر، أما بديع الزمان فبطله واحد وهو أبو الفتح الإسكندري ، وراويته أيضاً واحد وهو عيسى بن هشام .

ولا ننسى الكدية التي جعلها البديع محوراً لأغلب مقاماته، بينما لم تتحى أحاديث ابن دريد هذا المنحى ، كما أن أحاديث ابن دريد مالت إلى الطريقة التقريرية المباشرة ، أما بديع الزمان فقد غلف أهدافه داخل الحكمة الفنية للمقامة .

١ - صبح الأعشى ١٢٥/١٤ .

٢ - عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى أبو عثمان البصري الإمام اللغوي المعروف بالجاحظ تلميذ النظام البلخي كان من المعتزلة ولد سنة ١٥٠هـ وتوفي سنة ٢٥٥هـ . له من التصانيف :

أخلاق الشطار ، أخلاق الملوك ، البيان والتبيين ، انظر : هداية العارفين ٤٢٧/١

٣ - محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو علي محمد عالم ولد عام ٢١٣هـ ومشارك في أنواع من العلوم كالنحو واللغة والفقه وغريب القرآن ومعانيه والحديث والشعر توفي سنة ٢٧٦هـ ، معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م ٥٩٧/٢ ، و شذرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحي بن العماد الحنبلي ، دار الآفاق الجديدة ، ٣٣/٢ .

٤ - أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب ابن جدير بن سالم أبو عمر القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمن الأموي ولد سنة ٢٤٦هـ وتوفي سنة ٣٢٨هـ ، صنف : الإرشاد في اللغة ، ديوان شعره ، العقد الفريد في النوارد والأدب ، هداية العارفين ٣١/١ .

ثم إن القول السابق للحصري - والذي استشهد به أصحاب الرأي القائل بأن البديع عارض ابن دريد بمقاماته - يحمل بين طياته تناقضاً حول معارضة البديع لابن دريد ، فأحاديث ابن دريد تبلغ أربعين حديثاً ، ومقامات بديع الزمان - وفقاً لقول الحصري السابق وبغض النظر عن الاختلاف في عدد المقامات - قد وصلت إلى أربعمئة مقامة ، فيكيف يعارض البديع أربعين حديثاً بأربعمئة مقامة؟ ومهما يكن من أمر اختلاف الآراء حول تأثير بديع الزمان بأحاديث ابن دريد ، فإن البديع قد أظهر هذا الفن في صورة فنية رائعة ، وقد اعتبر رائد هذا المجال وزعيمه المٌجيد ، بل لقد التصق اسم المقامات ببديع الزمان في أذهان الناس ، وحسبه ذلك^١ .

ولو كان البديع قد أخذ من ابن دريد حقاً ، فإن ذلك لا يعيبه ، بل يزيد من إبداعه الفذ النادر المثل ، إذ ليس من السهل أن يتفوق التلميذ على أستاذه ، وقد احتذى العديد من الناس حذو هذا الأستاذ الفذ ، لعل الحريري من أبرزهم ، بالإضافة إلى الغزالي^٢ والصفدي^٣ وغيرهما ، غير أن هؤلاء كلهم لم يصلوا شأو البديع في هذا الفن البديع .

وهكذا نرى أن المقامة تمثل أحد الأشكال الإبداعية التي أفرزتها المخيلة العربية ، والتي تم إعتبارها كأحد الأجناس الأدبية منذ أن أبدعها بديع الزمان الهمداني ووضع لها من خلال إبداعه شروطها التي تحققت بعد ذلك في مقامات الحريري ، فبلغت الذروة في هذا الشكل ، وشجع الكثيرين على الكتابة في هذا اللون الجديد .

^١ - المقامة : شوقي ضيف ، ص ٩ .

^٢ - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، ولد بطروس من أعمال خراسان ، سنة ٤٥٠ هـ من والد فقير صالح كان يعمل بغزل الصوف ، حجة الإسلام ، متصوف له " إحياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة ، وغيرها توفي بطوس ٥٠٥ هـ ، انظر هداية العارفين ٢ / ٧٩ .

^٣ - خليل بن الأمير عز الدين أبيك بن عبد الله صلاح الدين أبو الصفاء الصفدي ثم الدمشقي الأديب ولد سنة ٦٩٦ هـ وتوفي سنة ٧٦٤ هـ بدمشق من تصانيفه أعوان النصر في أعيان العصر في التاريخ والتراجم مجلدات ، هداية العارفين ١ / ١٨٥ .

الفصل الأول

**الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية
في القرنين السابع والثامن الهجريين**

المبحث الأول : الحياة السياسية

المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية

المبحث الثالث : الحياة الأدبية

المبحث الأول الحياة السياسية

بدأت الخلافة العباسية بالتقهقر والتراجع بعد أن استحكمت سيطرة الموالى والمماليك الذين تربوا على أيدي الخلفاء وأخذوا يتسللون إلى مناصب الدولة العليا إلى أن أصبحوا يتصرفون بمقدرات الأمة حيث استقلت بعض الأقطار عن جسم الخلافة واشتعلت نعرات كانت معاول هدم لهذه الخلافة ، وزاد على ذلك الزحف الصليبي المملوء بالحقد والبغضاء والذي اجتاح المدن وأزهق الأرواح بالإضافة إلى ما صنعه المغول والتتار والقادمون من هضبة التيب والذين زحفوا على أرض العراق والشام كجموع الجراد فالتهموا كل ما اعترض طريقهم بعد أن اجتاح هولاء مدينة بغداد أربعين يوماً نهب فيها المدينة وانتهكت الأعراض وألقيت ثمرات الفكر والثقافة والحضارة والعلم في دجلة الذي جرى ماءه ثلاثة أيام مصبوغاً بالمداد الأسود ، وقد كان عام (٦٥٦هـ) إذناً بسقوط الخلافة العباسية ثم تقدمت جموع التيار واستولت على حلب بالقوة ثم على حمص وحماة وعلى دمشق صلحاً حين هزم التيار بعد معركة طاحنة .

وأسس قطز في مصر والشام دولة قوية وصمد أمام غارات الفرنجة وهزم التتار مرتين أخريين عام (٦٧١هـ) وعام (٦٧٥هـ) واستقدم أحمد بن الظاهر العباسي الذي كان والده آخر الخلفاء العباسيين ، وبايعه بالخلافة، وبقي المماليك يحكمون مصر والشام حتى عام (٩٢٣هـ) إلى أن استولى العثمانيون على مصر وقتلوا ملكها^١ .

وآل الحكم إلى المماليك فاجتمعت كلمتهم على تعيين الأمير عز الدين أيبك التركماني فلقبوه بالملك المعز ، واستمر في الحكم حتى قتل عام ٦٥٥هـ .

^١ - انظر : البداية والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، مكتبة المعارف ، بيروت (حوادث سنة ٦٤٧ هـ) ٢٠٠/١٣ وما بعدها . .

وخلف الملك المعز ابنه الملك المنصور نور الدين الذي لم يلبث في الحكم غير سنتين فقط حيث تمكن المملوك سيف الدين قطز من انتزاع الملك منه ، وقد تمكن هذا الملك من مواجهة التتار الغازيين وعمل بكل جد وإخلاص لردهم عن بلاد المسلمين حتى تمكن بفضل الله تعالى من دحرهم في المعركة الشهيرة بعين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، وقد تمكن بفضل هذا النصر العظيم من جمع كلمة الأمة وجمع الصف وتوحيد بلاد الشام ومصر تحت حكم المماليك ^١ .

أحيا هذا الانتصار الأمل في نفوس الكثيرين في إعادة الخلافة من جديد ، وقد كان الملك الظافر قطز يحلم بهذا الأمل غير أن هذا الأمل سرعان ما تبدد بعد مؤامرة راح ضحيتها الملك قطز وتولى مكانه الظاهر بيبرس الذي حاول جاهداً لإعادة الخلافة مرة أخرى تمثل ذلك في نقل الخلافة من بغداد إلى القاهرة واستقدام أحد بني العباس وهو الأمير أبو القاسم احمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله وقد خرجت القاهرة لاستقباله وكان يوماً مشهوداً وكان ذلك سنة ٦٥٩ هـ ، وتمت مبايعته وتلقب بالمنتصر بالله وخطب له بالمنابر وجاءته البيعة من مختلف الأمصار ، ولكن كل هذا الأمر كان خدعة من الملك الظاهر بيبرس الذي أراد أن يظهر نفسه بمظهر المحتضن للخلافة الشرعية حتى ينال رضا الشعب الذي كان ينظر للمماليك نظرة ازدراء واحتقار ^٢ .

وكانت السلطة في عهد المماليك على مراتب على هذا النحو :

. الخليفة ويأتي في المرتبة الأولى من الناحية النظرية فقط .

. منصب الملك أو الحاكم وهو الحاكم الفعلي الذي بيده الولاية العامة وكان

يطلق عليه أيضاً لفظ السلطان .

. الأمراء وهم رؤساء الجند .

. نواب السلطة على الولايات .

^١ - انظر : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية بيروت ، ص ١٦٥ .

^٢ - التاريخ الإسلامي : محمود شاكر ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت لبنان ٣٧/٧ .

وقامت الدولة المملوكية كنتيجة طبيعية لذلك التزايد المستمر لعنصر المماليك الذي ظهر أيام الأيوبيين حين لجأوا لاستجلاب أعداد كثيرة منهم عن طريق الشراء أو الاسترقاق لتقوية الجيش ، فقد اعتمد الأيوبيون . خاصة السلطان صلاح الدين . اعتماداً كبيراً في نشاطهم العسكري على المماليك الأكراد لما يتمتعوا به من قوة جسدية وجسارة على القتال ، ولما ولي الملك الصالح نجم الدين السلطنة (٦٣٣ هـ . ٦٤٧ هـ) رأى أن يستعين بالعنصر التركماني لتقوية نفوذه فجلب أعداداً كبيرة من المماليك إلى القاهرة مما ضيق على الناس وسبب أذى لهم في أمنهم ومعاشهم^١ . وقد شارك هؤلاء المماليك مشاركة واسعة في حروب الأيوبيين مع الفرنجة وأبلوا بلاء حسناً في تلك الحروب مما زاد الثقة فيهم أكثر لدى العامة والساطين .

ولما انقضى عهد آخر سلطان أيوبي وهو السلطان توران شاه^٢ بن الملك الصالح نجم الدين الذي قهر الصليبيين في معركة فارسكور^٣ سنة ٦٤٧ هجرية ، والذي اغتيل بعد هذا النصر الكبير آل الأمر إلى شجرة الدر^٤ (زوجة الملك الصالح) فملكت مصر وخطب لها على المنابر ، ولكن احتجاج الخليفة العباسي

^١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لجمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩١ هـ . ١٩٧٢ م ، ٣١٩/٦ .

^٢ - صاحب اليمن الملك المعظم ، شمس الدولة ، توران شاه بن أيوب ، أخو السلطان ، صلاح الدين ، هو أسن من السلطان ، فكان يحترمه ويرى له ، وكان بطلا شجاعا جوادا ممدحا ، ومعنى توران شاه : ملك الشرق ، سير أعلام النبلاء : أحمد بن محمد الذهبي ، مؤسسة الرسالة بيروت ٥٣/٢١ .

^٣ - انظر : تفاصيل هذه المعركة في البداية والنهاية لابن كثير (حوادث سنة ٦٤٧ هـ) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار : عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، الناشر : دار الجيل - بيروت ٢٨/١ .

^٤ - هي شجرة الدر الصالحية ، أم خليل ، كانت من جوارى الملك الصالح نجم الدين ، ولدت له فأعتقها وتزوجها ، شاركت في كثير من الأحداث في زمانها ، تزوجت الملك المعز عز الدين بن أيبك ثم قتلته فانتقم منها ولده فقتلها وألقى جثتها في المزبلة سنة ٦٥٥ هـ . انظر : البداية والنهاية ٢٠٠/١٣ ، الأعلام للزركلي ١٥٨/٣ .

في بغداد^١ ، واحتجاج العلماء على تولية النساء حكم المسلمين جعل شجرة الدر تتنازل لعز الدين بن أيك التركماني من الملك بعد أن تزوجته في سنة ٨٤٦ هجرية ، وهكذا انتقلت السلطنة من الأيوبيين إلى المماليك وأصبح ابن أيك أول سلاطين المماليك^٢ .

ويقسم المؤرخون دولة المماليك إلى دولتين :

الأولى : دولة المماليك (البحرية) وهم الذين حكموا من سنة ٦٤٨ إلى سنة ٧٨٤ هـ ، وقد سموا بالبحرية لأنهم سكنوا أول مقدمهم إلى القاهرة في قلعة الروضة على النيل ، وقد بلغ عدد سلاطينها خمسة وعشرين سلطاناً أشهرهم عز الدين بن أيك وقطر وبيبرس والأشرف وقلاوون .

الثانية : دولة المماليك (الجركسية) أو (البرجية) وهم الذين حكموا من سنة ٧٨٤ إلى سنة ٩٢٣ هـ ، وقد سموا بالجركسية لأن أكثرهم من الجنس الجركسي ، والبرجية لأنهم سكنوا في برج قلعة المقطم ، ومن أشهر سلاطينهم برقوق والمؤيد وبرسباي والغوري .

هذا تقسيم المؤرخين وهو تقسيم يبنني على التكوين العرقي للأمراء ، ولكن الواقع يقول أن هاتين الدولتين هما في الواقع دولة واحد لا تختلفان في شيء من نظم الحكم وأساليبه ومنهجه .

بدأت دولة المماليك قوية للغاية ، وقد تمثلت هذه القوة للعيان حين قام الملك المظفر سيف الدين قطز ثاني سلاطين المماليك بدحر التتار في وقعة عين جالوت المشهورة سنة ٦٥٨ هـ ، وقد كان لهذا الانتصار أثره البالغ في جميع البلاد الإسلامية ، إذ أعاد هذا النصر للمسلمين عزتهم المجروحة وأمنهم الذي افتقدوه بعد سقوط بغداد وقتل الخليفة العباسي على يد التتار سنة ٦٥٦ هجرية ، فقد كانت بقية الدولة الإسلامية في خطر بعد سقوط بغداد وزحف التتار نحو الشام ومصر ، فلما انكسر

^١ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة : جلال الدين أبو بكر السيوطي ، دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى ١٩٦٨ م ٣٤/٢ .

^٢ - تاريخ عجائب الآثار ٢٨/١ .

التتار على يد المماليك تنفس المسلمون الصعداء ، وعادت إليهم الثقة بأنفسهم بعد أن كاد اليأس يستولي عليهم ، ولا شك أن ما قدمه المماليك في هذا النصر العظيم من بسالة وتضحية قد جلب إليهم الاحترام من كل المسلمين وفي جميع أرجاء الدولة الإسلامية ، ولهذا دان المسلمون لهذه الدولة الوليدة بالولاء مما أطل مدتها وزاد في أيامها .

لقد استمرت دولة المماليك البحرية مائة وست وثلاثين سنة (٦٤٨ . ٧٨٤ هـ) تخللها كثير من الإنجازات السياسية منها صدّ التيار الصليبي والمغولي والباطني ، وتوحيد الأمة الإسلامية الواقعة تحت سيطرتها ، وقمع حالات التمرد والعصيان التي كانت تحدث في أطراف الدولة من الأكراد وغيرهم ، كما أنها قامت بإعزاز الدين وإرجاع مظاهره في المجتمع^١ .

وبالرغم من أن دولة المماليك قامت بكل هذه الإنجازات إلا أنها كانت مبتلاة بكثرة الفتن والقلق خاصة داخل قصور السلاطين وأروقة السياسة ، فقد بدأت هذه الدولة نتيجة لاغتيال توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين وانتقال السلطنة إلى الملك المعز عز الدين بن أيبك أول سلاطين المماليك ، ولكن ابن أيبك نفسه قتل على يد أتباع شجرة الدر ، وقتلت شجرة الدر على أيدي أتباع عز الدين ، ثم جاء إلى الحكم الملك المظفر سيف الدين قطز فقتل أثناء عودته من موقعة عين جالوت على يد مولاه ركن الدين بيبرس .. وهكذا استمر هذا المشهد الدموي أكثر فترة المماليك البحرية ، فما من ملك إلا وهو مخلوع أو مقتول .

وفي عصر دولة المماليك الجركسية التي استمرت مائة وتسع وثلاثين سنة (٧٨٤ . ٩٢٣ هـ) انتقلت الخلافة العباسية إلى مصر ، وازدهرت الحياة السياسية والعلمية فيها ، واستطاع ملوك هذه الدولة أن يرتقوا بها إلى أعلى الدرجات ، ولم تسلم هذه الدولة أيضاً كسابقتها من المصاعب على الصعيد الداخلي والخارجي ، فعلى الصعيد الخارجي واجه المماليك التتار بعد عودتهم مرة أخرى إلى البلاد

^١ - انظر هذه الانجازات في البداية والنهاية لابن كثير (حوادث سنة ٦٤٧ هـ) والسنوات التالية ٢٠٠/١٣ وما بعدها .

الإسلامية بقيادة أحفاد هولاكو في عهد أول سلاطينها الملك برقوق ، وجرت حروب عديدة بينهم وبين التتار كان أكثر الغلبة فيها للمماليك ، كما دخلت هذه المملكة في كثير من المواجهات مع الصليبيين واستطاعت أن تكسر شوكتهم وتخضعهم لسلطانها .

أما على الصعيد الداخلي فقد زادت حدة الفتن والاضطرابات داخل المماليك أنفسهم فبلغت أكثر مما بلغت في دولة المماليك البحرية ، فكثر القتل بين الملوك والأمراء ، كما كثرت المؤامرات والدسائس بين القواد والوزراء فعاشت السلطنة في نزاع طويل بين عزل الملوك ونفيهم وقتلهم وتشريدهم مما أدى إلى ضعف الدولة وانهيار قدراتها العسكرية والاقتصادية .

لقد اختصت دولة المماليك بأنظمة وعلاقات تختلف عن أنظمة الفاطميين والأيوبيين ، وإن احتفظوا بكثير من رسوم الخلافة العباسية ، ونظم الإدارة الإسلامية ، والفاطمية والأيوبية عامة ، كما نقلوا كثيراً من تقاليدها ، وأهم ما يبدو في توليهم السلطنة أساس القوة لا العدل ، فالقوة أساس الملك ، ومتى ملك أحدهم القوة استطاع أن يثب إلى الملك ويقصي السلطان القائم ، ويستطيع بعد ذلك أن يكسب الشرعية ببيعة الخليفة وموافقة أهل العقد من الأمراء وكبار رجال الدين من الفقهاء والقضاة ، ويبذل السلطان في سبيل ذلك من سيفه وماله ، ومتى تولى أحدهم السلطنة يصبح في وسعه أن يبطش بأي إنسان في دولته حتى لو كان نائب السلطنة ، أو أمير العسكر ، أو الخليفة أو قاضي القضاة ، أو كان أخص الناس به وأقربهم إليه ، متى اشتهم رائحة خيانة ، أو خشي على ملكه من ناحيته^١ .

هكذا كان الحال في دولة المماليك ، وقد أدت كل هذه الفتن إلى تفكك الدولة وانهيارها ، فلما جاء العثمانيون إلى مصر سنة ٩٢٣ هجرية وجدوها لقمة سائغة فانقضوا عليها وأزالوا حكم المماليك الذي دام نحواً من ثلاثمائة سنة .

^١ - الأدب في العصر المملوكي : محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى

وعموماً كان الحكم في عهد المماليك متقلباً وغير مستقراً باستثناء فترة الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون ، أما باقي الفترات فقد كانت مسرحاً للفوضى والاضطراب والانفلات الأمني والسياسي^١ .

^١ - التاريخ الإسلامي : محمود شاكر ٣٧/٧ .

المبحث الثاني الحياة الاجتماعية

كان المجتمع في هذا العصر في مصر والشام عبارة عن خليط من الأجناس والعناصر التي كانت تدين بأديان وعقائد مختلفة وكانت تلك الأجناس تمارس طقوساً وعادات متعددة ، وكان للحروب الكثيرة التي مرت بها البلاد أثراً واضحاً في نفوس وأخلاق وعادات هذه الشعوب وأبرز ما يميز هذا العصر الهجرات الكثيرة والنزوح المستمر للسكان نزوحاً من أماكن الصراع وهروباً من الحروب والنزاعات ، وكان نتيجة لهذا الأمر أن استقبلت بلاد الشام ومصر طائفة كبيرة من سكان وأهالي مناطق كثيرة منها : العراق وفارس ، وخراسان وبلاد الترك .

وكانت أكثر تلك الوفود والهجرات في عهد السلطان بيبرس ، وقد وصف المقريزي ذلك بقوله : (... ثم كثرت الوافدية في أيام الملك بيبرس وملأوا مصر والشام ، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم ، هذا وملوك مصر وأمرأؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعباً من جنكيز خان وبنيه وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم ، وكان التتار إنما ربوا بدار الإسلام ولقنوا أحكام الملة المحمدية فجمعوا الحق والباطل وضموا الجيد إلى الرديء)^١ .

وبحكم طبيعة دولة المماليك التي تقوم على العنصر غير العربي ، فقد تشكل المجتمع تشكيلاً جديداً خلافاً لما كان سائداً من قبل في عهد الأيوبيين والفاطميين ، فقد طغى الجنس التركي على الحياة وصار محورياً أساسياً للحياة السياسية والاجتماعية إذ كان السلطان والأمراء والقواد جميعهم من التركمان ، ومن ثم اصطبغ المجتمع المصري بهذا الصبغ المملوكي في كثير من جوانبه تبعاً للقاعدة التي تقول الناس على دين ملوكهم ، فقد امتد تأثير المماليك ليصل إلى جميع طبقات المجتمع

^١ - الخطط المقرية : أحمد بن علي المقريري ، منشورات دار العرفان ، لبنان ١٤٧/٣ .

المدني ويؤثر على نمط الحياة المختلفة ويظهر في صوره المختلفة من أشكال الإدارة والعمارة والملابس والأطعمة والرتب العسكرية وغيرها ، وبالجمله فقد كان تأثير المماليك على المجتمع كبيراً لأنه امتد نحواً من ثلاثة قرون ، ولا يزال كثير من هذا الأثر باقياً حتى اليوم .

لقد تنوعت طبقات المجتمع في بلاد الشام ومصر أيام المماليك فكانت سبع طبقات ، وفي ذلك يقول المقرئزي^١ : الناس بإقليم مصر في الجمله على سبعة أقسام :

. القسم الأول : أهل الدولة .

. القسم الثاني : أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية .

- القسم الثالث : الباعة ، وهم متوسطو الحال بين التجار ، ويقال لهم أصحاب البز ، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوقة .

. القسم الرابع : أهل الفلح ، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .

. القسم الخامس : الفقراء ، وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم .

. القسم السادس : أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن .

. القسم السابع : ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السوّال الذين يتكففون الناس ، ويعيشون بهم)^٢ .

هذه هي طبقات المجتمع في دولة المماليك ، أما التركيبة السكانية فقد كانت موزعة بين المواطنين الأصليين الذين يمثلون الأغلبية وبين العناصر الأخرى غير

^١ . محمد بن علي بن عبد القادر بن محمد ابن إبراهيم نقي الدين المقرئزي " بفتح الميم نسبة إلى مقرئز محلة من بعلبك " البعلبي ثم المصري الفقيه المؤرخ الشافعي ولد سنة ٧٦٩هـ وتوفي سنة ٨٤٥هـ من تصانيفه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار في تاريخ مصر ، هداية العارفين ٦٧/١ .

^٢ . الخطط المقرئزية ١٥٠/٣ .

العربية كالأكراد والتركمان وبقية الممالك والمرتزة المستجلبين من الشعوب المجاورة

وتصف المصادر التاريخية أن التتار كانوا يتحاكمون في الأمور الدينية المحضة كالعبادات والأحوال الشخصية كانوا يتحاكمون إلى قاضي القضاة ، أما فيما يتعلق بالعوائد والأمور الجنائية فيرجعون إلى الحاجب ليحكم بينهم على مقتضى قوانين جنكيز خان وقد كانت في معظمها قوانين قاسية بالمقارنة مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية السمحاء ، وكانت تشيع في المجتمع في هذا العصر الكثير من الظواهر السالبة منها الانحلال الأخلاقي والظلم والمكر والخديعة والدسائس ، فضلاً عن تفشي البدع والخرافات في صفوف العامة من المسلمين .

وقد كان للتصوف أثر كبير في ذلك ، إذ حملت بعض طرقه عناصر وأفكاراً غريبة مستقاة من التصوف الهندي والمسيحي وقد كان هذه الأفكار تمتزج بآراء فلسفية محضة ، فأصبح لها صبغة إسلامية ، حتى أصبح من الصعب وضع حد فاصل بين الأصل والدخيل .

وانتشرت في تلك الفترة أفكار وفلسفات كثيرة كان لها الأثر الكبير في تقدير التصوف ومن تلك الفلسفات والكتابات :

. كتابات ابن سينا^١ في الفلسفة .

. آراء السهروردي^٢ في التصوف الإشراقي .

. أفكار ابن عربي^١ في وحدة الوجود .

^١ - هو الحسين بن عبد الله بن سينا ، أبو علي ، شرف الملك (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) الفيلسوف الرئيس ، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعات الإلهيات ، ومولده في إحدى قرى بخارى ، وطاف البلاد ، وتقلد الوزارة في همذان ، ثم صار إلى أصفهان ، وصنف بها أكثر كتبه ، وعاد في أواخر أيامه إلى همذان ، ومات بها ، الوافي بالوفيات لصالح الدين خليل الصفي ، دار إحياء التراث بيروت ، ٢٠٠٠م ١/ ١٧٥٠ .

^٢ - هو أبو الفتوح يحيى بن حبش الحكيم شهاب الدين السهروردي (٥٤٩ - ٥٨٧ هـ) ، فلسفي ، وكان يتهم بانحلال العقيدة فأفتى علماء حلب بإباحتها فقتله فقتله الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٧ هـ ، وهو صاحب حكمة الإشراق ، الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٩ .

. أشعار ابن الفارض^٢ في المحبة والعشق .

وصار لشيوخ التصوف شهرة واسعة وأتباع ومريدون يثقون في أفكارهم ويعتقدون ولايتهم ويؤولون كلامهم تأويلاً حسناً وإن كان ظاهره كفرةً صريحاً ، فضلّ لأجل ذلك كثير من العامة بسبب الأفكار المنحرفة التي كانت تسود المجتمع .

وبالرغم من أن الدين السائد هو الإسلام فقد كان هنالك أعداد من المواطنين من أهل الذمة من النصارى واليهود الذين يعيشون في كنف الدولة على الأساس الذي قرره الشريعة الإسلامية ، أما علاقة الدولة بهؤلاء الذميين فقد كانت متأرجحة ، فمن السلاطين من ألزمهم بالشروط العمرية^٣ فضيق عليهم ، ومنهم من تساهل معهم وأوكل إليهم بعض المناصب الرفيعة في الدولة مما أثار غضب الرعية والعلماء على السواء^٤ ، فمن السلاطين من مكّن للنصارى كالملك الناصر الذي اتهمه الناس بممالأة القبط وتقديمهم وتحكيمهم في رقاب الناس^٥ .

^١ - هو محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو بكر الأندلسي المعروف بمحي الدين بن عربي ، (٥٦٠ - ٦٤٠ هـ) فيلسوف ، ولد في مرسية بالأندلس وانتقل إلى اشبيلية وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز ، وأنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه ، فعمل بعضهم على إراقة دمه ، وحبس فسعى في خلاصه علي بن فتح اليعياشي واستقر في دمشق ومات فيها له كتاب الفتوحات المكية ، انظر : البداية والنهاية ١٥٦/١٣ .

^٢ - هو عُمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل ، المصري المولد والوفاء ، الملقب شرف الدين بن الفارض (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) شاعر متصوف يلقب بسلطان العاشقين ، في شعره فلسفة تتصل بما يسمى (وحدة الوجود) انظر : البداية والنهاية ١٣ / ١٤٣ .

^٣ - الشروط العمرية هي الشروط التي ألزم بها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه النصارى عند فتح بيت المقدس ، وقد تناولتها كتب كثيرة بالشرح من أهمها كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية .

^٤ - البداية والنهاية ٥٤/١٤ .

^٥ - السلوك لمعرفة دول الملوك : أحمد بن علي بن عبد القادر المقريري ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧ م ١٣٥/٢ .

حاول المماليك القيام بدور إصلاحي في بنية المجتمع الاقتصادية فعنوا بعض الشيء بالزراعة فاهتموا بأدوات الري المختلفة فشقوا القنوات ، وأقاموا الجسور ، ووسعوا الترع فانتعشت الزراعة قليلاً لكنها سرعان ما تدهورت بسبب الأنشطة العسكرية الكثيرة التي أخذت من الدولة كثيراً من الجهد والإنفاق ، ومن ثمّ كان المزارعون في هذه المملكة من بين طبقات المجتمع الدنيا ، ولم يكن المزارع في حقيقة الأمر سوى أجير يعمل في أرض غيره من الإقطاعيين الكبار .

وبسبب النشاط العسكري للمماليك واختلال الأحوال الأمنية في البلاد لكثرة المؤامرات والدسائس تدهورت الصنائع التي لم يعن بها السلاطين عناية كافية ، فلم تعرف من الصناعات سوى السجاد والأواني المنزلية وغيرها .

ومن المظاهر التي كانت واضحة في هذا العصر انتشار فن العمارة ، فقد تفنن المماليك في بناء الدور والمنازل والمرافق العامة مثل المساجد والمؤسسات والمدارس والمستشفيات وغيرها خاصة في المدن الكبيرة مثل القاهرة والإسكندرية ، وقد تجلّت في هذا المباني آيات العمارة الفنية الراقية من زخارف وهندسات تشير إلى المستوى الفني الرفيع الذي وصل إليه فن العمارة في هذا العصر^١ .

وقد اهتم المماليك في هذا العصر اهتماماً كبيراً بالمراسم الدينية والأعياد فكانوا يقيمون المهرجانات والحفلات في المواسم والمناسبات الدينية الإسلامية والمسيحية والوطنية .

وقد عرف المماليك بالمبالغة في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي كان يقام كل سنة مصحوباً بمظاهر الزينة من إنارة بالشموع وقرع الطبول وصناعة الموائد غيرها ، أما الاحتفال بالأولياء والصالحين فقد كان على مدار السنة تقريباً ، فلم يكد يمضي وقت قصير على الاحتفال بأحد الأولياء حتى يبدأ الاحتفال بآخر وهكذا كان الشعب يعيش في احتفالات مستمرة رغم فقره وعوزه ، ولا غرابة في ذلك إذ كان

^١ - التاريخ الإسلامي : أحمد شلبي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩م ،

كثير من أفراد الشعب يجد قوته من هذه الاحتفالات التي تتفق عليها الدولة بسخاء كما كان البعض يجد فيها مجالاً للنزهة والترفيه ، وعن هذه الاحتفالات يقول ابن تغري بردي (وصار هذا الوقت عندهم من جملة النزه يتواعدون عليه من قبل عمله بأيام وتتوجهون إليه أفواجاً)^١ .

وقد بالغ المماليك في تقدير المتصوفة فقرّبوا علماءهم ، وبنوا لهم الرباطات والزوايا والتكايا ، وأجروا لهم الأرزاق ، فنشطت الحركة الصوفية نشاطاً كبيراً في دولة المماليك مما كان له أثر واضح في ظهور ذلك العدد الكبير من الطرق الصوفية ورجالها ومصنفاتها ، ولا نعدو الحقيقة إن قلنا أنه لا يوجد إرث صوفي من المصنفات والكتب أكثر مما وجد في الدولة المملوكية ، كل ذلك لتقدير السلاطين المماليك لهذا النوع من المعارف ، وتشجيع أصحابها مادياً ومعنوياً .

ولللثراء الفاحش الذي كان يتمتع به الملوك والأمراء فقد انتشرت ظاهرة اللهو والطرب في قصور السلاطين والأمراء ، كما توسعت دائرة شراء العبيد والجواري وظهرت المغنيات في الأفراح والمآتم يضربن بالدفوف وغيرها .

وهكذا نجد أن العصر المملوكي كان عصر حروب وجهاد ، كما كان عصر لهو ولعب ، فقد سار الاتجاهان جنباً إلى جنب حتى آذنت شمس الدولة بالزوال ، ويمكن تلخيص أهم سمات المجتمع في العصر المملوكي فيما يلي :

اعتزال العرب الأمور السياسية والحربية ، انصرفوا إلى الزراعة والصناعة والعلم والأدب .

أما المماليك فقد تميزوا بالصفات التالية :

. السيطرة على البلاد بالقوة ونشر الدسائس .

. الاعتماد على الكتاب والعلماء في تنظيم أمور الدولة .

. أبقوا اللغة العربية لغة الدولة الرسمية .

. بناء المدارس والمساجد والمكتبات .

. ساعدوا على ازدهار الحركة التأليفية .

^١ . النجوم الزاهرة ٩١١/٧ .

أما الحالة الاقتصادية في مصر والشام في هذا العصر فقد كانت في الغالب سيئة نسبة لعد الاستقرار الذي كان سببه التنازع حول السلطة وتوالي الغارات والحروب التي كان يشنها الصليبيون والتتار على البلاد الإسلامية .

وقد كان من أعظم آثار هذه الحروب ما يلي :

- نقص المحاصيل الزراعية بسبب عزوف الناس عن الزراعة لانعدام الأمن .

- توقف التجارة بسبب قطع الطرق ونهب الأموال بسبب الفوضى والاضطرابات .

- ارتفاع الأسعار نسبة لقلّة الموارد المنتجة وللاحتكار .

وقد كان للعلماء دور مهم وبارز في الوقوف إلى جانب الرعية والدفاع عن حقوقهم^١ .

^١ - حسن المحاضرة ٩٨/٢ .

المبحث الثالث الحياة الأدبية

على الرغم من الكارثة التي أصابت العالم الإسلامي بحروب التتار والصليبيين وانتهت بخراب حاضرة الدولة مدينة بغداد إلا أن هذا الأمر كان له جانب إيجابي آخر بالنسبة لمدن أخرى منها دمشق والقاهرة ، فقد انتقلت الحركة العلمية والثقافية إلى هاتين المدينتين ، كما ساعد الاستقرار النسبي للحكم في عهد المماليك من انتشار العلم وظهور نهضة علمية تمثلت في إقبال العلماء بهمة عالية على تدريس العلوم الشرعية وتأليف الموسوعات الجامعة فيها .

ويصف المؤرخون حال القاهرة في هذا العصر بأنها (حين صارت دار خلافة عظم ، وكثرت شعائر الإسلام فيها وعلت فيها السنة وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء)^١ .

وتميز هذا عصر المماليك بنضج العلوم ، واستقرار المصطلحات العلمية ، وتنسيق الأفكار والموضوعات وترتيبها ، ولما انتهى المماليك من القضاء على التتار في الشام وعادوا إلى مصر ، رأوا ذلك العدد من العلماء الذين توافدوا على مصر ، ورأوا أن في إكرام هؤلاء العلماء تقدير للدين والعلم والشريعة ، كما فيه تثبيت لدولتهم الوليدة ، فقاموا برعاية هؤلاء العلماء أتم رعاية ، ووفروا لهم جميع ما يحتاجون إليه ، وقربوهم إليهم وشاورهم واستعانوا بهم في وظائف الدولة العلمية كالقضاء والإفتاء والحسبة وغيرها .

وفي هذا الوضع المميز الذي وفره الحكام قرر العلماء أن يجعلوا من مصر مستقراً لهم ، فأقاموا بها بين حفاوة السلاطين والرعية ، ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى كانت مصر المركز العلمي الأول في العالم الإسلامي .

١- حسن المحاضرة ٩٤/٢ .

وقد ساعد سلاطين المماليك في تنمية هذا الجو العلمي وازدهاره ، فبنوا المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف ، وقد حفظ لنا التاريخ أسماء مدارس كثيرة حملت أسماء السلاطين الذين أسسوها ، فمن هذه المدارس ^١ :

١/ المدرسة الظاهرية القديمة ، وقد أنشأها الملك الظاهر بيبرس ^٢ سنة ٦٦٢ هـ .^٣

٢/ المدرسة الظاهرية الجديدة ، وقد أنشأها الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٨ هـ .

٣/ مدرسة السلطان حسن ، وقد أنشأها السلطان حسن بن قلاوون سنة ٧٦٢ هـ .^٤

٤/ المدرسة المؤيدية ، وقد أنشأها الملك المؤيد سنة ٧١٠ هـ .

٥/ المدرسة المنصورية ، وقد أنشأها الملك المنصور قلاوون .

٦/ مدرسة الأمير جمال الدين ، وقد أنشأها سنة ٧١٠ هـ .

وغيرها من المدارس في الأرياف والقرى .^٥

دور المساجد في نشر العلم في هذا العصر :

لقد حض الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة وكذلك حث المسلمين على الحصول عليه أينما كانوا^٦. وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول من اتخذ المسجد مكاناً للدعوة والتعليم إذ كان يعلم

^١ - انظر : الحياة الأدبية في مصر (العصر المملوكي والعثماني) لمحمد عبد المنعم خفاجي ص ٢٦ وما بعدها .

^٢ - هو بيبرس بن عبد الله البندقراري الصالحي النجمي الأيوبي ، مات سنة ٦٧٦ هـ ، النجوم الزاهرة ٩٤/٧ .

^٣ - حسن المحاضرة ص ٢٤٨ .

^٤ - عجائب الآثار ٣٢/١ .

^٥ - المصدر السابق ٣٨٠/٣ .

^٦ - الإسلام في حضارته ونظمه : أنور الرفاعي ، دار الكتاب العربي القاهرة ، ص ٥٣٧ .

المسلمين الأوائل في مسجد قباء بالمدينة وهو أول مسجد أقيمت فيه جمعة وبعد ذلك بمسجده صلى الله عليه وسلم بالمرید بالمدينة^١ .

وتتابع إنشاء المساجد بتقدم الفتوحات الإسلامية واتساع رقعة الدولة الإسلامية فتم إنشاء المساجد في القرى والمدن مثل جامع عمرو بن العاص في مصر والمسجد الأموي في دمشق^٢ .

ويعتبر المسجد المكان الرئيس لنشر الثقافة الإسلامية بإقامة الحلقات الدراسية ، وكانت الدراسات في صدر الإسلام الأول دراسات دينية تشرح تعاليم الدين ، وتعليم الدين والقرآن الكريم والحديث والفقه ولما تنوعت العلوم في العصر العباسي وتنوعت كذلك حلقات الدروس ، فكانت هناك حلقة لتدريس النحو وأخرى للشعر والأدب وغيرهم^٣ .

ولم يكن المسجد مصلًى فقط بل كان مكاناً للتعليم وداراً للإفتاء ومنطلقاً للنوادر ، وكان ميداناً لاجتماع الجيوش وداراً لاستقبال السفراء وكذلك كان المسجد مكاناً لتصرف شؤون الدولة قبل إنشاء الدواوين الحكومية وكانت تذاع منها الأخبار الهامة وفيها يتم التجهيز للحرب والغزوات وكذلك كان الخليفة يلقي خطبته فيه أثناء خلافته والتشاور في الأمور الهامة^٤ .

والطريقة المتبعة في المسجد هي طريقة الحلقات والتي يجلس فيها الناس على الأرض في ركن من أركان المسجد ويأخذ الأستاذ مكانه في أول الحلقة ويجلس المستمعون والتلاميذ حوله^٥ .

^١ - التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية : محمد منير مرسى ، القاهرة : عالم الكتب ١٤٢١هـ ص ٢٢٤ .

^٢ - مراكز ومعاهد التعليم في الإسلام : عبد الغنى عبد الفتاح محمد النورى ، مجلة التربية ، العدد ١١٦ ، ص ٧١ .

^٣ - ضحى الإسلام : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٦٧م ، ٥٢/٢ .

^٤ - مراكز ومعاهد التعليم في الإسلام : عبد الغنى عبد الفتاح ، مجلة التربية ، العدد ١١٦ ، ص ٧٢ .

^٥ - الحضارة العربية الإسلامية : علي حسن الخربوطلي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص ٣٣٤ .

وكان لكل فرع من فروع المعرفة حلقاته أو حلقاته الخاصة فكان هناك حلقة لمحدث وأخرى لقصاص أو مفسر أو نحوي أو متكلم^١ وكانت حلقات الفقهاء أكثر الحلقات ازدهاراً وكان يقصدها الطلاب الذين يريدون مناصب في القضاء أو الحسبة أن يتولوا وكذا الحال في حلقات المتكلمين^٢.

وتنوعت الدراسة في المسجد وشملت الفقه والفلسفة والأدب والتاريخ والحساب والفلك والطب والعلوم الطبيعية^٣.

وقد كانت المساجد في هذا العصر عامرة بالحلقات العلمية التي كانت تدرس العلم بمختلف ضروبه كالتفسير وعلومه والحديث وعلومه والفقه على مختلف المذاهب .

وبجانب هذه المساجد كانت تلحق دور وزوايا وأروقة للتدريس وإيواء طلبة العلم ، كما هو الشأن بالنسبة لجامع عمرو والجامع الأزهر بالقاهرة ، وقد تجري على بعض المساجد رواتب خاصة لبعض القائمين عليها من أئمة ومؤذنين وعمال كجامع ابن طولون في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين المملوكي وتوقف عليها تدر عليها مالا كثيراً يكفي لمؤونة المجاورين لها من الفقراء وطلاب العلم^٤ .

دور المكتبات في نشر العلم في هذا العصر :

وبجانب المساجد والمدارس فقد أسس السلاطين عدداً من المكتبات العامة التي جلبوا لها الكتب من أقاصي الدنيا .

^١ - تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول : شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ ، الطبعة السادسة ، ص ١٠١

^٢ - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية : بشير رمضان التليسي ، دار المدار الإسلامي ، ٢٠٠٢م ، الطبعة الأولى ، ، ص ٢٥٥ .

^٣ - مراكز ومعاهد التعليم في الإسلام : عبد الغنى عبد الفتاح النورى ، مجلة التربية ، العدد ١١٦ ، ص ٧٢ .

^٤ - البداية والنهاية ٨٤/١٣ .

العصر العباسي وذلك عندما نشطت حركة الترجمة والتأليف وتقدم صناعة الورق وظهور الوراقين وبالتالي كثرت المكتبات التي كانت زاخرة بالكتب الدينية والعلمية والأدبية^١ .

ولم تقتصر هذه المكتبات على بيع الكتب بل كانت ملتقى للأدباء والمتكلمين وكانت تعقد بها الندوات والمناقشات والمناظرات^٢ .

ولقد لعبت دورا كبيرا في النهضة العلمية وصارت من أهم مراكز التربية وكانت ملحقة بالمساجد والمدارس والرباطات والبيمارستان وكما كانت مفتوحة لراغبي العلم^٣ .

ولقد اهتم المسلمون بالكتاب ونبع هذا الاهتمام من اهتمام الإسلام بالكتابة والقراءة وحثه عليهما ، لذلك قام العلماء بشراء الكتب من الوراقين والنساخ أو عن طريق تقييد ما يسمعون في مجالس العلم ، وكانت المنافسة شديدة على اقتناء الكتب لدرجة أن اقتنى البعض الكتب للمباهاة^٤ .

كما لعبت المكتبات دورا كبيرا في نشر العلم إذ وفرت الكتب لغير الأغنياء وكانت تستقبل كل الناس ، وقد زودها الخلفاء بالمؤلفات الثمينة ووفروا أسباب الراحة لروادها^٥ .

وقسمت المكتبات إلى ثلاثة أنواع وهي^٦ :

. مكتبات عامة .

. مكتبات بين العامة والخاصة .

^١ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : حسن ابراهيم حسن ، طبعة النهضة المصرية ١٩٨٢م ٣٠١/٢

^٢ - تطور الفكر التربوي : سعد مرسى احمد ، ص ٢١٩ .

^٣ - التربية وتطورها في البلاد العربية : محمد منير مرسى ، ص ٢٣٥ .

^٤ - فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم : زكريا هاشم زكريا ، ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٢٧٨ .

^٥ - العلوم عند العرب : محمد إبراهيم الصيحي ، ص ٧٧ .

^٦ - تطور الفكر التربوي : سعد مرسى احمد ، ص ٢٢٢ .

. مكتبات خاصة .

وتم إنشاء المكتبات العامة بالمساجد والمدارس ، وكانت مفتوحة لراغبي العلم وكانت توجد بها أماكن للاطلاع وأخرى لرواد المكتبة وللنساخ ، وكانت في أبنية جميلة وبها رفوف لوضع الكتب وكذلك أثبتت بأثاث فخم وفرشت بالبسط والحصير وكانت الكتب منظمة ومفهرسة^١ .

وكان يعمل بهذه المكتبات العامة موظفون ويرأسهم الخازن وهو أمين المكتبة وكان من أصحاب العلم ثم المترجمون والنساخ والمجلدون والمناولون وكانت مكتبة بيت الحكمة من أهم المكتبات العامة^٢ .

وأما المكتبات بين العامة والخاصة فهي مكتبات انشاءها الخلفاء والملوك تقرباً للعلم وللتباهي أيضاً ، ولقد اقتصر استخدامها على طبقة من العلماء والطلاب والباحثين وقد احتوت هذه المكتبات على كتب قيمة ونادرة^٣ . ومن أشهر هذه المكتبات في هذا العصر المكتبة المحمودية التي أفاد العلماء منها كثيراً وذكروها في مؤلفاتهم .

وعن هذه المكتبة يقول الإمام المقريزي : (ولا يعرف اليوم بديار مصر والشام مثلاً ، وبها كتب الإسلام من كل علم وفن)^٤ . لقد كانت مهمة العلماء الأولى بعد الغزو التتري لبغداد هو مراجعة ما فقده المسلمون بسبب تلك الحرب المدمرة التي قضت على معظم التراث الإسلامي بعد تدمير مكتبة بغداد وإغراق محتوياتها في دجلة^٥ .

^١ - مراكز ومعاهد التعليم في الإسلام : عبد الغنى عبد الفتاح النورى ، مجلة التربية ، العدد ١١٦ ، ص ٧٦ .

^٢ - تطور الفكر التربوي : سعد مرسى احمد ، ص ٢٢٢ .

^٣ - الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة : شوقي أبو خليل ، ٤٤٦ .

^٤ - الحياة الأدبية في مصر (العصر المملوكي والعثماني) ص ٢٧ .

^٥ - تاريخ الخلفاء : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط الأولى ١٩٥٢م ، مطبعة السعادة مصر ص ٣٩٧ .

ومن هنا كانت الحاجة ماسة لجمع ما تناثر من تراث الأجداد العلمي ووضعه في مصنفات مفردة ، وقد أثمرت جهود العلماء في هذا المجال فظهرت موسوعات ضخمة في شتى مجالات العلوم الشرعية والأدبية .

فمن هذه الموسوعات : ففي مجال التفسير وعلومه : ترجمان القرآن ومختصره الدر المنثور في التفسير بالمأثور^١ للسيوطي^٢ .

وفي مجال الحديث وعلومه : فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني^٣ .

وفي مجال الفقه : الفتاوى الكبرى لابن تيمية^٤ ، وفي مجال الأدب : لسان العرب لابن منظور الإفريقي^٥ .

^١ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة ، دار الفكر بيروت ١٩٨٢م ٧٣٣/١ .

^٢ - عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي جلال الدين وإمام حافظ مؤرخ أديب نشأ في القاهرة يتيماً مات والده وعمره خمس سنوات خلف كثير من كتبه منها : الإتيقان في علوم القرآن والدر المنثور والباب المنقول في أسباب النزول ، الأعلام للزركلي ١٣/٣ .

^٣ - أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، أبو الفضل ، شهاب الدين ، ابن حجر : أحد حفاظ الحديث في عصره ، أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته بالقاهرة ، وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل ، أما تصانيفه فكثيرة جليلة ، منها : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، والإصابة في تمييز الصحابة ، مات سنة ٨٥٢هـ ، الأعلام للزركلي ١٧٨/١ .

^٤ . هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) من كبار علماء الأمة ومصلحيها ، له اليد الطولى في كثير من العلوم الشرعية والعقلية ، من كتبه : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية والصارم المسلول على شاتم الرسول والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ودرء تعارض العقل والنقل ومجموع فتاويه . انظر : الوافي بالوفيات ٢٠/٦ ، تذكرة الحفاظ : محمد بن أحمد أبو عبد الله الذهبي ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ٢٧٨/٤ .

وفي مجال التراجم والسير : سير أعلام النبلاء للذهبي ، وفي مجال التاريخ : البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي^٢ .

فهذه الكتب وغيرها تعدّ من الموسوعات العلمية الشاملة ، ومن نظر في أي واحد منها عرف أنه ليس كتاباً مفرداً وإنما هو عشرات الكتب داخل كتاب واحد ، فالمصنفات العلمية في عهد المماليك أصبحت بعد ظهورها أهم من المصنفات المتقدمة عليها .

وفي الواقع أن عصر المماليك يعد أفضل العصور الإسلامية بعد القرن الثالث الهجري ، ذلك العصر الذي ظهر فيه عباقرة الإسلام مثل أصحاب المذاهب الفقهية والمحدثين والمفسرين وأهل اللغة والمؤرخين وغيرهم ، فإن كان القرن الثالث هو قرن البناء والتأسيس ، فالعصر المملوكي هو عصر الفهرسة والتنقيح والترتيب .

^١ . هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (٦٣٠ - ٧١١ هـ) أديب ولغوي ، قام باختصار كثير من الكتب المطولة ، من كتبه : لسان العرب ومختار الأغاني ، شذرات الذهب ٢٦/٦ .

^٢ . هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٠٠ - ٧٧٤ هـ) محدث ومفسر وفقه ومؤرخ ، عاش بدمشق وتوفي بها ودفن عند شيخه ابن تيمية ، من كتبه المفيدة : تفسير القرآن العظيم ، وجامع المسانيد والسنن الهادي إلى أقوم سنن البداية والنهاية في التاريخ . انظر : ، شذرات الذهب ٢٣١/٦ .

الرحلة في طلب العلم :

بدأت الرحلات لطلب العلم منذ صدر الإسلام وأكثر من شغفوا بالرحلة المحدثون ، لتفرق الصحابة في الأمصار الإسلامية^١ ، وكان هؤلاء الصحابة يحملون حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذهم عنهم التابعون ومن بعدهم وهناك أحاديث لم يروها الا عدد قليل من الصحابة لذا كان الناس يسعون إليهم^٢ .

ولم تكن الرحلة لجمع الأحاديث فقط ، فقد كان طلاب العلم يرحلون التماساً للمعرفة^٣ ، وقد يرحل البعض لمناظرة عالم مشهور بحلقاته ولم تقتصر الرحلة على العلوم الدينية بل شملت اللغة والفلسفة والطب وغيرها من العلوم^٤ .

ومن هذه الرحلات رحلة علماء اللغة إلى البادية لتقعيد اللغة والأدب وكذلك رحل طلاب الفلسفة إلى القسطنطينية^٥ .

وهناك نوع آخر من الرحلات ، هي رحلة العلماء والباحثون في شتى المجالات الدينية أو الاجتماعية أو التربوية أو الجغرافية وكانوا يرحلون لجمع المادة عن طريق أبحاثهم وملاحظاتهم الخاصة ومن هؤلاء ابن جبير وياقوت الحموي^٦ . ويقول ابن خلدون^٧ عن فائدة الرحلات العلمية : (والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم و أخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل : تارة علماً و تعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة

^١ - تاريخ الأدب العربي : شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص ١٢٧ .

^٢ - ضحى الإسلام ، ٧١/٢ .

^٣ - العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي ودراسات علمية أخرى : توفيق الطويل ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٠ .

^٤ - الإسلام في حضارته ونظمه : أنور الرفاعي ، ص ٥٣٨ .

^٥ - ضحى الإسلام ، ٧٠/٢ .

^٦ - التربية الإسلامية وفلاسفتها : أحمد شلبي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ص ٣٢٤ .

^٧ - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الإشبيلي ، (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) أصله من اشبيلية وتولى القضاء في مصر ، واشتهر بكتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون ، ومن مؤلفاته شرح البردة وكتاب في الحساب ، الأعلام للزركلي ٣/ ٣٣٠ .

والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخططة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم و تعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهم من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .^١

منازل العلماء :

أسهمت منازل العلماء في نشر العلم في هذا لعصر أيضاً ، وكان التعليم بالمنازل قديما قبل انتشار المساجد والكتاتيب وخير مثال كذلك دار الأرقم الذي اتخذته الرسول صلى الله عليه وسلم لتعليم المسلمين مبادئ الدين والقران وبعد ذلك منزل الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة .

وامتاز نظام التعليم في الإسلام بالسهولة والمرونة لذلك لم يتقيد بمكان معين فكانت الحلقات تعقد في بيوت العلماء وفي قصور الخلفاء وكان يحضرها الطلاب والراغبين في العلم^٢ .

ولظروف خاصة نجد أن هذه البيوت أصبحت ملتقى للطلاب والمدرسين ومركزا علميا هاما^٣ .

^١ - تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ١٩٨١م ٧٤٤/١ .

^٢ - التربية الإسلامية وفلاسفتها ، ص ٨٥ .

^٣ - تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٦٧ .

وقد اشتهر في عصر المماليك العديد من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان منهم^١ :

- . المقرئزي المصري صاحب كتاب الخطط .
- . المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور .
- . ابن خلكان^٢ صاحب كتاب (وفيات الأعيان) .
- . الإمام الشعراني^٣ صاحب المؤلفات الجليلة النافعة مثل كشف الغمة في الفقه .

.

^١ - التاريخ الإسلامي : أحمد شلبي ٥ / ٢٤٢ وما بعدها .

^٢ - محمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي ، الاريلي، الشافعي (شمس الدين أبو العباس) فقيه، مؤرخ، أديب، شاعر، مشارك في غيرها من العلوم ، من تصانيفه: وفيات الأعيان في انباء ابناء الزمان ، معجم المؤلفين ٥٩/٢ .

^٣ - عبد الوهاب بن احمد بن علي بن احمد بن محمد بن موسى الشعراني، الأنصاري، الشافعي، الشاذلي، المصري (أبو المواهب، أبو عبد الرحمن) فقيه، أصولي، محدث، صوفي، مشارك في انواع من العلوم ، من تصانيفه: الكثيرة : الجواهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم الدرر المنثورة في زيد العلوم المشهورة، لوائح الانوار في طبقات الاخيار، مات سنة ٩٧٣هـ ، معجم المؤلفين ٦ / ٢١٨ .

الفصل الثاني

كتاب المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين

المبحث الأول : ابن الوردي

المبحث الثاني : ابن المعظم

المبحث الثالث : القلقشندي والشاب الظريف

المبحث الأول
ابن الوردي
(٦٩١ - ٧٤٩ هـ)

اسمه ولقبه وكنيته^١ :

عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين
ابن الوردي المعري الكندي .

مولده ونشأته :

ولد في معرة النعمان (بسورية) وولي القضاء بمنبج ،

حياته العلمية :

تتلمذ ابن الورد على عدد من العلماء في عصره مثل :

. القاضي شرف الدين البارزي بحماة .

. الفخر خطيب جبرين بحلب .

ونظم البهجة الوردية في خمسة آلاف بيت وثلاث وستين بيتاً أتى على
الحاوي الصغير بغالب ألفاظه وأقسم بالله لم ينظم أحد بعده الفقه إلا وقصر
دونه^٢ .

وظائفه :

كان ينوب في الحكم في كثير من معاملات حلب وولي قضاء منبج
فتسخطها وعاتب ابن الزملكاني بقصيدة مشهورة على ذلك ورام العود إلى نيابة الحكم
بحلب فتعذر ثم أعرض عن ذلك^٣ .

^١ - مصادر ترجمته : فوات الوفيات : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥١م ١١٦ / ٢ و بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، دار المعرفة بيروت ص ٣٦٥ وكشف الظنون ٣٧٦/١ والأعلام للزركلي ٦٧/٥

^٢ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ٤٠٩/١ .

^٣ - المصدر السابق ٤٠٩/١ .

وكتب العلامة زين الدين بن الوردي إلى قاضي القضاة الكمال البازري وقد
كان عزله من منصب القضاء وولى أخاه^١ :

حَمَلْتِي وَأَخِي تَبَارِيحُ الْبَلَا ... وَتَرَكْتَنَا ضِدَّيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ
أَيَا حَيِّ عَالَمٍ عَصَرْنَا وَزَمَانَنَا ... أَلَيْكَ التَّصَرُّفُ فِي دَمِ الْأَخْوَيْنِ
فَأَجَابَهُ بِقَوْلِهِ:

يَا عَمْرُ أَنْزَجِرْ عَنْ مِثْلِ هَذَا ... فَأَحْمَدُ بِالْوِلَايَةِ مَطْمَئِن
فَإِنْ يَكُ فِيكَ مَعْرِفَةٌ وَعَدْلٌ ... فَأَحْمَدُ فِيهِ مَعْرِفَةٌ وَوَزْنٌ

آثاره العلمية :

من كتبه^٢ :

- ١/ ديوان شعر (مطبوع) فيه بعض نظمه ونثره .
- ٢/ تنمة المختصر في التاريخ، مجلدان، يعرف بتاريخ ابن الوردي، جعله ذيلًا لتاريخ أبي الفداء و خلاصة له .
- ٣/ تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة (مخطوط) .
- ٤/ نثر فيه ألفية ابن مالك في النحو .
- ٥/ الشهاب الثاقب (مخطوط) .
- ٦/ اللباب في الأعراب في النحو .
- ٧/ شرح ألفية ابن مالك في النحو .
- ٨/ شرح ألفية ابن معطي في النحو .
- ٩/ ألفية في تعبير الأحلام .
- ١٠/ تذكرة الغريب " منظومة في النحو .
- ١١/ مقامات في الأدب .
- ١٢/ منطق الطير وهي " منظومة في التصوف .

^١ - ثمرات الأوراق : أبو بكر بن حجة الحموي ، دار الكتب العلمية . تحقيق مفيد قميحة

١٩٧١م ص ١٩٧ .

^٢ - كشف الظنون ٣٧٦/١ والأعلام للزركلي ٦٧/٥ .

١٣/ بهجة الحاوي ، نظم بها الحاوي الصغير في فقه الشافعية.

وتنسب إليه " اللامية " التي أولها: " اعتزل ذكر الأغاني والغزل " ولم تكن في ديوانه، فأضيفت إلى المطبوع منه. وكانت بينه وبين صلاح الدين الصفدي مناقضات شعرية لطيفة وردت في مخطوطة ألحان السواجع .

شعره :

كان لابن الوردي شعر رائع ذو عبارات رشيقة أشاد بفضله وسبقه في الشعر قال الحافظ ابن حجر^١ : وذكر الصفدي في أعيان العصر أنه اختلس معاني شعره وأنشد في ذلك شيئاً كثيراً ولم يأت بدليل على أن ابن الوردي هو المختلس بل المتبادر إلى الذهن عكس ذلك نعم استشهد الصفدي على صحة دعواه بقول ابن الوردي :

واسرق ما أردت من المعاني ... فإن فقت القديم حمدت سيري
وإن ساويته نظماً فحسبي ... مساواة القديم وذا الخيري
وإن كان القديم أتم معنى ... فهذا مبلغه ومطار طيري
وإن الدرهم المضروب باسمي ... أحب إلي من دينار غيري
فمما أروده الصفدي: قوله:

سل الله ربك من فضله ... إذا عرضت حاجة مقلقة
ولا تقصد الترك في حاجة ... فأعينهم أعين ضيقة

فزعم أنها من قول الصفدي:

اترك الهوى الأتراك إن شئت إن ... لا تبئلي فيهم بهم وضير
ولا ترج الجود من وصلهم ... ما ضاقت الأعين منهم بالخير

ومن شعره أيضاً قوله^٢ :

ودعنتي يوم الفراق وقالت ... وهي تبكي من لوعة الافتراق

^١ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤٠٩/١ .

^٢ - الكشكول : البهاء العاملي ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الأولى ٣٨٥/١ .

ما الذي أنت صانع بعد بعدي ... قلت قلبي هذا لمن هو باقي

وفاته وثناء العلماء عليه :

وتوفي بحلب سنة ٧٤٩ هـ ، وقال الحافظ ابن حجر : (ومات في الطاعون العام آخر سنة ٧٤٩ بعد أن عمل فيه مقامة سماها النبأ في الوباء)^١ .

قال تاج الدين السبكي : (له شعر أحلى من السكر المكرر وأعلى قيمة من الجواهر)^٢ .

وقال الصفدي : (أحد فضلاء العصر وفقهائه وأدبائه وشعرائه تفنن في علومه وأجاد في منثوره ومنظومه ، شعره أحسن من عيون الغيد وأبهى من الوجنات ذات التوريد)^٣ .

قال الحافظ ابن حجر : (عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري زين الدين ابن الوردى الفقيه الشافعي الشاعر المشهور نشأ بحلب وتفقه بها ففاق الأقران)^٤ .

قال عنه صاحب معجم المطبوعات : (أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس بن علي الشهير بابن الوردى الشافعي فقيه حلب ومؤرخها وأديبها المولود بمعرة النعمان ، كان إماماً بارعاً في اللغة والفقه والنحو والأدب مفنناً في العلم ونظمه في الذروة العليا ، له فضائل مشهورة وتصانيف كثيرة)^٥ .

^١ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤٠٩/١ .

^٢ - طبقات الشافعية : عبد الوهاب بن علي السبكي ، دار هجر القاهرة تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ١٤٥/١ .

^٣ - أعيان العصر وأعوان النصر : صلاح الصفدي ، دار الفكر بدمشق ١٩٩٨م ١٤٩/٢ .

^٤ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤٠٩/١ .

^٥ - معجم المطبوعات المطبوعات العربية : يوسف أليان سركيس ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٨٢/١ .

وجاء في معجم المؤلفين : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن ابي
الفوارس المعري، الحلبي ، الشافعي ، المعروف بابن الوردي (زين الدين) فقيه ،
اديب، ناثر، ناظم، لغوي، نحوي، مؤرخ^١ .

^١ - معجم المؤلفين ٣/٨ .

المبحث الثاني ابن المعظم^١

اسمه ونسبه :

هو بدر الدين أبو المحامد أحمد بن المعظم بن المختار الرازي كان موجوداً في سنة ٧٠٠ هـ .

مقامات ابن المعظم :

ذكر ابن المعظم أنه ألف مقاماته معارضة لمقامات الحريري لأنه وجد الافتتان بها [أي مقامات الحريري] وقد جاوز حد المعقول مما لا يجوز مع وجود القرآن الكريم بل أن بعضهم بلغ بها حد الإعجاز الذي هو خاصة ينفرد بها القرآن الكريم فكان ذلك مدعاة لانكار الغلو وأدى بالتالي إلى نظم هذه المقامات في معارضة الأولى ، ولكن الغريب أنه اعترف في آخر الأمر أنه قصر عن شأو الحريري يقول : (وبعد فقد جرى ببعض الأنديّة ذكر المقامات التي أنشأها الرئيس أبو محمد الحريري رحمه الله فبالغوا في وصفها واطرائها ومدحها وثنائها حتى قال بعضهم لو اجتمع على الناس أن يأتوا بمثلها لا يأتون بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فانكرت عليه هذا الغلو غيرة على القرآن الذي يستحق العلو ، فقال لي هذا المبالغ : فأنت أنت بعشر مقامات مثلها مفترعات أو عشر حكايات منها مخترعات ، وأمهاني ملياً فجئت بما سألت شيئاً فرياً في مدة يسيرة وأزمنة قصيرة ، هذا وإن كان لا يبلغ سوقة شأو ملك ولا يجري كوكب جرى فلك ولكن من قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه وليس ما لا يدرك كله يترك كله)^٢ .

^١ - لم تقف الباحثة على معلومات عن حياة ابن المعظم وهذه الترجمة المختصرة ذكرها الدكتور يوسف نور عوض في كتابه فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٢١٦ .

^٢ - المقامات الإثنتا عشر : أحمد بن المعظم بن المختار الرازي ، مطبعة الدولة التونسية ١٣٠٣ هـ ص ١ .

ولم تتقيد هذه المقامات بالعدد الذي طلب إليه الكتابة فيه وهو العشرة كما لم يبلغ بها عدد مقامات الحريري وهو الخمسين ، بل كتب اثنتي عشرة مقامة وهو يعول على هذا العدد أهمية خاصة يقول :

(قال أحمد بن محمد هذا آخر المقامات وهي اثنتا عشرة مقامة ، وإنما اقتصر على هذا العدد لأنه عدد معتبر عند الحساب وهو مذكور في مواضع من الكتاب قال الله تعالى : [إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا] ^١ ، وقال الله تعالى : [وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا] ^٢ ، وقال : [وَقَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا] ^٣ ... إلى آخر كلامه) ^٤ .

ولم تتقيد مقامات ابن المعظم بالعناصر الفنية في المقامات الهمذانية ، فليس لها راوٍ واحد ، بل أن الراوي فيها شخصيات متعددة وتسمى المقامة عادة باسمه^٥ على هذا النحو :

- . المقامة الأولى : القعقاعية نسبة لراويها القعقاع بن زنباع .
- . المقامة الثانية : الجججحية نسبة لراويها الجججح بن جهجاة .
- . المقامة الثالثة : الجلاجية نسبة لراويها اللجلج بن لاج .
- . المقامة الرابعة : الصلصالية نسبة لراويها الصلصال بن الدلهمس .
- . المقامة الخامسة : الطرماحية نسبة لراويها الطرماح .
- . المقامة السادسة : الضمضمية نسبة لراويها أبو ضمضم .
- . المقامة السابعة : العنيسية نسبة لراويها أبو العنيس .
- . المقامة الثامنة : الزبرقانية نسبة لراويها الزبرقان بن فرق .
- . المقامة التاسعة : الدغلفية نسبة لراويها دغفل بن أبي زنفل .
- . المقامة العاشرة : المجاشعية نسبة لراويها مجاشع .

^١ - سورة التوبة ، من الآية ٣٦ .

^٢ - سورة المائدة ، من الآية ١٢ .

^٣ - سورة الأعراف ، من الآية ١٦٠ .

^٤ - المقامات الإثنتا عشر ص ٥٣ .

^٥ - عدا المقامة الأخيرة التي نسبها إلى المكان الذي دارت أحداثها به وهو أرض لبنان .

- .المقامة الحادية عشرة : العرعارية نسبة لراويها العرعار بن عرعة .
- المقامة الثانية عشرة : اللبنانية نسبة إلى بلد لبنان وراويها صمصعة بن نواس .

المبحث الثالث

القلقشندي (٧٥٦ . ٨٢١ هـ) والشاب الظريف (٦٦١ - ٦٨٨ هـ)

القلقشندي :

اسمه ولقبه وكنيته^١ :

هو أحمد بن علي بن أحمد بن أحمد بن عبد الله القلقشندي شهاب الدين أبو العباس المصري الشافعي .

مولده ونشأته :

ولد القلقشندي سنة (٧٥٦ هـ) في قلقشندة^٢ من قرى القليوبية ، بقرب القاهرة ، سماها ياقوت الحموي^٣ قرقشندة ، وقال : (قرية بأسفل مصر ولد بها الليث بن سعد بن عبد الرحمن المصري^٤ الفقيه مولى بني فهم)^٥ .

^١ - مصادر ترجمته : الوافي بالوفيات للصفدي ٣٥٠/١ ، إنباء الغمر بأبناء العمر : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق حسن حبشي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ١٩٩٨م ٤٦٨/١ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢: ٢١٢ وكشف الظنون لحاجي خليفة ٦٩٤/١ والضوء اللامع لأهل القرن التاسع : محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، مكتبة القدسي القاهرة ، ١٣٥٤هـ ٢٤٩/١ والأعلام للزركلي ١٥٠/٦ ومعجم المؤلفين لكحالة ٥٣/١٠ .

^٢ - القاموس المحيط : محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ٣٩٩/١ .

^٣ - هو الأديب شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي السفار النحوي الأخباري المؤرخ ، صاحب معجم البلدان ، مات سنة ٦٢٦هـ ، سير أعلام النبلاء ٣١٢/٢٢ .

^٤ - الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم أبو الحارث المصري الإمام عالم مصر وفقهها ورئيسها عن سعيد المقبري وعطاء ونافع وقتادة والزهرري وصفوان بن سليم وعنه بن عجلان وابن لهيعة وهشيم وابن المبارك ، مات سنة خمس وسبعين ومائة ، سير أعلام النبلاء ١٣٦/٨ .

^٥ - معجم البلدان : شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ، دار الكتب العلمية - بيروت ٣٢٧/٤ .

جاء في تاج العروس : (قَلَقَشَنَدَةُ بفتح فسكون وقد تُبدل اللام راءً وهو المشهور : بِمِصْرَ من أَعْمَالِ قَلْيُوبَ وفيها وَلِدَ الإمامُ اللَّيْثُ بن سَعْدٍ رضي الله عنه وخرج منها أَكَابِرُ العلماءِ والمُحَدِّثين منهم العَشْرَةُ من أَصْحَابِ الحَافِظِ ابنِ حَجَرٍ وهذه القريةُ قد وَرَدَتْ عليها مَرَّاتٍ يتولَّاهَا أُمراءُ الحَاجِّ)^١ .

نشأ الإمام القلقشندي نشأة علمية كعادة أهل ذلك الزمان ، وناب في الحكم وتوفي في القاهرة ، وهو من دار علم ، وفي أبنائه وأجداده علماء أجلاء^٢ .

آثاره العلمية :

- من تصانيفه الكثيرة التي خلدت اسمه بعد وفاته^٣ :
- حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم ، وهو مخطوط^٤ .
- شرح جامع المختصرات للدلحي في الفروع^٥ .
- صبح الأعشى في صناعة الأنشا وهو مطبوع في أربعة عشر مجلداً، في فنون كثيرة من التاريخ والادب ووصف البلدان والممالك وصفه صاحب كشف الظنون بأنه كان : (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها)^٦ .
- ضوء الصبح المسفر وهو مطبوع .
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، وهو مطبوع^٧ .
- نهاية الأرب في معرفة أنساب قبائل العرب وهو مطبوع^٨ .

^١ - تاج العروس من جواهر القاموس : السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر ، مطبعة حكومة الكويت ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م ٢٢٢٠/١ .

^٢ - الأعلام للزركلي ١٧٧/١ ومعجم المؤلفين ٣١٧/١ .

^٣ - كشف الظنون ١٠٧٠/٢ والأعلام للزركلي ١٧٧/١ ومعجم المؤلفين ٣١٧/١ .

^٤ - كشف الظنون ١٠٧٠/٢ .

^٥ - الأعلام للزركلي ١٧٧/١ .

^٦ - كشف الظنون ١٠٧٠/٢ والأعلام للزركلي ١٧٧/١ ومعجم المؤلفين ٣١٧/١ .

^٧ - معجم المؤلفين ٣١٧/١ .

^٨ - الأعلام للزركلي ١٧٧/١ .

وفاته وثناء العلماء عليه :

توفي الإمام القلقشندي بمدينة القاهرة في جمادى الآخرة من سنة (٨٢١ هـ)^١ .

قال الإمام الشوكاني^٢ : (مات في يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وله خمس وستون سنة)^٣ .

قال عنه الحافظ ابن حجر : (أحمد بن علي بن أحمد ، القلقشندي نزيل القاهرة ، تفقه وتمهر وتعالى الأدب ، وكتب في الإنشاء وناب في الحكم ، وكان يستحضر الحاوي وكتب شيئاً على جامع المختصرات ، وصنف كتاباً حافلاً سماه صبح الأعشى في معرفة الإنشاء وكان مستحضرًا لأكثر ذلك)^٤ .

وقال الشوكاني : (ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة واشتغل بالفقه وغيره وسمع على ابن الشيخة ومن في وقته ، وكان أحد الفضلاء ممن برع في الفقه والأدب وكتب في الإنشاء وناب في الحكم وشرح قطعاً من جامع المختصرات بل شرع في نظمه وعمل صبح الأعشى في قوانين الإنشاء في أربع مجلدات جمع فيه فأوعى وكان يستحضر أكثر ذلك مع جامع المختصرات والحاوي وكتاباً في أنساب العرب)^٥ .

وقال خير الدين الزركلي : (أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري : المؤرخ الاديب البحاثة)^٦ .

^١ - كشف الظنون ١٠٧٠/٢ والأعلام للزركلي ١٧٧/١ ومعجم المؤلفين ٣١٧/١ .

^٢ - محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني : فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن ، من أهل صنعاء ، ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان ، باليمن) ونشأ بصنعاء ، وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ ، من مؤلفاته نيل الاوطار من أسرار منتقى الاخبار و البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ومات سنة ١٢٥٠ هـ ، الأعلام للزركلي ٢٩٨/٦ .

^٣ - الضوء اللامع ٢٤٩/١ .

^٤ - إنباء الغمر بأبناء العمر ٤٦٨/١ .

^٥ - الضوء اللامع ٢٤٩/١ .

^٦ - الأعلام للزركلي ١٧٧/١ .

وقال عنه صاحب معجم المؤلفين : (أحمد بن علي بن احمد بن عبد الله
القلقشندي، ثم القاهري ، الشافعي (شهاب الدين ، أبو العباس) أديب ، فقيه ، كتب
في الانشاء ، وناب في الحكم)^١ .

^١ - معجم المؤلفين ٣١٧/١ .

الشاب الظريف :

اسمه ولقبه وكنيته^١ :

محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني، شمس الدين، المعروف بالشاب الظريف، ويقال له ابن العفيف : شاعر مترقق ، مقبول الشعر .
مولده ونشأته :

لم تذكر المصادر التاريخية شيئاً كثيراً عن حياة ونشأة الشاب الظريف سوى أنه ولد بالقاهرة سنة ٦٦١هـ ، وكان أبوه عفيف الدين صوفياً فيها بخانقاه^٢ سعيد السعداء ، ثم انتقل الشاب الظريف إلى دمشق مع أبيه الذي ولي عمالة الخزانة بدمشق ، ولم تذكر المصادر شيئاً أيضاً عن سبب هذه الهجرة لهذه الأسرة من القاهرة إلى دمشق ولكن الثابت أن شاعرنا مكث هناك مع أسرته حتى توفي وهو في مقتبل العمر شاباً لم يتجاوز الثلاثين^٣ .

والذي يرجع إلى شعر الشاب الظريف يعلم انه اتصل بدمشق بعدد كبير من أعيان عصره مثل الأمير ناصر الدين الحراني المتوفى سنة ٦٨٤هـ فقد ثبت في الديوان أن الشاب الظريف مدحه ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي مطلعها^٤ :
صبا وهزته أيدي شوقه طرباً وجدّ بعد ما كان الهوى لعباً

وقال في مدح قاضي القضاة حسام الدين الحنفي الرازي المتوفى سنة ٦٩٩هـ^٥

^١ - مصادر ترجمته : الوافي بالوفيات ٣٥٠/١ ، فوات الوفيات ٢ : ٢١٢ و كشف الظنون ٦٩٤/١ والأعلام للزركلي ١٥٠/٦ و معجم المؤلفين ٥٣/١٠

^٢ - الخانقاه كلمة فارسية معناها البيت ، وهي بناء ديني قديم أقيم على نظام الصحن المحاط بأواوين أربعة بلا مئذنة ولا منبر يضم مسجداً لا تقام فيه صلاة الجمعة ، ويلحق به مدرسة وسبيل ماء وتدرس فيه العلوم الدينية ، انظر : مقدمة ديوان الشاب الظريف : تقديم وشرح وتعليق صلاح الدين الهواري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٢٠٠٤م ص ٩ .

^٣ - الوافي بالوفيات ٣٥٠/١ .

^٤ - ديوان الشاب الظريف ص ٦٠ .

^٥ - المصدر السابق ص ٤٢ .

أضحى له في اكتتابه سبب بمبسم في رضابه شنب

وقال فيه أيضاً^١ :

صدودك هل له أمد قريب ووصلك هل يكون ولا رقيب
قضاة الحسن ما صنعي بطرف تمنى مثله الرشا الريب
رمى فأصاب قلبي باجتهاد صدقتم كل مجتهد مصيب

ومنها^٢ :

فيا قاضي القضاة متى يوفي حقوق صفاتك اللسن الأريب
فتى رقت خلائقه كشعري حوى وصفين كلهما عجيب
ففي كرم لأشرفه مديح وفي حسن لألفه نسيب

شيوخه :

تتلمذ الشاب الظريف على عدد من علماء عصره منهم :

١/ والده عفيف الدين التلمساني (٦١٣هـ - ٦٩٠هـ) :

وهو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني، عفيف الدين :
شاعر، كومي الاصل (من قبيلة كومة) تنقل في بلاد الروم وسكن دمشق، فباشر
فيها بعض الأعمال ، وكان يتصوف ويتكلم على اصطلاح (القوم) يتبع طريقة ابن
العربي^٣ .

وقد أشار الشاب الظريف إلى تلقيه العلم والهدى على يد والده في قوله من

قصيدة يمدحه بها^٤ :

يا قطر عم دمشق واخصص منزلاً في قاسيون وحله بنبات
فيه الذي كشف العمى عن ناظري وجلا شمس الحق في مرآتي
فيه الأب البر الشفوق فديته من سائر الأسواء والآفات

^١ - ديوان الشاب الظريف ص ٤٠ .

^٢ - المصدر السابق ص ٤٢ .

^٣ - الأعلام للزركلي ١٣٠/٣ .

^٤ - ديوان الشاب الظريف ص ٦٨ .

٢/ ابن الأثير الحلبي (٦٥٢ هـ . ٦٩٩ هـ) :

هو إسماعيل بن أحمد بن سعيد، عماد الدين ابن تاج الدين ابن الأثير: كاتب ، من العلماء بالأدب ، شافعي ، حلبي الأصل ، ولي كتابة الدرج بالديار المصرية، بعد أبيه، مدة وتركها تورعا ، وقتل بظاهر حمص في وقعة مع التتار^١ .
وقد قال الشاب الظريف يمدحه ويشيد بفضله^٢ :

كم ليلة قضيتها بشكاية أخذت على ليلي مجامع سبله
متصلاً من ذا الزمان وجوره متوصلاً لابن الأثير وعدله
حتى نفى ظلم الضلال بشمسه عني وحرّ الحادثات بعدله

٣/ القاضي محي الدين بن النحاس (٦٩٥ هـ) :

وفيه يقول الشاب الظريف^٣ :

بك انتصرت على الأيام مقتدراً فتن مني بجد جد مرهوب
وأنت أتقنت بالإحسان تربيتي وأنت أحسنت بالإتقان تأديبي
وأنت أكسبتني رأياً غنيت به عن أن أكابد من هول التجارب

حرفته :

لم تشر المصادر التاريخية التي تناولت حياة الشاب الظريف إلى حرفته او وظائفه التي تقلدها ، غير أن الصفدي أشار إلى أنه كان كاتباً في عمالة الخزانة حيث قال : (شمس الدين ابن العفيف التلمساني محمد بن سليمان بن علي شمس الدين ابن عفيف الدين التلمساني شاعر مجيد ابن شاعر مجيد تعاني الكتابة وولى عمالة الخزانة بدمشق ومات شاباً)^٤ .

١ - الأعلام للزركلي ٣٠٩/١ .

٢ - ديوان الشاب الظريف ص ١٩٩ .

٣ - المصدر السابق ص ٥٦ .

٤ - الوافي بالوفيات ٣٥٠/١ .

وصفه ومذهبه :

حكم البعض على الشاعر الشاب الظريف بالانخلاع والمجون لما في شعره من أبيات تجاوز فيها الشاعر الحد الذي يقف عنده كل تقي ورع ، وممن وصفه بالمجون والسخف الصفدي الذي قال في وصفه : (وكان فيه لعب وعشرة وانخلاع ومجون)^١ .

وقد حملت بعض قصائد الشاعر بعض النزعات الصوفية ، كما جاءت بعض الأبيات التي قالها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ومنها^٢ :

يا خير ساع بباع لا يرد ويا أجل داع مطاع طاهر الحسب
لي من ذنوبي ذنب وافر فعسى شفاعة منك تتجيني من اللهب
جعلت حبك لي ذخراً ومعتمداً فكان لي ناظراً من ناظر النوب

آثاره الأدبية^٣ :

للشباب الظريف ديوان شعر مشهور رآه أثير الدين أبو حيان بخط يده^٤ . ويحتمل أن هذا الديوان قد ضاع ، وأن المتداول بين الناس في الوقت الحاضر هو ما اختاره أبو حيان من الديوان الذي رآه بخط يد الشاعر .

وقد طبع هذا الديوان مراراً منها أربع طبعات ببيروت وهي :

. الطبعة الأولى : وكانت سنة ١٢٨٢هـ . ١٨٥٦م .

- الطبعة الثانية : ١٣٠٢هـ . ١٨٨٥م بواسطة المطبعة الأدبية ، بتحرير

محمد سليم الأنسي .

. الطبعة الثالثة : ١٣١٠هـ . ١٨٩١م بواسطة المطبعة الأدبية .

- الطبعة الرابعة : ١٣٢٥هـ . ١٩٠٧م وهي الطبعة الموسومة بديوان الشاب

الظريف [وهي طبعة جديدة منقحة ومصححة] بواسطة المكتبة الأهلية .

^١ - المصدر السابق ٣٥٠/١ .

^٢ - ديوان الشاب الظريف ص ٥٢ .

^٣ - معجم المطبوعات ٦٤٠/١ .

^٤ - المصدر السابق ٣٥٠/١ .

وطبع الديوان بالحجر أيضاً في القاهرة سنة ١٢٧٤ هـ . ١٨٥٧ م بنفقة لطف الله الزهار صاحب المكتبة الوطنية^١ .

وطبع الديوان أيضاً في مطبعة النجف الأشرف في العراق سنة ١٣٨٧ هـ . ١٩٦٧ م بتحقيق شاكر هادي شكر .

وللشباب الظريف آثاراً علمية أخرى غير الديوان منها^٢ :

. خطبة تقليد وهي خطبة هزلية كتبها للتعيين في وظيفة .

. وعظ غير مهذب .

. مقامات العشاق^٣ ومنها :

١/ فصاحة المسبوق في ملاحه المعشوق .

٢/ المقامة الهيئية والشيرازية ، وهما من الأدب الفاحش .

شعره :

من شعره في الغزل وهو من المشهور :

لا تُخَفِ ما صنعتُ بكك الأشواقُ ... واشرَحْ هواكَ فكلنا عشاقُ

فعسى يُعِينُكَ من شُكُوتَ له الهوى ... في حملِهِ فالعاشقونَ رفاقُ

واصبرْ على هَجَرِ الحبيبِ فربما ... عادَ الوصالُ وللهمى أخلاقُ

ومن المستحسن في استعمال الغزل على طراز الأوامر السلطانية، قول الشاب الظريف^٤ :

أعزَّ الله أنصارَ العيونِ ... وخلَّدَ مُلكَ هاتيكَ الجفونِ

وأسبغَ ظلَّ ذاكَ الشَّعرِ يوماً ... على قدِّ به هيفُ الغصونِ

قال داود الأنطاكي : ثم الهجر من المحب الصادق قد يؤل الأمر فيه بالعاشق إلى أن يخرج كلامه مخرج الدعاء عليه ويكون في الحقيقة ثناء لديه وقد يستخير عند تمادي الهجر وحكم الغرام حلول رسمه فيجعل ذلك الدعاء على نفسه وألطف ما

^١ - تاريخ الدب العربي : كارل بروكلمان ، دار المعارف بمصر ٥/٥٧ .

^٢ - المصدر السابق ٥/٥٧ .

^٣ - معجم المطبوعات ١/٦٤٠ .

^٤ - ديوان الشاب الظريف ص ٣٣٥ .

سطر في الأول وعليه عند الظرفاء يعول قول الشاب الظريف المعروف بابن
العفيف^١ :

أعز الله أنصار العيون ... وخذ ملك هاتيك الجفون
وضاعف بالفتور لها اقتداراً ... وإن تك أضعفت عقلي وديني
وخذ دولة الأعطاف فينا ... وإن ثنت الفؤاد إلى الشجون
وأسبغ ظل ذاك السعد يوماً ... على قد به هيف الغصون
وصان حجاب هاتيك الثنايا ... وإن جارت على الفذ الطعين
وقال الشاب الظريف في الغزل^٢ :

لي من هواك قريبة وبعيدة ... ولك الجمال بديعة وغريبة
يا من أعيذ جماله بجلاله ... حذراً عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عيني فإنك نورها ... أو لم تكن قلبي فأنت حبيبته
هل حرمة أو رحمة لمتيم ... قد قل فيك نصيره ونصيبه
ألف القصائد في هواك تغزلاً ... حتى كأن بك النسيب نسيبه
هب لي فؤاداً بالغرام تشبه ... واستبق فؤاداً بالصدور تشبيهه
لم يبق لي سرّاً أقول تذييعه ... عني ولا قلب أقول تذييعه
كم ليلة قضيتها متسهداً ... والدمع يجرح مقلتي مسكوبة
والنجم أقرب من لقاك مناله ... عندي وأبعد من رضاك مغيه
والحر قد رقت علي عيونه ... وجفونه وشماله وجنوبه
هي مقلة سهم الفراق يصيبها ... ويسح وابل دمعها فيصوبه
وظريف قول الشاب الظريف محمد بن العفيف^٣ :

يا ساكناً قلبي المعنى ... وليس فيه سواه ثاني
لأي معنى كسرت قلبي ... وما التقي فيه ساكنان

^١ - تزيين الأسواق في أخبار العشاق : داود الأنطاكي ص ١٦٩ .

^٢ - ديوان الشاب الظريف ص ٥٥ .

^٣ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ص ٢٩٧ .

واستحسن الأدباء قول الشاب الظريف محمد بن العفيف من قصيدة يمدح بها ابن عبد الظاهر مطلعها^١ :

روح يمينك ممّا أنت معتقل ... أمضى الأسنة ما فولاذ الكحل
يا من يرينا المنايا واسمها نَظَر ... من السيوف المواضي واسمها مَقْلُ
ما بال الحاذك المرضي تحاريني ... كأنّما كلّ لحظ فارس بطلُ
من دونها كُتِبَ من دونها حرس ... من دونها قُضِبَ من دونها أَسْلُ
ومعشر لم تزل في الحرب بيضهم ... حمر الخدود وما من شأنها الخجلُ
يثني حديث الوغى أعطافهم طرباً ... كأنّ ذكر المنايا بينهم غَزْلُ
من كلّ ذي طُرةٍ سوداء يلبسها ... وشيئها من غبار الحرب متّصلُ
ضاءت بحسنهم تلك الخيام كما ... ضاءت بوجه ابن عبد الظاهر الدُّولُ
وفاته وثناء العلماء عليه :

أشار العلماء كما أسلفنا إلى أن الشاب الظريف ولد بالقاهرة ، وولي عمالة الخزانة بدمشق ، وتوفي بها في ١٤ ، رجب سنة ٦٨٨ هـ .
قال والده عفيف الدين يرثيه ويذكر أخاه محمداً أيضاً^٢ :

ما لي بفقد المحمدين يد ... مضى أخي ثم بعده الولد
يا نار قلبي وأين قلبي أو ... يا كبدي لو تكون لي كبد
يا بايع الموت مشتريه أنا ... فالصبر ما لا يصاب والجلد
أين البنان التي إذا كتبت ... وعاین الناس خطها سجدوا
أين الثنايا التي إذا ابتسمت ... أو نطقت لاح لؤلؤ نضد
ما فقدتك الأقران يا ولدي ... وإنما شمس أفقهم فقدوا
محمد يا محمد عدداً ... وما لما ليس ينتهي عدد
قيل عن الشاب الظريف : فلو لا الحب لم يصل إلى صف الشعراء والحب
صيرّه وشاعراً حتى غدا في مقدمة شعراء العشق .

^١ - معاهد التصحيح على شواهد التلخيص ص ٤٦٠ .

^٢ - الوافي بالوفيات ٣٥٢/١ .

وجاء في معجم المؤلفين : (محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني، المعروف بالشاب الظريف وابن العفيف شمس الدين ، أبو عبد الله شاعر)^١ .

ومما سبق يتضح لنا أن أهم كتّاب المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين هم [ابن الوردي وابن المعظم والقلقشندي والشاب الظريف] وقد تم التعريف بهم في هذا الفصل توطئة لدراسة الموضوعات التي تناولها هؤلاء الكتّاب في مقاماتهم وهو ما أفردنا له الفصل الثالث من هذا البحث .

^١ - معجم المؤلفين ٥٣/١٠ .

الفصل الثالث

موضوعات المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين

المبحث الأول : الموضوعات السياسية والاجتماعية
والاقتصادية

المبحث الثاني : الموضوعات الدينية

المبحث الثالث : الموضوعات السلوكية والأخلاقية

المبحث الأول

الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية

إن كثيراً من الكتّاب والباحثين ومؤرخي الأدب أطلقوا تسميات مختلفة لهذا العصر ، فمنهم من أطلق عليه عصر الانحطاط^١ ، ومنهم من سمّاه بعصر العثمانيين^٢ ، وآخر ادّعى بأنّه «العصر التركي»، بينما البعض الآخر وصفه بعصر المماليك، وهناك من يطلق عليه عصر التتر ، إلى غيرها من التسميات والادّعاءات ، مع العلم أنّ الكثير من المؤرخين قسّموا عصور الانحطاط إلى دورين :

. الدور المملوكي الذي يبدأ بسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

. الدور العثماني حين استولى العثمانيون على القاهرة سنة ٩٢٣ هـ^٣ .

ورسم الأدباء في هذه العصور الواقع الاجتماعي والسياسي الذي عاشه الناس إبان ذلك ، ولكن اهتمام المماليك بالجيش وانصرافهم عن إكرام الشعراء جعل الكثير منهم يشكو الفقر ويتحول إلى مهن وحرف يقتات منها طعامه فكان منهم الدهّان والجزّار والكمّال والحماميّ، والنزر اليسير منهم من يعيش من الكتابة . وقد أسرف الأدباء والشعراء في استخدام العامية والألفاظ الصريحة ، وكتبوا في الفنون الشعبية ،

أبرز أغراض الأدب في هذا العصر:

كتب الأدباء والشعراء في هذا العصر في معظم الأغراض الأدبية والشعرية وأضافوا ما استجد في عصرهم من قضايا أخرى، وأهم هذه الأغراض:

^١ - الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار : الدكتور جودت الركابي: ص ١٢٠.

^٢ - الدولة العثمانية : عبد العزيز محمّد الشناوي: ص ٩.

^٣ - الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار: ص ١٢٠.

الممارسة والنضال :

وهو غرض كان له من الأهمية المنزلة العظيمة بسبب صراع العرب المسلمين مع الفرنجة والتتار إذ أن الشعراء حملوا على عاتقهم مهمة تحميس الجند من أجل الجهاد والنضال، وكانت المعارك التي وقعت بين المسلمين من جهة والتتار والصليبيين من جهة ثانية مادة حية لهذه الأشعار والتصفح لشعر الجهاد والنضال في هذا العصر يجد كماً كبيراً من الأشعار بعضها يبكي سقوط الخلافة، وبعضها يدعو إلى الجهاد من أجل استعادتها .

وقد صور شعر الحماسة الأحداث العامة في ذلك العصر وعبر عن الآلام والآمال واتجه نحو التصنع والتلاعب اللفظي، وقد كان شعراء ذلك العصر يشعرون بالغربة عن أوطانهم بينما الحكام يعيشون بازدواجية، مع أن العواطف في شعر ذلك العصر كانت صادقة بسبب الأحداث الجسام .

وأهم الصفات المشتركة بين النثر والشعر في هذا العصر :

- . الإشادة بالفتح والفاحين .
- . جعل عمل الفاتح خالصاً لله .
- . التهنية بالنصر .
- . وصف فرح الناس بالنصر .
- . تصوير المدن المفتوحة .
- . وصف المعارك حول القلاع .
- . التأكيد والتأكيد على إبادة الأعداء .
- . التفاؤل بانتصارات جديدة .
- . قفل القصيدة بالدعاء والثناء .

الموضوعات السياسية في مقامات هذا العصر :

يقسم علماء الإسلام السياسة إلى قسمين هما^١ : سياسة الدين وسياسة الدنيا فسياسة الدين ما أدى إلى قضاء الفرض ، وسياسة الدنيا ما أدى إلى عمارة الأرض؛ وكلاهما يرجعان إلى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان - لأن من ترك الفرض ظلم نفسه ومن خرب الأرض ظلم غيره .

لقد رأى فقهاء السياسة في الإسلام في قرونه الأولى أن الدين (الشريعة) هو نهج لسياسة الدنيا أو السلوك فيها والتعامل مع صروفها وتقلباتها. إن الشريعة هي المقياس والمرجع في أمور العبادة ، وأمور السلوك الدنيوي .

أما حسب هذا التصور عند طائفة من العلماء المتأخرين فإن هناك سياستين مختلفتين : إحداهما شرعية للدين ، والأخرى حياتية أو دنيوية للدنيا أو للسلوك الحياتي ، صحيح أن ماهية السياستين أو جوهرهما هو العدل " ميزان الله في الأرض " ، لكن العدل هنا هو الوسط الأرسطي للفضيلة بين رذيلتين ، وليس العدل الذي هو الاستواء والاستقامة حسبما يرى الفقيه المسلم. العدل هنا هو الاعتدال أو عدم التطرف .

والأدب أدبان : أدب سياسة ، وأدب شريعة ، فأدب الشريعة ما أدى الفرض. وأدب السياسة ما عم الأرض^٢ .

وفي ظل هذه الظروف السياسية [التي تناولتها الباحثة في الفصل الأول] وما أصاب الدولة الإسلامية من تدهور سياسي مريع برز فن المقامة واستوى ناضجا له أصوله ، ومقوماته ، ملامحه ، وسماته ، برزت الحركة الأدبية بروزا واسع النطاق في عصر كثرت به المشاكل ، والفتن بالإضافة إلى تغييرات في المجتمع العباسي في أساليب البناء ، والأكل ، والغناء ، والحياة بأسرها هي التي أصبحت الأساس التي قام عليها المجتمع .

^١ - أدب الدنيا والدين : علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، دار الفكر بيروت ص ١٦٢ .

^٢ - المصدر السابق ص ١٦٣ .

ولم يكن أدباء فن المقامات في هذا العصر بمعزل عن الحياة السياسية المضطربة في هذا العصر فالأديب ابن بيئته يؤثر فيها ويتأثر بها ، لذا لم تخل بعض تلك المقامات من الإشارة إلى تلك الحياة السياسية والحديث عن بعض ملامحها من فتوحات وثورات واضطرابات وغير ذلك .

وفي المقامة الأنطاكية أشار ابن الوردي إلى بعض تلك الملامح السياسية حينما يتحدث عن فتح أنطاكية^١ وجعلها دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ، يقول : (حدث إنسان من معرة النعمان قال : كثيراً ما كنت اسمع بين البرية ، الثناء على نزه أنطاكية ، وأنها قطع لمن لم يصلها ، وخرج ولم يدخلها ، ولفرط ثنائهم عليها تجهزت للمسير إليها ، فلما دخلتها ، وشاهدتها وتاملتها ، أكبرت طولها وطولها ، وعجبت لحصانتها والعاصي دائر حولها ، ودهشت لاستخراج الظاهر من باطنها وانتعشت لاستدراج الكافر عن مواطنها ، حتى قسى قلب القسيان على برج الحرس ، وما بكت عين بولص على ما اندرس ، وأشهر في التواريخ حديثها ، وبدل بالتوحيد تثليثها ، وفتح باب جنانها ، لمن أصبح من سكانها ، فحمدت الله الذي جعلها دار إسلام ، وشكرته على هذا الفتح الذي خص أحزاب المسلمين بالأنعام ، فانتهيت من بدايتها إلى دار ولايتها ، فوجدت والي المدينة شاباً ذا سكينة فلما سلمت عليه ، وأجلسني إليه ، أخذ في مؤانستي وأظهر الإبتهاج بمجالستي ...)^٢ .

ففي هذه المقامة نجد ابن الوردي يتحدث عن هذه المدينة التي تحولت بفعل الفتوحات الإسلامية إلى دار إسلام بعد أن كانت تعبد الصليب ، ثم يشير إلى أن مكانة والي المدينة الذي وصفه بأنه كان شاباً يحسن المؤانسة .

^١ - أنطاكية : بالفتح ثم السكون والياء مخففة وهي في الإقليم الرابع وقيل إن أول من بناها وسكنها أنطاكية بنت الروم بن اليقين اليفز بن سام بن نوح عليه السلام أخت أنطالية باللام ولم تنزل أنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية وهي من أعيان البلاد وأمهااتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير ، معجم البلدان ١/ ٢٦٦ .

^٢ - ديوان ابن الوردي ص ٢٤ . ٢٥ .

إن ازدهار الملاحم إنما كان في تلك الفترة التي التقى فيها الشعب العربي بالغرب [كالصراع بين العرب والروم] وهي الفترة المعروفة عند المؤرخين بفترة الحروب الصليبية ، فقد اهتز فيها الوجدان العربي هزة قوية، دفعته إلى أن يعتصم بعصر البطولة .

(ومن خلال هذه الملاحم خلق الإنسان المهزوم لنفسه عالماً سحرياً، يصوغ من خلاله وعيه الاجتماعي. فنياً وجمالياً ومعرفياً. وذلك عن طريق الراوي الجمعي المعبر عن وجدان الشعب بوصفه . أي الراوي . مصدراً منتجاً في حسه لتصورات مشتركة للمجتمع. تتجلى اجتماعياً في تحقيق الانسجام بين الواقع والطموح، لتحقيقه التوازن النفسي للمواطن والربط بين الصراعين: الداخلي والخارجي، والموقف من المرأة، واللون، والجنس والعبودية.. إلخ. ويتجلى فنياً في السرد وخطابه الفني، ونمو الشخصيات وترتيبها، وانقسامها إلى خير مطلق وشر مطلق، وتفاعلاتها مع الموضوع وتجسيدها للمعطيات الموضوعية في الواقع.. كما تتجلى جمالياً في قوالب حسية معينة، كتصور القيمة الجمالية، والتعبير عنها، وتدخل في هذا الإطار أشكال السلوك ذات الأهمية الجمالية التي تظهر في الاحتفالات والطقوس والعادات وطرز البيوت، وترتيبها الداخلي والأزياء ومواصفات الهيئة الجميلة والمقاييس الشائعة لجمال المرأة، كما تظهر في ذوق الجمهور والفئات الاجتماعية المختلفة والقواعد السائدة في النقد والنظرة الجمالية والتقاليد الفنية)^١ .

ويشير القلقشندي إلى السياسة في مقاماته حينما تحدث عن فضل الكتابة فيقول : (فالكتابة قانون السياسة ورتبتها غاية رتب الرياسة عندها تقف الإناقة وإليها تنتهي مناصب الدنيا بعد الخلافة والكتاب عيون الملوك المبصرة وآذانهم الواعية وألسنتهم الناطقة وعقولهم الحاوية بل محض الحق الذي لا تدخله الشكوك وإن الملوك إلى الكتاب أحوج من الكتاب إلى الملوك وناهيك بالكتابة شرفاً وأعل بذلك رتبة وكفى أن صاحب السيف والعلم يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحم الكاتب صاحب السيف والعلم في سيفه وعلمه ، وعلى الجملة فهم الحاؤون لكل وصف جميل وشأن

^١ - دفاع عن الفلوكلور : عبد الحميد يونس ، الهيئة المصرية ١٩٧٣ ص ١٣٩ .

نبيل الكرم شعارهم والحلم دثارهم والجود جادتهم والخير عادتهم والأدب مركبهم واللفظ مذهبهم ...)^١ .

وقد أشار إلى مكانة الكتابة وبيّن فضلها الجاحظ الذي يقول : (... والكتاب هو القطب الذي عليه مدار علم ما في العالم وآداب الملوك، وتلخيص الألفاظ، والغوص على المعاني السداد، والتخلص إلى إظهار ما في الضمائر بأسهل القول، والتمييز بين الحجة والشبهة وبين المفرد والمشارك، وبين المقصور والمبسوط، وبين ما يحتمل التأويل مما لا يحتمله، وبين السليم والمعتل)^٢ .

وبيّن صاحب العقد الفريد ابن عبد ربه أيضاً شرف الكتاب وفضلهم فقال : (فمن فضلهم قولُ الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم : [علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم]^٣ وقوله تعالى : [كَرَاماً كَاتِبِينَ]^٤ ، وقوله : [بأيدي سفرة ، كَرَامَ بَرَزَةٍ]^٥ وللكتاب أحكام بينة، كأحكام القضاة، يُعرفون بها، ويُنسبون إليها، ويتقلّدون التدبير وسيارة الملك بها ، دون غيرهم ، وبهم يُقام أود الدين، وأمور العالمين .

فمن أهل هذه الصناعة : عليّ بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وكان مع شرفه وتبّله وقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكتب الوحي، ثم أفضت إليه الخلافة بعد الكتابة)^٦ .

وأورد أيضاً في فضائل الكتابة : (كُتّاب الملوك عُيونهم الناضرة ، وآذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة . والكتابة أشرف مراتب الدنيا بعد المحلّة، وهي صناعة جليّة تحتاج إلى آلات كثيرة)^١ .

^١ - صبح الأعشى ١٣٠/١٤ .

^٢ - الرسائل : عمرو بن عثمان الجاحظ ، دار الجيل بيروت ، ص ٢٧٨ .

^٣ - سورة العلق ، الآيتان ٤ . ٥ .

^٤ - سورة الإنفطار ، الآية ١١ .

^٥ - سورة عبس ، الآيتان ١٥ . ١٦ .

^٦ - العقد الفريد : أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م ٣٦/٢ .

وقد بيّن العلماء ما يحتاجه الكاتب في كتابته ومن ذلك ما أورده صاحب نهاية الأرب : (فإن احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتاب والأدباء والخطباء والشعراء وأوساط الناس وسوقتهم، فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وفطنته وانتباهه، ولكل طبقة من هذه الطباق معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إياهم في كتبك، وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه، وتعطيه قسمته، وتوفيه نصيبه، فإنك متى أهملت ذلك وأضعته لم آمن عليك أن تعدل بهم عن طريقهم، وتسلك بهم غير مسلكهم، وتجري شعاع بلاغتك في غير مجراه، وتنظم جوهر كلامك في غير سلكه، فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظاً لا تقاً بمن كاتبته، وملامساً لمن راسلته، فإن إلباسك المعنى - وإن صح وشرف - لفظاً مختلفاً عن قدر المكتوب إليه لم تجربته عادته تهجين للمعنى وإخلال بقدره، وظلم يلحق المكتوب إليه، ونقص ما يجب له، كما أن في اتباع تعارفهم، وما انتشرت به عادتهم، وجرت به سنتهم، قطعاً لعذرهم، وخروجاً من حقوقهم، وبلوغاً إلى غاية مرادهم، وإسقاطاً لحجة أدبهم)^٢ .

وأشار ابن المعظم في المقامة الججاجية إلى مقام الخلافة وأهميتها وعظم مكانتها واستدل على ذلك بالشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ، قال :
(... فاستدللت إلى باب السلطان ، فأشاروا إلى فقيه فقير ، ضعيف حقير ، فاستبعدت ذلك جداً ، ثم لم أجد من الاستكشاف بداً ، قلت وما الدليل على كونه سلطاناً ، قالوا بدليل الكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله تعالى : [اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم]^٣ فقد قال مجاهد والضحاك وقتادة : أن المراد من أولي الأمر العلماء وهو عالم ريان ، مع أنه ظامئ طيان ، وله عزة عالية ، وإن كانت عليه بزة بالية ، أما السنة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاه الخلافة والسلطنة ، أما السلطنة فقوله صلى الله عليه وسلم : [العالم سلطان الله في أرضه فمن وقع

^١ - العقد الفريد ٤٤/٢ .

^٢ - نهاية الأرب في فنون الأدب : أحمد بن عبد الوهاب النويري ، دار الفكر بيروت ٣٢٢/٢ .

^٣ - سورة النساء ، الآية ٥٩ .

فيه فقد هلك [^١ وأما الخلافة ففي أحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم : [ألا أدلكم على خلفائي من بعدي ، قالوا ومن هم يا رسول الله قال : هم حملة القرآن والحديث لله وفي الله] ^٢ .

إلى أن قال : (... وقال صلى الله عليه وسلم : [الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله] ^٣ ...) ^٤ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها . فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : [إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم] ^٥ رواه أبو داود ، من حديث أبي سعيد ، وأبي هريرة .

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم] ^٦ فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر ، تنبيهها بذلك على سائر أنواع الاجتماع ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا

^١ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : علي بن حسام الدين المتقي الهندي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩م ٢٣٤/١٠ حديث ٢٨٦٧٣ .

^٢ - كنز العمال ٢٦٧/١٠ حديث ٢٨٧٧٢ .

^٣ - كنز العمال ١٥٥/٣ حديث ٥٥٦٤ .

^٤ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ١٢ .

^٥ - سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، دار الفكر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ٤٢/٢ في ٩ كتاب الجهاد ٨٧ باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم حديث ٢٦٠٨ .

^٦ - المسند : أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، الناشر : مؤسسة قرطبة - القاهرة ١٧٦/٢ حديث ٦٦٤٧ .

بالقوة والإمارة ؛ ولهذا روي : [إن السلطان ظل الله في الأرض] ويقال " ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان " والتجربة تبين ذلك ^١ فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله ؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات . وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها . وقد روى كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه] ^٢ ، فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه ، مثل أو أكثر من إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ^٣ .

وقد أخبر الله تعالى عن الذي يؤتى كتابه بشماله أن يقول : { مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ } ^٤ .

وغاية مريد الرياسة أن يكون كفرعون ، وجامع المال أن يكون كقارون ، وقد بين الله تعالى في كتابه حال فرعون وقارون ، فقال تعالى : { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ } ^٥ .

^١ - السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ص ١٦٨ .

^٢ - الجامع الصحيح سنن الترمذي : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ٥٨٨/٤ في ٣٧ كتاب الزهد حديث ٢٣٧٦ .

^٣ - السياسة الشرعية ص ١٧٠ .

^٤ - سورة الحاقة ، الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

^٥ - سورة غافر ، الآية ٢١ .

الموضوعات الاجتماعية في مقامات هذا العصر :

إن اهتمام علم اجتماع الأدب ، أو علم اجتماع النص الأدبي بالعلاقة بين الأدب والمجتمع يؤكد أهميتها ، ومن ثم تتأكد . بالضرورة . العلاقة بين الأديب ومجتمعه ، وهى علاقة توسم بأنها تبادلية بين الأدب والمجتمع ؛ فكلاهما يؤثر فى الآخر .

على أننى لست بحاجة للتأكيد على أن الأدب ظاهرة اجتماعية . حتى وإن اتسمت العملية الإبداعية الأدبية بالذاتية .. صحيح هى ذاتية من جهة الابتكار والكشف والجمع بين العناصر وفق رؤية ذاتية ، لكنما هى اجتماعية لأن مادتها وعناصرها من الحياة والمجتمع .

ويقال إن " للأدب انعكاسات إجتماعية عديدة ، وهو فى حد ذاته يعد انعكاساً إجتماعياً حتى فى أكثر موضوعاته خصوصية . فهو نشاط اجتماعى قبل أن يكون نشاطاً لغوياً . حتى اللغة تفسر من منظور إجتماعى قبل أن تفسر من منظور آخر " ^١ ، ومن ثم فالأدب قابل للتعريف من منظور إجتماعى على أنه مجموعة من القيم ، أو التعبير عنها .

وعلى مدى التاريخ الأدبى كله لم ينكر أحد العلاقة بين الأدب والمجتمع وإنما قد ينشأ الخلاف حول فهم طبيعة هذه العلاقة . ومن ثم " كانت قضية العلاقة بين الأدب والمجتمع وما تزال موضوعاً شديداً الأهمية لفهم الأدب ودراسته ، وبدونها لا يمكن فهم الأدب ولا المجتمع ، ورغم أن مصطلحى الأدب والمجتمع لم يحملا نفس الدلالات الحديثة عند القدماء ، إلا أننا نستطيع أن نلمح إسهامات حول هذه العلاقة منذ القديم ^٢ .

ولنا أن نتأمل صلة الأدب بالمجتمع فى أقدم صور الأدب " ولنرجع إلى الوراء إلى أعمق صورة للشعر ، وهى الشعر القصصى عند اليونان ، صورة الإلياذة ، فسنجدها

^١ - الثقافة والعولمة / صراع الهويات والتحديات : أحمد فراج ، الهيئة العامة لقصور الثقافة . كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الدلتا سنة ٢٠٠٣ . ص ٩٦ .

^٢ - المدخل الاجتماعى للأدب : سيد البحراوى ، القاهرة ، دار الثقافة العربية سنة ٢٠٠١م ص ٣ .

لا تتغنى بعواطف فردية ، وإنما تتغنى بعواطف الجماعة اليونانية لعصرها ، مصورة حروبها بطرواده ومن استبسلوا فيها من الأبطال ، ومن هنا نشأ القول بأن ناظمها ليس هو هوميروس وحده " ^١ .

وتعتبر علاقة الأدب بالمجتمع علاقة جدلية تفرضها مقومات النشأة والتطور داخل هذا الوسط الذي ينتمي إليه الأديب، والأدب منذ نشأته هو ارتباط مباشر بالذات في اتجاه نفسها وارتباطها بالمجتمع، وقد فرضت ظروف التحولات المجتمعية ظهور نوع جديد من الالتزام المحدد بالأوضاع الاجتماعية والسياسية التي تتحول وتتغير باعتبارها صيرورة وجودية إن سلبا وإن إيجابا، والمقصود هنا بالالتزام ذلك المفهوم المباشر الذي يستوجب انصهار الأديب في مجتمعه وانشغاله بقضاياها التي تعد جزءا من يومياته الطبيعية، فهذا المفهوم البسيط للالتزام هو مفهوم موجود منذ وجود الأدب ، ومن هذا المنطلق فإن الشاعر بحكم موقعه مدعو إلى متابعة هذه الصيرورة وإلى معاشتها وتأريخها أدبيا-شعريا- فلا يمكن "أن تصور إنتاجا أدبيا ما دون أن يكون هذا الإنتاج متصلا اتصالا وثيقا بالمسألة الثقافية ودون أن يكون على ارتباط بالمجتمع في مختلف صوره وأشكاله .

لكن ليس معنى هذا أن يكون الأدب شعرا كان أم نثرا صورة فوتوغرافية ومرآة مسطحة عاكسة لهذا الواقع، وإنما يجب أن يتسلح بفنون الجماليات والرؤى الفنية التي تحيل الواقع الحقيقي إلى واقع لغوي فني جميل يحمل رسالة إنسانية عامة .

فالأديب يعيش دوما في حركية وصراع بين الواقع الكائن من جهة والواقع الممكن من جهة أخرى وهذا الصراع هو في حقيقته نتيجة حتمية لعدم رضاه وقناعته بالحالة التي يوجد عليها مجتمعه سواء على المستوى السياسي أم الاجتماعي أم الثقافي، فتراه دوما في حالة من التوتر الفكري باحثا عن تناغمية بين الحقيقة والواقع بطرح أسئلة الذات والوجود وأسئلة التحول والمستقبل، إنه يعيش وعيا شقيا لأنه يكتب في مجتمع تسوده الفوارق من كل نوع وتنتصب داخله العراقيل أمام ممارسة الناس

^١ - المدخل الاجتماعي للأدب : شوقي ضيف ، القاهرة ، دار المعارف . الطبعة الثامنة ص

لحرياتهم"، وبالتالي يصبح دور العمل الأدبي دوراً متميزاً داخل المجتمع ووعي الأفراد به باعتباره وسيلة من وسائل بث الوعي الفكري والجمالي بالرسالة الأدبية والجمالية له.

وتظل العملية الإبداعية في حقيقتها عملية تأسيسية تأخذ منطلقها من الواقع - مهما كان نوعه - باعتباره مرجعية أساسية ومنطلقاً بديهاً، كما تستمر في نسج بنياتها وشبكاتها في الآفاق التي يستشرفها المبدع باعتباره مالكا لملكة النبوة الأدبية، وباعتباره الناطق باسم الوعي الجماهيري في المجتمع الذي ينتمي إليه، وباعتباره ثالثاً حاملاً لرؤية أو رؤى ومستنداً إلى مرجعية ثقافية ومخزون فكري، فهو ليس ذلك المتزهّد الذي ينزوي إلى عمق ديره أو صومعته وينعزل عن المجتمع بكل تطوراته ليسلك مسلك الصوفي في نزعاته الوجدانية وشطحاته الفكرية بعيداً عن هموم الذات المنصهرة في بوتقة الجماعة الكلية، بل هو جزء لا يتجزأ من واقع متحول في تركيبته لا يهدأ بل يشارك في كل ما يمس وجدان الأمة سواء أكان على الصعيد الوطني أم العربي القومي أم العالمي بإنسانيته الشمولية .

وفى العصر الجاهلي كان الشعر العربي مرآة عصره ، وصورة من حياة العربي وباديته ، أو كما يقال : كان ديوان العرب ، أو سجل العرب الذى يصور حياتهم ، ويحكى عاداتهم وتقاليدهم ، ويعكس أحوال معيشتهم فى صدق تام . ولنا أن نتوقف عند شاعر مثل " عمرو بن كلثوم " ^١ الذى دخل التاريخ بقصيدة واحدة تناقلتها الألسنة ، وغنتها القوافل جيئةً وذهايا ، وأكثر بنو قبيلته " تغلب " من إنشادها جيلاً بعد جيل حتى قال فيهم الشاعر :

أَلْهَى بَنِي تَغْلَبَ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدَةُ قَالِهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ

^١ - عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ، من بني تغلب، أبو الأسود: شاعر جاهلي، من الطبقة الاولى ، ولد في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة ، وتجوّل فيها وفي الشام والعراق ونجد ، وكان من أعز الناس نفساً، وهو من الفتاك الشجعان ، ساد قومه (تغلب) وهو فتى، وعمر طويلاً ، وهو الذى قتل الملك عمرو بن هند ، أشهر شعره معلقته التى مطلعها: " ألا هبي بصحنك فاصبحينا " يقال: إنها كانت في نحو ألف بيت، وإنما بقي منها ما حفظه الرواة، وفيها من الفخر والحماسة العجب ، الأعلام للزركلي ٨٤/٥ .

يفآخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم^١
والتساؤل الآن : لماذا دخل عمرو بن كلثوم التاريخ الأدبى بهذه القصيدة
الوحيدة ، ولماذا حفظها بنو تغلب وتناقلوها وظلوا يفاخرون بها جيلاً بعد جيل ؟ ..
ألتدقق المعنى وقوة السبك وتلاحم النسيج ، وجودة الصياغة وحسن العبارة ، وسلامة
الأسلوب ، أم لأنها بجانب هذا ارتبطت بحياة القبيلة ارتباطاً مباشراً ، وبما دار من
حروب بينها وبين قبيلة " بكر " فيما عرف بحرب البسوس ولا شك أن القصيدة
تتغنى بأمجاد القبيلة وبطولاتها وتصور ما كان عليه رجالها من شجاعة وإقدام وعز
وجاه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ارتبطت بموقف يدل به الشاعر شخصياً
على الإباء والشجاعة والجرأة ، وهو ما تضمنته قصته مع " عمرو بن هند " التى
انتهت بمقتل الأخير .

بالطبع نحن لا ننكر على هذه القصيدة جمالياتها الفائقة . لكنما لم تكن مثل
هاتيك الجماليات هى كل ما ينقص قبيلة الشاعر فى ذلك الوقت . لا شك أن معلقة
عمرو بن كلثوم تتشابه فنياً مع فنيات معظم قصائد العصر الجاهلى ، وتسير على
نفس منهج القصيدة الجاهلية عموماً ، ولكن صاحبها دخل بها التاريخ الأدبى لأنها
عبّرت بصدق عن احتياجات روحية وسياسية فى مجتمع الشاعر ، وقدمت صورة
الصراع الدائر بين هذا المجتمع القبلى وغيره ، وانتصرت لهذا المجتمع وهى تعبر
عن فرحته ، وأبرزت صفاته الأصلية وهى تعبر عن انتصاراته .
ومن دون أن نسترسل كثيراً ، كان الشاعر الجاهلى عموماً صوت القبيلة ولسان
حالتها المعبر عن أفراحها وأتراحها فى كل مراحل حياتها ، وفى كل مواقف الصراع ،
وربما لهذا كانت القبيلة تحتفل بميلاد شاعر بينها ، يوم أن كانت القبيلة بأفرادها
ونظمها وعاداتها وديانتهـا وجهازها القيادى (المؤسسة) تمثل المجتمع بالنسبة
للشاعر .

^١ - الشعر والشعراء : عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، دار الحديث القاهرة ، الطبعة الأولى
١٩٩٦م ص ٤٣ .

ومما سبق يتضح أن العلاقة بين الأدب والمجتمع لم تكن هامشية في التاريخ الأدبي ، بل كانت على درجة من الأهمية ، ومحل اهتمام الفلاسفة التي تبنتها ، وقد لاحظنا أن ثمة قضايا فرعية كثيرة فلسفية ونقدية انطرحت على ضفاف هذه العلاقة في مسيرتها عبر التاريخ الأدبي كله ، وقد قامت حولها أيضا مدارس أدبية تتبناها وتعلو من شأنها وتراها جوهر الأدبي ، فيما قامت مدارس أخرى تحاول أن توازن في نظرتها إلى جوهر الأدب بين الشكل والمضمون ، كما قامت مدارس أخرى تنتكر لهذا العلاقة ، وإن كانت لا تنتكرها ، طارحة مفاهيم أخرى بديلة حول الأدب ، وحددت له وظائف أخرى ، واعتبرته محض هروب من الواقع والمجتمع وقضاياها .

والظاهرة العامة التي اتسمت بها المقامة عامة هي ظاهرة النقد والثورة وكشف العيوب الإنسانية ، والاجتماعية ووضع البديل لها في بعض الأحيان ، ومن هنا تبدو الأهمية الحضارية ، والتاريخية لهذا الفن .

وفن المقامة يتلمس علاج المجتمع في حلة من اللفظ ، إن المتلقي يعجب بالصياغة، وحسن السبك، وجمال السجع، فينشغل بها ولا يفرغ لما تهدف إليه المقامة في مضمونها إلا بعد اكتمال المقامة وعمق التفكير في المضمون .

وقد تناول النقاد قديماً وحديثاً الدور الاجتماعي للأدب ففرى الجاحظ يشير إلى ذلك في قوله^١ : (وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيراً فاخراً ومعناه شريفاً كريماً ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فانك تعرف مع اعرابه وتخيره ألفاظه في مخرج كلامه أنه خراساني وكذلك إن كان من كتاب الأهواز ومع هذا إنا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته للخراساني والاهوازي والزنجي والسندي والحبشي وغير ذلك نعم حتى نجده كأنه اطبع منهم فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جمعت كل اطرافه في كل فأفاء في الارض في لسان واحد كما أنك تجده يحكي

^١ - الألبان والتبئين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : درويش جويدي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م ٥١/١ .

الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله فكأنه قد جمع جميع طرف حركات العميان في أعمى واحد)^١ .

يعلق الدكتور يوسف نور عوض على كلام الجاحظ هذا بقوله : (ولعل هذا الكلام يكشف حقيقة هامة تلك هي أن وجود العلاقة الموضوعية بين الفنان والمجتمع لا يعني أن الظواهر الاجتماعية التي يتناولها الفنان في تعبيره الأدبي تكون طبق الأصل لمثيلاتها في الواقع الحقيقي ، لأن من حق الفنان أن يجسم صوره الفنية حتى تبدو أكثر دلالة وعمقا ، بشرط ألا يخل ذلك بالتوازن القائم بين الواقع الحقيقي والواقع الفني ، فغاية الفنان في جميع أحواله أن تكون نماذجه نابضة بالحياة)^٢ .

وفي المقامة الطرماحية يصور ابن المعظم جانب من حياة المجتمع في عصره حين حكى بلسان الراوي الطرماح عن خصمين اختصما إلى أحد القضاة ، حيث قال : (... حكى الطرماح قال : جبت المهامه والقفار ، حتى وقعت في بلد ظفار^٣ ، فدخلت على قاضيتها أبي سماعة ، فجلست عنده ساعة ، فإذا أنا بخصمين يتخاصمان لديه ويتنازعان بين يديه ، فجعل أحدهما يقول للآخر : يا شديد الكفر والإلحاد ، ويا ظالم ويا قواد ، إذ أنت الذي تأكل الميتة والدم ، وتشهد على ما لا ترى وتعلم ، وتحب الفتنة وتبغض الحق ، وتهريق دم المسلمين ...)^٤ .

وفي المقامة الأنطاكية يصور ابن الوردي طبقات مجتمع المدينة في حوار بين الراوي ووالي المدينة ، يقول ابن الوردي بلسان الوالي : (... قال : لقد جمعت

^١ - البيان والتبيين ٥١/١ .

^٢ - فن المقامات بين المشرق والمغرب : يوسف نور عوض ، دار القلم بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص ١٤ .

^٣ - قال ياقوت الحموي : (ظفار في الإقليم الأول وطولها ثمان وسبعون درجة وعرضها خمس عشرة درجة بفتح أوله والبناء على الكسر بمنزلة قطام وحذار وقد أعربه قوم وهو بمعنى اظفر أو معدول عن ظافر وهي مدينة باليمن في موضعين إحداهما قرب صنعاء ، وقد قال بعضهم إن ظفار هي صنعاء نفسها ولعل هذا كان قديما فأما ظفار المشهورة اليوم فليست إلا مدينة على ساحل بحر الهند) معجم البلدان ٦٠/٤ .

^٤ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٢٢ .

هذه المدينة بين عرب وروم ، وأنا معهم في الحي القيوم ، لا أطيق فيهم قراراً ، ولو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ومن يطيق الجمع بين الضدين ، أم من يقدر على موالاة ندين ، وكيف يظفر ساكن أنطاكية بنيل أرب ، وقد حنيت أضلع العجم على بغض العرب ...)^١ .

فالراوي يبين هنا طبقات سكان هذه المدينة التي جمعت مزيج من العرب والروم ، كما يصور لنا نوع العلاقة التي تربط بين هذين الفريقين الذين وصفهما بأنهما ضدين .

وفي المقامة الضمضية^٢ يتحدث ابن المعظم عن ملمح اجتماعي آخر وهو موضوع الزواج ، فقد حكى بلسان الراوي ابن ضمضم عن كيفية اختيار الزوجة وصفاتها فقال : (حكى ابن ضمضم قال : اشتدّ بي قلقي وسهادي وأقض رقادي ومهادي ، حين شرد علي جملي وعطل لذلك شغلي وعملي ، فعزمت على التأهل طلباً للتسهل ، فرأيت أن أشاور أولاً حبيباً لبيباً ، واستشير أديباً أريباً ، فأتيت قاضي كيرنك فشاورته فيما دهاني ، وذكرت له ما عراني وعناني ، فقال : تزوج من النساء ما شئت إلا ثلاثاً : الأنانة^٣ والحنانة^٤ والمنانة^٥ ، واحذر منهن ثلاثاً : الشهيرة^٦ واللهيرة^٧ والنهيرة^٨ ، واتق منهن ثلاثاً : الزرقاء والخرقاء^٩ والحمقاء ، وجانب منهن ثلاثاً : الهلوك^{١٠} والبروك^{١١} والفروك^{١٢} ...)^{١٣} .

^١ - ديوان ابن الوردي ص ٢٥ .

^٢ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٢٤ .

^٣ - الأنانة : كثيرة الأنين وقيل الأنانة الكثير الكلام والبث والشكوى ، لسان العرب ٢٨/١٣ .

^٤ - امرأة حنانة تحن إلى زوجها الأول وتعطف عليه وقيل هي التي تحن على ولدها الذي من زوجها المفارقة ، لسان العرب ١٢٨/١٣ .

^٥ - المنون من النساء التي تزوج لمالها فهي أبداً تمن على زوجها والمنانة كالمنون ، لسان العرب ٤١٥/١٣ .

^٦ - الشهيرة : العجوز الكبيرة ، لسان العرب ٥١٠/١ .

^٧ - اللهيرة : الطويلة الهزيلة ، لسان العرب ١٥٨/٥ .

ومما سق يتضح لنا أن ابن المعظم يتحدث عن اختيار الزوجة وضرورة توفر بعض الشروط في هذا الاختيار ، وقد الدين الإسلامي ابن المعظم في هذا الأمر ، فقد دعا إلى ضرورة اختيار الزوجة الصالحة، لأن الزوجة الصالحة المحافظة على دينها سوف تسعى جاهدة إلى تربية ابنها التربية الإسلامية وتحافظ عليه ليكون ابنها لبنة صالحة في المجتمع، كما أنها تربيته على الطاعة والأعمال الصالحة ، أما المرأة السيئة في خلقها ودينها؛ فإنها عادة تهمل نشئها وتربيته على التلغاز والفيديو، وتربيته على الفساد شعرت بذلك أم لم تشعر .

وكما ورد في الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سعادة بن آدم ثلاثة ومن شقوة بن آدم ثلاثة من سعادة بن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح ومن شقوة بن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء)^٧ .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (تُكْحَمُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ)^٨ .

^١ - امرأة نَهْبَرَةٌ أي طويلة مهزولة وقيل هي التي أشرفت على الهلاك من النهابر المهالك وأصلها حبال من رمل صعبة المُرْتَقَى ، لسان العرب ٢٣٩/٥ .

^٢ - المرأة الخرقاء السيئة المنطق والعمل ، لسان العرب ٢٥٤/١٠ .

^٣ - الهلوك من النساء الفاجرة الشَّبَقَةُ المتساقطة على الرجال سميت بذلك لأنها تتهالك أي تتمايل وتتنثني ، لسان العرب ٥٠٣/١٠ .

^٤ - البرؤك من النساء التي تتزوج زوجاً ولها ابن مدرك من زوج آخر ، لسان العرب ٤٨٠/٣ .

^٥ - الفِرْكُ والفِرْكُ أَنْ تُبْغِضَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا ، وقيل الفِرْكُ بَعْضُ الرَّجُلِ لِمَرْأَتِهِ أَوْ بَعْضُ امْرَأَةٍ لَهُ ، لسان العرب ٤٧٣/١٠ .

^٦ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٢٤ .

^٧ - مسند أحمد بن حنبل ١٦٨/١ .

^٨ - صحيح البخاري ١٩٥٨/٥ في ٧٠ كتاب النكاح ١٦ باب الأكفاء في الدين حديث ٤٨٠٢

قوله : تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : أى لأجل أربع ، وقوله : لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا : الحسب فى الأصل الشرف بالأباء وبالأقارب مأخوذ من الحساب لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقبهم ومآثر آبائهم وقومهم وحسبوها ، وقيل المراد بالحسب هنا الفعال الحسنة .

ويؤخذ منه أن الشريف النسب يُستحب له أن يتزوج نسيبه إلا أن تعارض نسيبه غير دينية وغير نسيبية دينة فتقدم ذات الدين وهكذا فى كل الصفات ، وقوله : وَجَمَالِهَا : يؤخذ منه استحباب تزوج الجميلة إلا أن تعارض الجميلة الغير دينة والغير جميلة الدينة نعم لو تساوتا فى الدين فالجميلة أولى ويلتحق بالحسنة الذات الحسنة الصفات ومن ذلك أن تكون خفيفة الصداق .

وقوله : فَظَفَرُ بِيَدَاتِ الدِّينِ ، فى حديث جابر : [فعليك بذات الدين]^١ والمعنى أن اللائق بذى الدين والمروءة أن يكون الدين مطمح نظره فى كل شئ لا سيما فيما تطول صحبته فأمره النبى صلى الله عليه وسلم بتحصيل صاحبة الدين الذى هو غاية البغية .

وقوله : تَرَبَّتْ يَدَاكَ : أى لصقتا بالتراب ، وهى كناية عن الفقر وهو خبر بمعنى الدعاء لكن لا يراد به حقيقته وبهذا جزم صاحب العمدة زاد غيره أن صدور ذلك من النبى صلى الله عليه وسلم فى حق مسلم لا يستجاب لشرطه ذلك على ربه ، وحكى بن العربى أن معناه استغنت ورد بان المعروف اترب إذا استغنى وترب إذا افتقر ووجه بأن الغنى الناشئ عن المال تراب لأن جميع ما فى الدنيا تراب ولا يخفى بعده وقيل معناه ضعف عقلك وقيل افتقرت من العلم وقيل فيه تقدير شرط أى وقع لك ذلك إن لم تفعل ورجحه بن العربى وقيل معنى افتقرت خابت^٢ .

فأول الشروط وأهمها التى يجب أن تتوفر فى الزوجة : الدين ، كما قال تعالى : [وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ]^٣ ، ولقوله سبحانه وتعالى :

١ - مسند أحمد بن حنبل ٣/٣٠٢ حديث ١٤٢٧٥ .

٢ - فتح البارى ٥/١٣٦ .

٣ - سورة البقرة ، الآية ٢٢١ .

وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ [١] ، وقوله تعالى : [قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ] [٢] ، فإنها إن كانت على دين رجوت منها الخير ، وأول مظاهر تدين المرأة "الصلاة" ، وهى الصلة بين العبد وربّه ، فإن كانت على صلة طيبة بينها وبين ربها رجوت منها أن تكون على صلة طيبة بينك وبينها . والله المثل الأعلى . فمن فرطت فى أمر ربها وحقه لا عيب عليها إن فرطت فى أمر وحق زوجها !! ، ومن رضى أن تكون زوجته مفرطة فى أمر ربها وفرضه فلا يلومن إلا نفسه إن هى فرطت فى حقه ولم تحافظ على بيته .

- وإذا كانت الزوجة ذات دين فهى على خلق ، وهذا بديهي ، فالدين الإسلامى وهو دين الوسطية من يعتنقه يكون بين الإفراط والتفريط ، فلا هى مفرطة فى تدينها ولا هى مفرطة فى دينها ، وتراها وقد تخلقت بخلق القرآن الكريم ، من حجاب ومعاملات وحديث وغير هذا مما فرضه القرآن الكريم على المرأة .

وإذا انضم إلى الدين الجمال فبها ونعمت ، وقد رغب النبى صلى الله عليه وسلم فى الجمال فقال : [نِ اللّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ] [٣] ، وقوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل : [أى النساء خير ؟] قال : "الَّتِي تَسْرُهُ إِذَا نَظَرَ وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ" [٤] والمرأة المتدينة الجميلة نور على نور ، وإن كانت ذات مال وحسب فقد جمعت من صفات الخير الكثير .

- ومن الصفات المطلوبة فى الزوجة أن تكون ودوداً ولوداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم : [تَزَوَّجُوا الْوُلُودَ الْوُدُودَ فَإِنِّي مُكَاثِّرٌ بِكُمْ] [٥] .

. ومنها أن تكون بكرّاً : لقوله صلى الله عليه وسلم لجابر رضى الله عنه : [أَلَا تَزَوَّجْتَهَا بِكَرّاً ثَلَاثَ عَشْرَ مَرَّةً وَتُضَاحِكُكَ وَتُضَاحِكُهَا] [٦] .

١ - سورة النور ، الآية ٢٦ .

٢ - سورة النساء ، الآية ٣٥ .

٣ - صحيح مسلم ٩٣/١ في ١ كتاب الإيمان ٣٩ باب تحريم الكبر وبيانه حديث ٩١ .

٤ - مسند أحمد بن حنبل ٢٥١/٢ حديث ٧٤١٥ .

٥ - سنن أبي داود ٦٢٥/١ في ٦ كتاب النكاح ٥ باب من تزوج الولود حديث ٢٠٥٠ .

٦ - صحيح مسلم ١٠٨٦/٢ في ١٧ كتاب الرضاع ١٦ باب استحباب نكاح البكر حديث ٧١٥ .

- وصَحَّ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا أَنَّهَا قَالَتْ يَوْمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى زَوَاجِهِ مِنْهَا ، وَهِيَ الْبَكْرُ الَّتِي لَمْ يَتَزَوَّجْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَهَا بَكْرًا : [أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلَتْ وَادِيًا وَفِيهِ شَجَرَةٌ قَدْ أَكَلَ مِنْهَا وَوَجَدَتْ شَجَرًا لَمْ يُؤْكَلْ مِنْهَا فِي أَيِّهَا كُنْتَ تُرْتَعُ بِعَيْرِكَ قَالَ فِي الَّذِي لَمْ يُرْتَعُ مِنْهَا تَعْنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَهَا] ^١ .

وقد أكثر الأدباء من ذكر وصف النساء على نحو ما أورده ابن المعظم فقد أورد المعافي بن زكريا في كتاب الجليس الصالح قريبا مما جاء في مقامة ابن المعظم قال : (كان رجل في من كان قبلنا حلف أن لا يتزوج امرأة حتى يستشير مائة نفس، وإنه استشار تسعة وتسعون رجلاً فاختلفوا عليه، فلما بقي رجل واحد قال: أول من يفجأني من هذا الطريق أستشير ثم أخذ بقوله. فتلقاه رجل شيخ على قصبة، ومعه صبيان حوله. قال له: إني حلفت أن لا أتزوج حتى أستشير مائة رجل، وقد استشرت تسعة وتسعين رجلاً فاختلفوا فقلت: أول من يفجأني من هذا الطريق أستشير، فجاء شيخ ركب على قصبة، ثم لم يجد بداً فدنا منه فقال له: يا عبد الله إني أريد أن أتزوج فأشر عليّ، فقال له: النساء ثلاث، ثم مضى. قال: قلت في نفسي والله ما قال لي أحدٌ مثل ما قاله هذا لأتبعنه، قال: فاتبعته حتى لحقته، قلت: يا عبد الله قلت لي النساء ثلاث، قال: نعم واحدة لك وواحدة عليك وواحدة لا لك ولا عليك. قال: ثم مضى فاتبعته فسألته عن تفسير ما قال، فقال: أما البكر فهي لك ولا عليك، وأما الحنّانة فهي النّيب التي قد كان لها زوجٌ فهي لا لك ولا عليك، وأما المنانة فالنّيب التي لها ولدٌ فهي التي عليك ولا لك) ^٢ .

وقيل أوصى رجل ابنه فقال له : يا بني إياك ! والرقوب الغضوب القطوب الغلباء الرقباء اللفوت الشوساء الحنّانة المنانة والرقوب : التي ترقبه أن يموت فترثه ،

^١ - صحيح البخاري ١٩٥٣/٥ في ٧٠ كتاب النكاح ٩ باب نكاح الأبكار حديث ٤٧٨٩ .

^٢ - الجليس الصالح والأنيس الناصح : المعافي بن زكريا ، دار الفكر ، دمشق ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، الطبعة الأولى ١٩٨١ م ٤٧١/١ .

والغلباء الرقباء : الغليظة الرقبة واللفوت : التي عينها لا تثبت في موضع ، إنما همها أن تغفل عنها فتغمز غيرك . والشوساء : المشاوسة النظر من التيه^١ .

وقد ورد في الحديث النبوي الشريف أن زيد بن حارثة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : (تزوجت يا زيد؟ قال: لا يا رسول الله، قال تزوج تستعف، ولا تتزوج خمسا لا تتزوج شهيرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيدرة ولا لفوتا، قال زيد: والله يا رسول الله ما أعرف مما قلت شيئا، قال: أما الشهيرة: فالزرقاء البذية، وأما اللهبرة: فالطويلة الهزيلة. وأما النهبرة : فالعجوز المدبرة، وأما الهيدرة: فالقصيرة القبيحة، وأما اللفوت: فذات الولد من غيرك)^٢ .

وفي المقامة العنسية يصور ابن المعظم جانب من جوانب المجتمع في حكاية الراوي أبو العنيس مع قاضي قنسرين ، فقد لجأ إليه بعد أن أصابته الحوائج يقول الراوي : (دخلت على قاضي قنسرين^٣ حين بليت بالحوائج الجوائح^٤ ، ومنيت بالنسوة النوائح النوايح ، فقلت له : أبيت اللعن أنك اليوم سيد فاضل ، وحر عاقل وحاتم زمانه ، وقريع أقرانه ، وأنت لكل صافي صفي ، ولكل حافي حفي ، وأنت لكل راع نجيب ولكل داع مجيب ، وأنت لكل حائم حامي ، ولك هائم هامي وأنت قرم القوم ، ولم تزل تلازم الصوم ، وليس يفوتك فرض ولا سنة ، ولا نذب ولا نافلة ، وأنت عابد الحق ، وأجزل الخلق ...)^٥ .

١ - سمط اللآلي في شرح أمالي القالي : عبد العزيز الميمني ص ٢٥٤ .

٢ - ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر ١٢٥٣/٢ .

٣ - قنسرين بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قوم ، وهي مدينة بالشام كان فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في سنة ١٧هـ ، معجم البلدان ٤٠٣/٤

٤ - الجَوْحَةُ والجائحة الشدة والنازلة العظيمة التي تَجتاح المالَ من سَنَةٍ أو فتنَةٍ وكل ما استأصله فقد جاحَه واجتأحه وجاحَ الله ماله وأجأحه بمعنى واحد أي أهلكه بالجائحة ، لسان العرب ٤٣١/٢ .

٥ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٢٧ . ٢٨ .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : [القضاة ثلاثة ، اثنان في النار وواحد في الجنة] ^١ ، فاللذان في النار أحدهما من يقضي ولم يعلم ، والآخر من يعلم فيقضي بغير الحق ، وأما الذي في الجنة فهو الذي يعلم ويقضي بالحق. وقال صلى الله عليه وسلم: إن مع القاضي ملكين يسددانه ويوفقانه، فإن عدل أرشده وأعانه، وإن جار قذفاه في النار ^٢ .

وقد حُثَّ الحاكم على التسوية بين الناس فقد قال الله تعالى : [وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] ^٣ . وقال أيضاً: [فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] ^٤ . وقال: [وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ] ^٥ .

وأوجب الدين الإسلامي على القضاة التسوية في الحكم بين القوي والضعيف ، والعدل في القضاء بين المشروف والشريف ؛ ولا يتبع هواه في تقصير بحق أو ممايلة لمبطل ^٦ .

قال الله تعالى : [يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ] ^٧ .

وقد استوفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عهده إلى أبي موسى الأشعري شروط القضاء وبين أحكام التقليد حين ولاه القضاء، قال : أما بعد :

(فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، وأنفذ إذا تبين لك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك،

^١ - سنن أبي داود ٣٢٢/٢ حديث ٣٥٧٣ .

^٢ - محاضرات الأدباء : الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ٨٧/١ .

^٣ - سورة المائدة ، من الآية ٤٥ .

^٤ - سورة المائدة ، من الآية ٤٧ .

^٥ - سورة المائدة ، من الآية ٤٩ .

^٦ - نهاية الأرب في فنون الأدب ٢/٢٤٤ .

^٧ - سورة ص ، الآية ٢٥ .

حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه رشذك أن ترجع إلى الحق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجج فيه صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة .

ثم اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور بنظائرها ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينةً أمدأ ينتهي إليه فإن أحضر بينةً أخذت له بحقه، وإلا استحللت القضية عليه؛ فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى ، المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنياً في ولاء أو نسب فإن الله تعالى تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان ، وإياك والغلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر (١ .

ويقدم القلقشندي صورة أخرى من صور المجتمع حينما يتحدث عن المهن والحرف ، ويشير إلى أن الإنسان لابد له من حرفة يتعلق بها ويعيش منها ، يقول : (وهذه المقامة التي قدمت الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب إلى أني كنت أنشأتها في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائة عند استقراري في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة وأنها اشتملت مع الاختصار على جملة جملة من صناعة الإنشاء ووسمتها بالكواكب الدرية في المناقب البدرية ووجهت القول فيها لتقريب المقر البدري بن المقر العلاني بن المقر المحيوي بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ جعلت مبناها على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها ومعيشة يتمسك بسببها وأن الكتابة هي الحرفة التي لا يليق بطالب العلم سواها ولا

١ - سنن البيهقي الكبرى : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، الناشر : مكتبة دار الباز - مكة المكرمة ، ١٤١٤ - ١٩٩٤م تحقيق : محمد عبد القادر عطا ١٥٠/١٠ حديث ٢٠٣٢٤ .

يجوز له العدول عنها إلى ما عداها مع الجنوح فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها وتقديمها على كتابة الديونة وترشيحها وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد وما ينبغي أن يسلكه من الجواد مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده ومهدت قواعده على ما ستقف عليه في خلال مطاوبها إن شاء الله تعالى وهي^١ :

حكى الناثر ابن نظام قال لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل مشمرا عن ساق الجد ذيل الاجتهاد مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد أنتهز فرصة الشباب قبل توليها وأغتتم حالة الصحة قبل تجافيتها قد حالف جفني السهاد وخالف طيب الرقاد أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتتفر عن الطلب وتجمع مميلا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها متخيرا أليق الأماكن وأوفق الأوقات قانعا بأدنى العيش راضيا بأيسر الأقوات أونس من شوارد العقول وحشيها وأشرد عن روابض المنقول حوشيها وألنقط ضالة الحكمة حيث وجدتها وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها مقدما من العلوم أشرفها ومؤثرا من الفنون ألطفها معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع مقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي تذكره السمع منتقيا من الكتب أمتعها تصنيفا وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا منتخبا من أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثا وألطفهم تدقيقا عارفا لكل عالم حقه وموفيا لكل علم مستحقه قد استغنيت بكتابي عن خلي ورفيقي وآثرت بيت خلوتي على شفيقي وشقيقي أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهد عيانا وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كمائن المعاني فلا أثني عنها عنانا وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع بالغنيمة وأهجم على حصون الدفاتر ثم لا أولي عن هزيمة بل كلما لاحت لي فئة من البحث تحيزت إليها أو ظهرت لي كتيبة من المعاني حملت عليها إلى أن أتيح لي من الفتح

^١ - صبح الأعشى ١٢٦/١٤ .

ما أفاضته النعمة وحصلت من الغنيمة على ما اقتضته القسمة فبينما أنا أرتع في رياض ما نفلت وأجنتي ثمار ما خولت إذ طلع علي جيش التكليف فحصرني وخرج علي كمين التكليف فأسرني فأمسيت في أضيق خناق ، وأشد وثاق قد عاقني قيد الاكتساب عن الاشتغال ، وصدني كل الكد عن الاهتمام بالطلب والاحتفال فغشيني من القبض ما غشيني وأخذني من الوحشة ما أخذني وتعارض في حكم العقل بين الكسب وطلب العلم وتساويا في الترجيح فلم تجنح واحدة منهما إلى السلم فصرت مدهوشا لا أحسن صنعا وبقيت متحيرا لا أدري أي الأمرين أقرب إلي نفعاً إن طلبت العلم للكسب فقد أفحشت رجوعا ، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة وامت جوعا ...)^١ .

وإذا كان الغزل والنسيب والتشبيب يدخل في الموضوعات الاجتماعية التي تتناولها أدباء المقامات فلن نجد أفضل من مقامات الشاب الظريف لتصوير هذا الملمح الاجتماعي فقد اشتملت هذه المقامات على موضوع واحد هو الغزل ، وقد صرح الشاب الظريف بأنه (منذ شب عن الطوق مغرى بالغرام والتوق) . وقد وصف النقاد مقامات الشاب الظريف بأنها مقامة طويلة تدور كلها حول الغزل نثراً وشعراً ، وقد ترك العصر الذي عاش فيه الشاب الظريف أثراً كبيراً على صناعته النثرية والشعرية .

بدأ الشاب الظريف مقامته على غير الطريقة المعهودة عند أدباء فن المقامات وهي الطريقة التقليدية للراوي والبطل ، ففي المقامات الأخرى يقوم الإطار الفني للمقامة على شخصيتين رئيسيتين مختلفتين هما : شخصية الراوي وشخصية البطل ، فالراوي الذي ينتمي إلى طبقة اجتماعية متوسطة هو الذي يمهد . غالباً . لظهور البطل ، يتابعه حيثما حل ، وهو في كل هذا يُحسن طريقة تقديم البطل الذي يكون عادة شخصية ساخرة فصيحة تعتمد على الفصاحة والذكاء والحيلة والخداع لنيل هدفه ممن ينخدعون بمظهره .

^١ - صبح الأعشى ١٢٦/١٤ . ١٢٧ .

ولكن الشاب الظريف كان هو الراوي لمقاماته فهو يقول مفتتحاً المقامة :
(لم أزل مذ بلغت سنة التمييز ، أتولع بنظم الأراجيز ، ومذ شب عن الطوق ،
مغرى بالغرام والتوق ، اتعمد خلع العذار ، في حب السالف والعذار ، وأهيم بالشمول
والشمائل ، وأشرب في زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض ،
ولا أقدم حذرا من ضرب المرهفات البيض ، وأتوجه لضم أعطاف السمر ، ولا أتوجع
لضمم انعطاف السمر ، وانتزه في كل ناد وواد ، وانتزه عن كل معاند ومعاد ،
فخرجت بعض الأيام إلى الغياض ، وولجت بين حياض ورياض ، قد ضاع نشرها ،
وضاء بشرها ، وقبل خد الشقيق بها ثغر الأقاح ، وملأت قماريها تلك النواحي
بالنواح ، فمن جدول يميل كالأيم ، شطاه بالزهر كقزح في الغيم ، فهو من صور
الحباب كالحباب ، ومن طرب الإضطراب في عباب ، تصفق غدرانها فترقص
أغصانها ، وتقخر أزهارها ، ويشدو هزارها ، وتبكي عيون نرجسها بينوع منبجسها
...)^١ .

ويقول الشاب الظريف في موضع آخر من هذه المقامة الغزلية : (فلما جرد
الصبح حسامه ، وأذهب غيهب الليل ظلامه ، خرجت وقد كثر الشوق والتشوق ،
وأعقب ما تزايد من التأرق والتحرق ، فهديت إلى بعض الأصحاب ، بدمع كالسحاب
وأنشدته :

صبوت إلى الصباية والغرام وودع ناظري طيب المنام
وسام القلب من أولاد سام غزال طرفه من آل حام
يريني الموت في سيف ورمح مقيماً في اللواظ والقوام
جعلت تصبري عنه ورائي وصبرت الغرام به أمامي
فهل لي مسعد في الحب يرثي لما ألقاه من حرق السقام

^١ - ديوان الشاعر المشهور محمد بن يوسف بن مسعود التلعفري ، ويليهِ مقامة رقيقة المبنى
رائقة المعنى لتاج الأدباء شمس الدين المعروف بالشاب الظريف ، تصحيح محمد سليم الأنسي
، مكتبة الأنسية بيروت ص ٥٥ .

فحين اعلمته من الوجد ما أجد ، ومن الكمد ما تكابده الكبد ، وفهم من به
همي وهيامي ، ومن إليه ترامي مرامي أنشد :

تعدّ على الغرام فلست تقوى على ما فيه من كمد وذل
فكم من مغرم قد مات عشقاً بمن تعنى ولم يظفر بوصل
فلما سمعت ما قاله ووعيت ، لويت عطفى عنه وما ألويت ، ورحت وبى
جوى وبى ، وعلمت أن ليس لي نصير في الغرام ولا ولي ...^١ .

وهذا الغرض الشعري [الغزل] من أكثر الأغراض والموضوعات التي اهتم
بها النقاد ووضعوها للقصيدة الغزلية قواعد وأسس جعلوا التخلي عنها من العيوب
الشعرية ، يقول قدامة بن جعفر^٢ : (ولما كان المذهب في الغزل إنما هو الرقة
واللطافة والشكل والدمائة ، كان ما يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة
مقبولة ، غير مستكرهة ، فإذا كانت جاسية مستوخمة كان ذلك عيباً ، إلا أنه لما يكن
عيباً على الإطلاق ، وأمكن أن يكون حسناً ، إذ كان قد يحتاج إلى الخشونة في
مواضع مثل ذكر البسالة والنجدة واليأس والمرهبة ، كان أحق المواضع التي يكون
فيها عيباً الغزل لمنافرتة تلك الأحوال وتباعده منها)^٣ .

ويبدو من كلام الشاب الظريف السابق أن المجتمع في عصره كان متسامحاً
بعض الشيء يسمح بلقاء المحبين ، وقد كان الشاعر العربي في العصور الأولى
يكثر التحدث عن العفاف أو عن التمكن من الشهوات ، دون أن يعبر في ذلك عن
حقيقة أخلاقية مائلة في نفسه حتى أصبح ذلك مذهباً أدبياً في قرون الشعر
الأولى .

^١ - ديوان التلعفري ص ٥٩ .

^٢ - قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ، أبو الفرج : كاتب ، من البلغاء الفصحاء
المتقدمين في علم المنطق والفلسفة ، كان في أيام المكتفي بالله العباسي ، وأسلم على يده ، وتوفي
ببغداد ، يضرب به المثل في البلاغة ، من أشهر كتبه نقد الشعر ، توفي سنة ٣٣٧ هـ ، الأعلام
للزركلي ١٩١/٥ .

^٣ - نقد الشعر : قدامة بن جعفر ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ص ٣٦ .

المبحث الثاني الموضوعات الدينية

تمهيد :

قال الإمام الماوردي^١ عن أدب الدين : (اعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما كلف الخلق متعبداته ، وألزمهم مفترضاته ، وبعث إليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعتة إلى تكليفهم ، ولا من ضرورة قادتة إلى تعبدهم ، وإنما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه .

بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم ؛ لأن نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ، ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة ، وما جمع نفع الدنيا والآخرة كان أعظم نعمة وأكثر تفضلا .

وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع ، وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع ، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل ؛ لأن الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل ، والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع .

فلذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فبلغهم رسالته ، وألزمهم حجته ، وبين لهم شريعته ، وتلا عليهم كتابه ، فيما أحله وحرمه ، وأباحه وحظره ، واستحبه وكرهه ، وأمر به ونهى عنه ، وما وعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعده به من العقاب لمن عصاه .

فكان وعده ترغيبا ، ووعيده ترهيبا ؛ لأن الرغبة تبعث على الطاعة ، والرغبة تكف عن المعصية ، والتكليف يجمع أمرا بطاعة ونهيا عن معصية .

^١ - علي بن محمد حبيب ، أبو الحسن الماوردي : أقضى قضاة عصره ، من العلماء الباحثين ، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة ، منها : الأحكام السلطانية ، مات سنة ٤٥٠ هـ الأعلام للزركلي ٣٢٧/٤ .

ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرغبة ، وكان ما تخلل كتابه من قصص الأنبياء السالفة ، وأخبار القرون الخالية ، عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة ، وتزداد بهما الرهبة ، وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا ^١ .

العلاقة بين الأدب والأخلاق (أو الأدب والدين) :

تبدأ هذه المشكلة مبكرة في تاريخ النقد العربي بالفصل - في الموضوع - بين الشعر والدين، فالشعر عند الأصمعي مجاله الشر. وإذا تناول الموضوعات الأخلاقية والدينية (الخير) ضعف وتهافت ، وقد كان هذا المعنى واضحاً عند اشد الأخلاقيين تزمناً، ولهذا اخرجوا من الشعر ما كان وعظاً أخلاقياً، وعندما استدار النقد إلى ما يشبه الخاتمة عند ابن خلدون ظللنا نسمع أن من يحاول القول في الزهديات والربانيات والنبويات يسقط سقوطاً ذريعاً، ويعلل ذلك بسبب ابتذال معانيها بين الناس ، فالالتفاتة صحيحة ، ولكن التعليل ربما لم يكن كافياً ^٢ .

ولكن العلاقة بين الشعر والدين (أو الشعر والخلق) اقترنت لدى النقاد بموقف دفاعي عن الشاعر - دون الشعر - ، فإذا عيب أبو تمام بأنه قليل التدين لا يؤدي الصلوات في أوقاتها. دافع عنه الصولي ^٣ بأن الدين ليس مقياساً في الحكم على الشاعر، وإذا عاب بعضهم المتنبي ^٤ بأنه مستهتر في شعره ببعض الشؤون

^١ - أدب الدنيا والدين ص ١٠٢ .

^٢ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م ص ٣١ .

^٣ - محمد بن يحيى بن عبد الله ، أبو بكر الصولي ، وقد يعرف بالشطرنجي: نديم ، من أكابر علماء الادب ، نادم ثلاثة من خلفاء بنى العباس، هم: الراضي والمكتفى والمقتدر ، وله تصانيف، منها : كتاب أدب الكتاب ، مات سنة ٣٣٥ هـ ، الأعلام للزركلي ١٣٦/٧ .

^٤ - أحمد بن الحسين بن الحسن الكندي، أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) : الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الادب العربي ، ولد بالكوفة في محلة تسمى (كندة) وإليها نسبته ، ونشأ بالشام، وقال الشعر صبيّاً ، وتنبأ في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون، وقبل أن يستقل أمره خرج إليه لؤلؤ (أمير حمص ونائب الاخشيد) فأسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، وخلف وراءه ديوان شعر نال حظه من الدراسة والتحقيق ، الأعلام للزركلي ١١٥/١ .

الدينية دافع عنه القاضي الجرجاني - لا عن شعره - بان الشاعر لا يعاب لدينه، إذ لو كان الأمر كذلك لأطرح الجاهليون وقد كانوا وثنيين أو لأطرح شعر أبي نواس وكان شديد التهتك والاستهتار . فالفصل في الموضوع بين الدين والشعر لم ينضج إلا عند رجل من أشد النقاد تحرجاً - وهو الأصمعي^١.

ولكن السؤال هو: ما هو موقف الناقد إذا كان يقرأ شعراً فيه تهجم على بعض المواضيع الأخلاقية أو المبادئ الدينية؟ هنا يتسع البون بين النظرية والتطبيق، ونجد نقاداً مثل الباقلاني^٢ وابن شرف^٣ وابن بسام^٤ أخلاقيين في معيارهم : فالباقلاني

^١ - عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الاصمعي (١٢٢ - ٢١٦ هـ) : راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، نسبته إلى جده أصمع ، ومولده ووفاته في البصرة ، كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة ، أخباره كثيرة جداً ، وتصانيفه كثيرة، منها : كتاب الابل وكتاب الاضداد ، الأعلام للزركلي ١٦٢/٤ .

^٢ - محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر الباقلاني (٣٣٨ - ٤٠٣ هـ) : قاض ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الاشاعرة ، ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها ، كان جيد الاستباط، سريع الجواب ، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها ، من كتبه : إعجاز القرآن ، الأعلام للزركلي ١٧٦/٦ .

^٣ - محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني، أبو عبد الله: كاتب مترسل، وشاعر أديب ، ولد في القيروان، واتصل بالمعز بن باديس أمير إفريقية، فألحقه بديوان حاشيته، ثم جعله في ندمائه وخاصته، واستمر إلى أن زحف عرب الصعيد واستولوا على معظم القطر التونسي (سنة ٤٤٩ هـ) فارتحل المعز إلى المهديّة ومعه ابن شرف ، ثم رحل ابن شرف إلى صقلية، ومنها إلى الاندلس، فمات بإشبيلية ، من كتبه : أبكار الافكار وهي مختارات جمعها من شعره ونثره، ومقامات عارض بها البديع ، مات سنة ٤٦٠ هـ ، الأعلام للزركلي ١٣٨/٦ .

^٤ - علي بن بسام الشنتريني الاندلسي، أبو الحسن: أديب، من الكتاب الوزراء ، نسبته إلى شنترين في البرتغال ، اشتهر بكتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " ، مات سنة ٥٤٢ هـ ، الأعلام للزركلي ٢٦٦/٤ .

يعيب معلقة أمروء القيس^١ من زاوية أخلاقية. ولا يكتفي ابن شرف بذلك بل يقول : (أن النظرة إلى بعض القصائد من الزاوية الأخلاقية إنما هي من صميم الحكم الفني على الشعر)^٢ .

وتحس لدى ابن بسام تحرجه من الناحية الأخلاقية في مقاييسه النقدية وضيقة وتبرمه بكل شعر يشم منه الإلحاد أو استعمال المصطلح الفلسفي^٣ .
وللعلاقة بين الشعر والأخلاق زاوية أخرى يمثلها المتأثرون بالثقافة اليونانية. فقد تنبه بعضهم من خلال الفهم الخاطئ لغاية المأساة (التراجيديا) إلى أن الشعر اليوناني كان يقصد إما إلى الحث على فعل أو الردع عن فعل (أي أن محوره هو الفضيلة) وكان في ثنايا ذلك اتهام للشعر العربي، لأنه يتحدث عن الظلم والتهتك والإغراء بالردائل ومحاكاة الدواب أحياناً .

ولهذا كان ذلك الإتهام يعني أن الشعر العربي - في جملته - مناقض للأخلاق ويتبدى هذا الاعتقاد على أتمه عند المتأثرين بجمهورية أفلاطون مثل مسكويه وابن رشد، فهذان الفيلسوفان اتخذا كلام أفلاطون في نقد الشعر اليوناني سبيلاً إلى تطبيق نظريته على الشعر العربي، ولما كانت الغاية النهائية من هذا تربية. فإن كلاً منهما نصح أن يجنب الناشئة الشعر الذي يتحدث عن النسب أو مدح الطغاة ، لان ذلك ذو أثر رديء في نفوسهم، ويشبههما في هذا الموقف ابن حزم الذي كان خاضعاً لنظرته الفقهية في الحكم على الشعر. فقد نفى منه أكثر أنواعه لاعتقاده أنها تضر بأخلاق الناشئة؛ وحيثما كانت الزاوية في النظر إلى الشعر هي " التربية " نجد الناظرين إليه يستبعدونه، لإقناعهم أنه من العوامل الهدامة

^١ - امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار : أشهر شعراء العرب على الإطلاق ، يمني الأصل ، مولده بنجد، أو بمخلاف السكاسك باليمن ، اشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، ف قيل حندج وقيل مليكة وقيل عدي ، وكان أبوه ملك أسد وغطفان ، وأمه أخت المهلهل الشاعر، فلقنه المهلهل الشعر ، من أشهر شعره المعلقة ، الأعلام للزركلي ١١/٢ .

^٢ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٣٢ .

^٣ - المصدر السابق ص ٣٢ .

أخلاقياً. وخلاصة ذلك كله^١ :

أ/ إذا كان الناقد يدافع عن الشاعر أنكر التعارض بين الشعر والأخلاق .

ب/ إذا أخذ في النقد التطبيقي تحول بالنقد إلى المقاييس الأخلاقية .

ج/ إذا تحدث عن التربية جعل الشعر (ما عدا القليل منه) مسئلاً عن التحول بالنفس نحو الشر .

وترى الباحثة أن هناك علاقة قوية بين الشعر والأخلاق ، فالشاعر هو الذي ينشر ويبشر بالأخلاق ، وتلك لعمري غاية الشاعر المجيد ، ورسالة الشعر الجيد ، وهذا ما يشير إليه رأي النقاد في موضوع القصيدة : (أول الشعر إنما يكون بكاء على دمن ، أو تأسفاً على زمن ، أو نزوعاً لفراق ، أو تلوعاً لاشتياق ، أو تطلعاً لتلاق ، أو أعداراً إلى سفيه ، أو تغمداً لهفوة ، أو تتصلاً من زلة ، أو تحضيضاً على أخذ بثار ، أو تحريضاً على طلب أوتار ، أو تعديداً للمكارم ، أو تعظيماً لشريف مقاوم ، أو عتاباً على طوية قلب ، أو متاباً على مقارفة ذنب ، أو تعهداً لمعاهد أحباب ، أو تحسراً على مشاهد أطراب ، أو ضرباً لامثال سائرة ، أو قرعاً لقوارع زاجرة ، أو نظماً لحكم بالغة ، أو ترهيداً في حقير عاجل أو ترغيباً في جليل آجل ، أو حفظاً لقديم نسب ، أو تدويناً لبارع أدب)^٢ .

فهذا النص يبين لنا أن غاية وهدف الشعر بالإضافة إلى رسالة الشاعر ووظيفته عند قومه .

^١ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٣٢ .

^٢ - المصدر السابق ص ٦٥ .

الأثر الديني في مقامات القرنين السابع والثامن الهجريين :

هناك من ألف مقامات بهدف توصيل العظات الدينية والنصائح الخلقية إلى القارئ مثلما فعل أبو القاسم الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ، ومنهم من استخدم شكل المقامة ليتناول بشكل غير مباشر بعض الموضوعات الاجتماعية والسياسية . بل إن رجال الدين والمتصوفين الذين ينفون عادة عن قراءة الكتب الدنيوية كانوا يقبلون على قراءة مقامات الحريري ويطلقون عليها "طبق الحلوى".

ويمكن القول أن مقامات الزمخشري التي تمثل تيارا مختلفا من المقامات ، لخلوها من الراوي والبطل والرحلة والاعترا ب والحوار والمفاجآت ، تعد نموذج حقيقي لدراسة الموضوعات الدينية في المقامات ، وذلك لأن الموضوعات والمواقف فيها تكاد تكون مكرسة أساسا للوعظ ، وكذا مقامات ابن الجوزي التي تمثل مجموعة من النصوص ذات الدلالات العميقة في مجالات المعارف الدينية والحقائق الإلهية ، وقد انعكس حفظ ابن الجوزي للقرآن الكريم على أسلوبه، فاقتبس منه كثيرا اقتباسا بارعا وضمن مقاماته اشعارا وامثالا لا تحصى زيادة على التلميح بحوادث التاريخ وقصص الغابرين ، مما يفيد موعظة ويزيد اعتباراً .

وظهرت الموضوعات الدينية في المقامات منذ نشأتها ، فقد أكثر رواد هذا الفن من ذكر مثل هذه الموضوعات ومن الأمثلة على ذلك : ما ذكره بديع الزمان في م في المقامة المارستانية وهو السني المذهب ، فقد قدّم حجاجاً في المذاهب الدينية فنراه يسفه عقائد المعتزلة ويرد عليها بشدة وقسوة ويستشهد أثناء تنقلاته هذه بين ربوع الثقافة بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، فهو يقول : (دَخَلْتُ مَارِسْتَانَ الْبَصْرَةَ وَمَعِيَ أَبُو دَاوُدَ الْمُتَكَلِّمُ ، فَنَظَرْتُ إِلَى مَجْنُونٍ تَأْخُذُنِي عَيْنُهُ وَتَدْعُنِي فَقَالَ : إِنْ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ فَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ ، فَقُلْنَا : كَذَلِكَ ، فَقَالَ : مَنْ الْقَوْمُ لِلَّهِ أَبُوهُمْ؟ فَقُلْتُ : أَنَا عِيسَى ابْنُ هِشَامٍ وَهَذَا أَبُو دَاوُدَ الْمُتَكَلِّمُ فَقَالَ : الْعَسْكَرِيُّ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَ : شَاهَتِ الْوُجُوهُ وَأَهْلُهَا إِنَّ الْخَيْرَةَ لِلَّهِ لَا لِعَبْدِهِ ، وَالْأُمُورَ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ يَا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَعِيشُونَ جَبْرًا ، وَتَمُوتُونَ صَبْرًا وَتُسَافُونَ إِلَى الْمَقْدُورِ قَهْرًا ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، أَفَلَا تَتَصِفُونَ ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَصِفُونَ ؟ وَتَقُولُونَ : خَالِقُ الظُّلْمِ ظَالِمٌ! أَفَلَا تَقُولُونَ : خَالِقُ الْهَلْكِ هَالِكٌ؟ أَتَعْلَمُونَ يَقِينًا ، أَنْكُمْ أَخْبَثُ مِنْ

إِبْلِيسَ دِينًا قَالَ َ: [رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي] ^١ ، فَأَقَرَّ وَأَنْكَرْتُمْ وَأَمَنَ وَكَفَرْتُمْ، وَتَقُولُونَ : خَيْرٌ فَاخْتَارَ، وَكَلاَّ فَإِنَّ الْمُخْتَارَ لَا يُبْعَجُ بَطْنُهُ، وَلَا يَفْقَأُ عَيْنُهُ وَلَا يَرْمَى مِنْ حَالِقِ ابْنِهِ، فَهَلِ الْإِكْرَاهُ إِلَّا مَا تَرَاهُ؟ وَالْإِكْرَاهُ مَرَّةً بِالْمَرَّةِ وَمَرَّةً بِالدَّرَّةِ. فَلْيُخْزِكُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ بَغِيضُكُمْ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ يَغِيظُكُمْ، إِذَا سَمِعْتُمْ: " مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ " أَلْحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ : [زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ فَأُرِيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا] ^٢ جَحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ : " [عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَا، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى انْقَبَيْتُ حَرَهَا بِيَدِي] ^٣ أَنْغَضْتُمْ رُؤُوسَكُمْ وَلَوَيْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ وَإِنْ قِيلَ : " عَذَابُ الْقَبْرِ " تَطَيَّرْتُمْ ، وَإِنْ قِيلَ : " الصِّرَاطُ " تَعَامَزْتُمْ وَإِنْ ذُكِرَ الْمِيزَانُ قُلْتُمْ: مِنَ الْفِرْعِ كِفَّتَاهُ، وَإِنْ ذُكِرَ الْكِتَابُ قُلْتُمْ : مِنَ الْقِدِّ دَقَّتَاهُ، يَا أَعْدَاءَ الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ، بِمَاذَا تَطَيَّرُونَ؟ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ تَسْتَهْزِئُونَ؟. إِنَّمَا مَرَقْتُ مَارِقَةً فَكَأَنَّا خَبَثَ الْحَدِيثِ ، ثُمَّ مَرَقْتُمْ مِنْهَا فَأَنْتُمْ خَبَثُ الْخَبِيثِ، يَا مَخَابِيثَ الْخَوَارِجِ، تَرَوْنَ رَأْيَهُمْ إِلَّا الْقِتَالَ) ^٤ .

وَإِذَا نظرنا إلى المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين نجد الأثر الديني الواضح وذلك لانتشار النزعة الصوفية في هذين القرنين ، ويتضح ذلك بصورة أوضح في مقامات ابن الوردي الذي افتتحها بالمقامة الصوفية وهي تشير إلى تأثير هذا الأديب بتلك النزعة الصوفية التي كانت تشيع في المجتمع آنئذ .

ففي هذه المقامة يقول ابن الوردي : (حكى إنسان من معرة النعمان قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت في الطريق بواد وقانا لفحة الرمضا وقال : حكمت على الوادي الذي تروع حصاه حالبة العذارى ، فقلنا دائم الحكم والإمضا ، وإذا عين كعين الخنساء تجري على صخر ، ويقال ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادي ولا فخر ، فرويت كبد صاد من تلك العين ، ولكن نعص

^١ - سورة الحجر ، الآية ٣٩ .

^٢ - سنن ابن ماجه : محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ، الناشر : دار الفكر - بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٠٤/٢ في ٣٦ كتاب الفتن ٩ باب ما يكون من الفتن حديث ٣٩٥٢ .

^٣ - مسند أحمد بن حنبل ٣/٣٥٢ حديث ١٤٨٤٢ .

^٤ - مقامات بديع الزمان الهمذاني : دار الآفاق الجديدة بيروت ، ١٩٨٢م ص ٣١ .

منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين ، هذا وماؤها يجري على رأسه خدمة للوراد ،
ويطوف بنفسه سواء العاكف فيه والباد ، فأسبغت وضوئي منه اسباغ الذروع ،
وصليت ركعتين فوقت فيهما سهام دماء من قسي ركوع ، وسألت الله تعالى حسن
منقلبي ، ورجوت منه أن يعوضني عن تعبتي ، بصحبة من يدلني عليه ، ورؤية من
يقربني منه إليه ...)^١ .

ففي هذا النص يشير الكاتب إلى أنه سافر إلى القدس الشريف وللقدس لدي
المسلمين بصورة عامة مكانة عظيمة ، فهي مسرى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم
وقد ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم حيث قال تعالى : [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ
لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ]^٢ .

قد أشار الحديث النبوي الشريف إلى أن المسجد الأقصى بالقدس من المساجد التي
يُشد الرحال إليها ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى
الله عليه وسلم ومسجد الأقصى)^٣ .

وإذا نظرنا إلى مقامات ابن المعظم نجد أنها خدمت العلم والتصوف وذلك
لتأثير نزعتيه الصوفية التي نشأ عليها ، وقد نادي بالتفرد وعدم التزوج باعتبار أن
الأنبياء لم يتزوجوا ، وأن الله تعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولد ، والأجدر بالإنسان
الصوفي العالم أن يتخلق بأخلاق الخلاق .

وما ذهب إليه ابن المعظم هنا يناقض الفطرة السليمة فقد خلق الله سبحانه
وتعالى الإنسان وأودع فيه عدة ميول وغرائز كلها ضرورية لحفظ جنسه ونقاء نوعه
والإنسان بطبعه يميل إلى إشباع تلك الغرائز لأنها من أقوى الدوافع عنده واعقدها ،

^١ - ديوان ابن الوردي ص ١٦ .

^٢ - سورة الإسراء ، الآية ١ .

^٣ - صحيح البخاري ٣٩٨/١ في ٢٦ كتاب التطوع ١٤ باب فضل الصلاة في مسجد مكة
والمدينة حديث ١١٣٢ .

نظراً لتداخل عوامل اجتماعية وثقافية ونفسية ، خاصة ما يؤثر فى الشعور من اتصالات وعواطف وذكريات وخيالات فى ذهن الإنسان .

لذلك شرع الإسلام الزواج تلبية لإشباع تلك الغرائز فى الإنسان ليسير مع فطرته وميله إلى الجنس الآخر بكل تلائم وتجاوب دون أن تعترض عقبة أو ينزلق فى منحدر الحياة وحتى يكون هناك بقاء لنسله وامتداد لنوعه^١ .

ورسالات السماء نظمت العلاقة بين الذكر والأنثى فى الجنس البشرى وحددت لذلك مساراً سار عليه اتباع الأنبياء والمصلحون فى كل زمان ومكان ، وأنبياء الله كانوا قدوة للبشرية فى الزواج وإنجاب الأولاد ، قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)^٢ .

وجاء الإسلام الحنيف وهو خاتم الأديان السماوية وأعلن الحرب على الرهبانية ، وهى عبادة ابتدعها قوم من أتباع الرسل السابقين لم تكن معروفة عند أنبيائهم ، ولم يقرها أحد من المصلحين قال تعالى : (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)^٣ .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراقب أفراد المجتمع ويعالج النفوس المريضة حتى لا يتعثر إنسان فى خطاه ويضعف أمام المغريات وينزلق فى تيار الشهوات .

فالزواج رباط مقدس وعهد موثق بين الزوجين ليس أنياً ولا مرتبطاً بقضاء شهوة لنيل مصلحة عابرة ، فهو ليس صفقة تجارية بين شريكين فى المعيشة ، وليس وسيلة من وسائل الضرورة لإرضاء مطالب الجسد والاستراحة من غوايته الشيطانية

١ - منصور الرفاعى : تربية الناشئة فى ضوء السيرة ، دار الجيل ، بيروت ، مكتبة التراث الإسلامى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م ص ٩ .

٢ - سورة الرعد : الآية ٣٨ .

٣ - سورة الحديد : الآية ٢٧ .

كما تصورته المجتمعات والعقائد الأخرى وإنما الغرض من الزواج أسمى من ذلك ،
وتتمثل الحكم الجليلة من الزواج فى الإسلام فى الأمور التالية^١ :

١/ التنازل والمحافظة على النوع الإنسانى من الانقراض ، فالإسلام يهدف
من الزواج تحقيق أحد مقاصده الخمسة وهى : المحافظة على النسل وتكثير
المسلمين .

٢/ قضاء الحاجة الجنسية عند الزوجين بشكل مشروع .

٣/ تعاون الزوجين من خلال رابطة الزواج المقدسة على تربية النسل تربية
سليمة .

٤/ تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس من تبادل الحقوق والواجبات .

٥/ توفير الأمن الروحى والسكن النفسى لكل من الزوجين فى صاحبه ،
فبواسطته يحقق الألفة بينهما ويوجد الراحة وسط متاعب الحياة وشدائدها .
إن أهداف التربية فى الإسلام تتبع من أهداف الإسلام نفسه وهى إعداد الإنسان
الصالح ، فالإسلام لا يترك الناس حيارى يخطبون فى التيه ، كل منهم يرسم الصورة
على هواه وإنما يحدد لهم مواصفات هذا الإنسان فى دقة ووضوح ، ويرسم لهم
المنهج الذى يصلون به إلى تحقيق تلك الغاية .

ومن الملامح الدينية فى مقامات ابن المعظم الإكثار من الإستشهاد بالقرآن
الكريم والحديث النبوي الشريف ، ومن الشواهد على ذلك ، ما ورد فى المقامة
الججاجية حيث قال ابن المعظم :

(رمى بي السير والسرى إلى بلد أقسرى ، فدخلته وأنا ملطوم مظلوم ، مرحوم
محروم ، جائع صائع ، حائر بائر ، استعدي على ظلوم ملوم ، غشوم مشوم ،
فاستدلت إلى باب السلطان ، فأشاروا إلى فقيه فقير ، ضعيف حقير ، فاستبعدت
ذلك جداً ، ثم لم أجد من الاستكشاف بداً ، قلت وما الدليل على كونه سلطاناً ، قالوا

^١ - صورة الطفولة فى التربية الإسلامية : صالح ذياب الهندي ، دار الفكر للطباعة والنشر ،
الأردن ، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م ص ٣٦ .

بدليل الكتاب والسنة ، أما الكتاب فبقوله تعالى : [اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم] ^١ ، فقد جاء في تفسير هذه الآية : قال مجاهد ^٢ والضحاك ^٣ وقتادة ^٤ : أن المراد من أولي الأمر العلماء وهو عالم ريان ، مع أنه ظامئ طيان ، وله عزة عالية ، وإن كانت عليه بزة بالية ، أما السنة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاه الخلافة والسلطنة ، أما السلطنة فبقوله صلى الله عليه وسلم : [العالم سلطان الله في أرضه فمن وقع فيه فقد هلك] ^٥ وأما الخلافة ففي أحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم : [ألا أدلكم على خلفائي من بعدي ، قالوا ومن هم يا رسول الله قال : هم حملة القرآن والحديث لله وفي الله] ^٦ ، وقال عليه السلام : [اللهم أرحم خلفائي ، قالوا ومن هم يا رسول الله ، قال الذين يأتون من بعدي ويروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس] ^٧ ، وقال صلى الله عليه وسلم : [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله] ^٨ (...) ^٩ .

^١ - سورة النساء ، الآية ٥٩ .

^٢ - مجاهد بن جبر بفتح الجيم وسكون الموحدة أبو الحجاج المخزومي مولا هم المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم من كبار علماء الحديث في عصره مات سنة إحدى ومائة ، تقريب التهذيب : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ، دار الرشيد - سوريا ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ - ١٩٨٦ م ، تحقيق : محمد عوامة ص ٥٢٠ .

^٣ - الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني صدوق مفسر لكنه كثير الإرسال في الحديث ، مات بعد المائة ، تقريب التهذيب ص ٢٨٠ .

^٤ - قتادة بن دعامة بن قنادة السدوسي أبو الخطاب البصري من رواة الحديث الثقات يقال ولد أكمه وهو رأس الطبقة الرابعة من طبقات رواة الحديث ، مات سنة بضع عشرة ، تقريب التهذيب ص ٤٥٣ .

^٥ - سبق تخريجه .

^٦ - سبق تخريجه .

^٧ - المعجم الأوسط : أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، الناشر : دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥ هـ تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ٧٧/٦ حديث ٥٨٤٦ .

^٨ - سبق تخريجه .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في المقامة الخامسة وهي المقامة الطرماحية حيث قال ابن المعظم : (... اعلم أن كل ما ذكره لك مدح وليس بقدر ، وتركية وليس بجرح ، أما ما رماك به من الكفر ، فالكفر في اللغة إنما هو الستر ، يقال للبحر كافر وللليل كافر وللزارع كافر وللابس السلاح كافر لما في الكل من الستر فلعله عني به هذه الأشياء ، وأما ما رماك به من الإلحاد فالإلحاد في اللغة إنما هو الميل ومنه اللحد فكأنه مدحك بميلك إلى الحق ، وكذلك إن رماك بالتهود ، فالتهود التوبة ، ومنه قوله [إِنَّا هُذْنَا إِلَيْكَ]^٢ أو التتصر فإنه تفعل من النصر ، أو الرفض ، فالرفض هو الترك وإنك تارك للباطل قابل للحق ، أو رماك بالتشبه فإنك تشبه الجواد بالغمام ، والشجاع بالضرغام ، أو رماك بالإعتزال فالإعتزال البعد والترك ، ومن قوله عز وجل : [فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ]^٣ وقوله يا ظالم فالظالم الذي يشرب اللبن قبيل أن يروب ويخرج زبده ...)^٤ .

وقد حفلت مقامات القلقشندي أيضاً بهذا الإستشهاد من الكتاب العزيز ومن ذلك قوله : (... فلما سمعت منه ذلك وأعجبني من الوصف ما هنالك دنوت منه دنو الواجل وجلست بين يديه جلوس السائل وقلت هذه وأبيك صفات الملوك بل ملوك الصفات وأكرم الفضائل بل أفضل المكرمات ولم أك أظن أن للكتابة هذا الخطر الجسيم وللكتاب هذا الحظ العظيم فأعرض مغضبا ثم فوق بصره إلى معجبا وقال هيهات فاتك الحزم وأخطأك العزم إنها لمن أعظم الصنائع قدرا وأرفعها ذكرا نطق القرآن الكريم بفضلها وجاءت السنة الغراء بتقديم أهلها فقال تعالى جل ثناؤه وتباركت أسماؤه [اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم]^١ فأخبر تعالى أنه علم بالقلم حيث وصف نفسه بالكرم إشارة إلى أن تعليمها من جزيل نعمه وإيداناً بأن منحها من فائض ديمه وقال جلّت قدرته [ن والقلم وما يسطرون ما أنت

^١ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ١٢ .

^٢ - سورة الأعراف ، من الآية ١٥٦ .

^٣ - سورة مريم ، من الآية ٤٩ .

^٤ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ١٢ .

^١ - سورة العلق ، الآيات ٣ . ٥ .

بنعمة ربك بمجنون [١] فأقسم بالقلم وما سطرته الأقلام وأتى بذلك في أكد قسم فكان من أعظم الأقسام ، وقال تقدست عظمتة [وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين] ٢ فجعل الكتابة من وصف الكرام كما قد جاء فعلها عن جماعة من الأنبياء عليهم السلام وإنما منعها النبي معجزة قد بين تعالى سببها حيث ذكر إلحادهم بقوله [وقالوا أساطير الأولين اكتتبها] ٣ ، هذا وقد كان النبي في كثرة الكتاب راغبا فقد روي أنه كان له عليه أفضل الصلاة والسلام نيف وثلاثون كتابا هم نخبة أصحابه وخلاصة أترابه ومن ائتمنهم على أسرار الوحي والتنزيل وخاطب باللسنة أقلامهم ملوك الأرض فأجابوا بالإذعان على البعد والمدى الطويل وكتب الملوك أيضا إليه ابتداء وجوابا وكاتب أصحابه وكاتبوه فأحسن استماعا وأفحم خطابا وبذلك جرت سنة الخلفاء الراشدين فمن تلاهم وعلى نهجه مشيت ملوك الإسلام ومن ضاهاهم ...) ٤ .

وقال القلقشندي أيضا : (... قلت حسبك قد دلني عليه عرفه وأرشدني إليه وصفه وبان لي محتده الفاخر وحسبه الصميم وعرفت أصله الزاكي وفرعه الكريم) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

ثم عرجت إلى حماه وملت إلى حيه كي أراه فإذا به قد برز تتلألاً أنواره وتشرق بالجلالة أقماره قد علتة الهيبة وغشيتة السكينة وحفته الرياسة وجللته السعادة وحكمت بعز منال قدره الأقدار كما اقتضته الإرادة ، فلما رأيته استصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه وعلمت أن ما تقدم من المدح لم يوف حقه ولم يقم ببعض واجبه فغلبت هيئته إقدامي وحالت حرمة بيني وبين مرامي فقلت إنا لله قد فانتنتي مآربي ورجعت من فوري إلى صاحبي فأظهرت له الأسف وقصصت عليه القصة قال لا تخف ...) ١ .

١ - سورة القلم ، الآيتان ١ . ٢ .

٢ - سورة الإنفطار ، الآيتان ١٠ . ١١ .

٣ - سورة الفرقان ، الآية ٥ .

٤ - صبح الأعشى ١٢٩/١٤ .

١ - صبح الأعشى ١٤٢/١٤ .

ويقول ابن الوردي : (... فلأعملن على المقام بين يدي هذا الإمام الذي من فوت فوائده فكأنما وتر ولده وعقّ والده ، ولأستشفعن به إليه في الإقامة بين يديه ، ثم فرغت لي ذهنًا ، ونظمت قصيدة في هذا المعنى اغترفتها من بحره ، وأعدتها بستره ، من القدح في رمادها والعدول بها عن مرادها ...)^١

فابن الوردي يشبه فوات فرصة لقاء هذا الإمام بفوات الصلاة كما يشير إلى ذلك الحديث النبوي الشريف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله)^٢ .

ومعنى : [وتر أهله وماله] أي نُقص ، يقال : وَثَرْتُهُ إِذَا نَقَصْتَهُ . فكأنك جعلته وثرًا بعد أن كان كثيرًا ، وقيل : هو من الوثر : الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي . فشبه ما يلحق من فاتته صلاة العصر بمن قُتل حميمه أو سلب أهله وماله^٣ .

وأيضاً شبه ابن الوردي فوات فرصة لقاء هذا الإمام بعقوق الوالدين ، وقد أفاضت الأدلة الشرعية في تحريم عقوق الوالدين من ذلك : عن المغيرة بن شعبة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات وواد البنات ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)^٤ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) . قلنا بلى يا رسول الله قال (الإشرار بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال - ألا وقول

^١ - ديوان ابن الوردي ص ٣٣ .

^٢ - صحيح مسلم ٤٣٥/١ في ٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٣٥ باب التغليظ في تفويت صلاة العصر حديث ٦٢٦ .

^٣ - النهاية في غريب الحديث والأثر ٣١٩/٥ .

^٤ - المغيرة بن شعبة بن مسعود بن معتب الثقفي صحابي مشهور أسلم قبل الحديبية وولي إمرة البصرة ثم الكوفة مات سنة خمسين على الصحيح ، تقريب التهذيب ص ٥٤٣ .

^١ - صحيح البخاري ٨٤٨/٢ في ٤٨ كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس ١٩ باب ما ينهى عن إضاعة المال حديث ٢٢٧٧ .

الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت ^١ .

ويقول ابن الوردي في المقامة المنبجية : (... فأخلصت النية ، وقصدت المدرسة النورية ، فإذا مدرستها القاضي ، وقد استقبل أمر الدرس بفعل ماضي ، فاحتقرته لحدائثه سنه ، وعزمت على تخجيله بفن لعله غير فنه ، قال المتصدر قبل أوانه سقيه ، ورب فقيه لا أدب فيه ، فلما أتم درسه ، بسط إليّ أنسه ، وسألني عن حاجتي فقلت في لجاجتي : نحن عشرة ذووا نسب ، وألوا علم وأدب ...) ^٢

ففي هذا النص ملمح ديني يتمثل في قوله [فأخلصت النية] لأن إخلاص النية من الأمور المطلوبة شرعاً ، فالإخلاص هو القصد بالعبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده ، وقيل تصفية السرّ والقول ، وقيل : الإخلاص : تخليص القلب من كلّ شوب يكدّر صفاءه ، فكلّ ما يتصوّر أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص منه يسمّى خالصاً .

وقيل : الإخلاص عمل يعين على الإخلاص . وقيل الخلاص عن رؤية الأشخاص ، وقيل تصفية العمل من التهمة والخلل ^٣ .

وباعتبار أنّ الإخلاص التزام حيويّ أكثر ممّا هو تصوّر نظريّ ، فإنّ موقف الإخلاص يستلزم عدّة أمور ، وهي :

١- الاستمراريّة : حيث إنّ حياة الإنسان عبارة عن تواصل واستمرار ، ومواقف الحياة مستمرة ومتكاملة ، ولذا لا ينبغي أن يتفكّك الإخلاص أو يتبعثر ، لأنّه لا يتعلّق بالموقف المعاصر فقط ، ولا بالماضي فقط ، ولا بالمستقبل فقط ، وإنّما هو موقف مستمرّ ، ومن ثمّ كانت الاستمراريّة صفة أساسيّة في الإخلاص .

٢- التّكامل : بمعنى انضواء الشّخص بجميع مكوّناته في أهداف وجوده المستمدّة من الإطار الإسلاميّ للحياة ، حتّى يتمكّن من بلوغ أكمل درجة ممكنة من

^١ - صحيح البخاري ٢٢٢٩/٥ في ٨١ كتاب الأدب ٦ باب عقوب الوالدين من الكبائر حديث ٥٦٣١ .

^٢ - ديوان ابن الوردي ص ٢٩ .

^٣ - التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٤٢ .

صياغة الذات بطريقة متكاملة، وذلك عبر محبة قوية لله وللحق والحقيقة، ولآخرين المخلصين، هذا إلى جانب التكامل بين النية والفعل.

٣- العلم : حيث إنّ الإخلاص يستلزم وعي الإنسان بوجوده في إطار التعاليم الإسلامية، وهذا الوعي لا يمكن أن يتم بغير معرفة، لأنّه لا يمكن أن يتأتّى عن جهل، وجعل الإنسان لا يمكن أن يؤدي إلى إخلاص حقيقي، ومن ثمّ كان العلم شرطاً ضرورياً لتحقيق الإخلاص، هذا إلى جانب ضرورة العلم بما يحقق الإخلاص .

٤- التدرّج : باعتبار أنّ الإخلاص جهد بشريّ من أجل الوصول إلى كمال الإنسان بوصوله إلى حقيقة العبوديّة والتحقّق بها ، ولذا فإنّ الإنسان يتعثّر وينهض مرارا وتكرارا، بهدف بلوغ المرتبة العالية ، إنّ التجربة صعبة في مواقف حياة الإنسان ولذا فهو يحتاج إلى التدرّج ، وهذا شرط لكمال الإخلاص.

٥- الأمانة : باعتبارها رعاية لحقّ الله تعالى ، وأداء للفرائض والواجبات وهذا يتطلّب عدم الخيانة وحفظ الحقوق ، وهي خير شاهد خارجيّ على الإخلاص^١ .

^١ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد ، الناشر : دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة الطبعة : الرابعة ١٢٤/٢.

المبحث الثالث

الموضوعات السلوكية والأخلاقية

السُّلُوكُ مصدر سَلَكَ طريقاً وسَلَكَ المكانَ يَسْلُكُهُ سَلْكَاً وسُلُوكاً وسَلَكُهُ غَيْرُهُ وفيه وأسْلَكه إِيَّاه وفيه وعليه^١ .

والسالك من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح وهو فاعل من السلوك ، والمراد سلوك سبيل الرشاد الموصل إلى الله تعالى^٢ .

وعلم السلوك : هو معرفة النفس ما لها وما عليها من الوجدانيات ويسمى : بعلم الأخلاق ويعلم التصوف أيضاً وفي مجمع السلوك وأشرف العلوم علم الحقائق والمنازل والأحوال وعلم المعاملة والإخلاص في الطاعات والتوجه إلى الله تعالى من جميع الجهات^٣ .

وموضوعه : أخلاق النفس إذ يبحث فيه عن عوارضها الذاتية مثلاً حب الدنيا في قولهم : حب الدنيا رأس كل خطيئة خلق من أخلاق النفس حكم عليه بكونه رأس الخطايا ورأس الأخلاق الرذيلة التي تضرر بسببها النفس وكذا الحال في قولهم : بغض الدنيا رأس الحسنات وغرضه التقرب والوصول إلى الله تعالى^٤ .

تعريف الأخلاق :

الأخلاق جمع خُلُق بضم اللام وسكونها : الدِّين والطبع والسَّجِيَّة ، وحقيقته - كما يقول ابن منظور : (أنه لصورة الإنسان الباطنة ، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة)^٥ .

^١ - لسان العرب ١٠/٤٤٢ .

^٢ - صبح الأعشى ٢/٣٩٧ .

^٣ - أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم : صديق بن حسن القنوجي ، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٩٧٨م ، تحقيق : عبد الجبار زكار ٢/٣٢٨ .

^٤ - المصدر السابق ٢/٣٢٨ .

^٥ - لسان العرب ٢/١٢٤٥ .

ويقول الإمام الغزالي : (الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية)^١ .
ومن هنا نعلم أن الإنسان إنما يمدح على الأخلاق النابعة من نفس طيبة وإرادة خالصة ، أما الأفعال التي تصدر عن تكلف فلا خير فيها .
وهناك علاقة وثيقة بين علم التربية وعلم الأخلاق وقد يستعمل أحدهما بمعنى الآخر^٢ .

حسن الخلق له مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة في دين الإسلام قال ابن القيم : (الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين)^٣ .
وقد وردت الكثيرة من النصوص في الكتاب والسنة مبينة فضل حسن الخلق ،
مرغبة في مكارم الأخلاق ، مثنية على المتحليين بمحاسن الآداب ، زاجرة عن
الاتصاف بمساوئها ، يقول الله تعالى مثنياً على خير خلقه وخاتم رسله :
(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)^٤ .

وهناك آيات كثيرة تدعو إلى التحلي بمكارم الأخلاق ، فمن ذلك قوله تعالى :
(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)^٥ ، وقد روي عن جعفر ، الصادق
أنه قال : (ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها)^٦ .

^١ - إحياء علوم الدين : محمد بن محمد أبو حامد الغزالي ، دار المعرفة - بيروت ٥٣/٣ .

^٢ - الأخلاق الإسلامية وأسسها : عبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار الفكر بيروت ص ٢٧ .

^٣ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ،
دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣ م ، تحقيق : محمد حامد الفقي
٣٢٠/٢ .

^٤ - سورة القلم ، الآية ٤ .

^٥ - سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

^٦ - فتح الباري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق محب الدين الخطيب دار
المعرفة بيروت ٣٨٨/٨ .

ومن ذلك قوله تعالى : (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)^١ ، وقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)^٢ .

وقوله تعالى : (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)^٣ ، والآيات في هذه المعنى كثيرة .

كما جاءت السنة مبينة الأجر العظيم لمن اتصف بمكارم الأخلاق، ومما ورد في ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : (البر حسن الخلق)^٤ .

فانظر كيف جعل البر الذي هو كلمة جامعة لأفعال الخير وخصال المعروف هو حسن الخلق .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء)^٥ .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : (تقوى الله وحسن الخلق)^٦ .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)^٧ .

كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المتصفين بمكارم الأخلاق هم أحب الناس إليه وأقربهم إليه مجلساً يوم القيامة فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن

^١ - سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

^٢ - سورة الحجرات ، الآية ١٠ .

^٣ - سورة النساء ، الآية ١١٤ .

^٤ - صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ١٩٨٠/٤ حديث ٢٥٥٣ .

^٥ - سنن أبي داود ٢٥٣/٤ حديث ٤٧٩٩ .

^٦ - سنن الترمذي ٣١٩/٤ حديث ٢٠٠٤ .

^٧ - مسند أحمد بن حنبل ٩٠/٦ .

النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً)^١.

ومما يؤكد أهمية حسن الخلق وعظم منزلته في هذا الدين الحنيف قوله صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً وخياركم خيارهم لنسائهم خلقاً)^٢.

هذا والأخلاق الحسنة المحمودة التي دعا إليها الإسلام ورغب فيها وحث على التخلق بها كثيرة، ومن العلماء من أرجعها إلى أصول أربعة، وهي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدل ، وذهب بعض المعاصرين إلى أن أصول الأخلاق الحميدة تسعة فذكرها وذكر تحت كل أصل فروعه^٣.

وعلى كل حال فإن كل خلق محمود يتفرع منه أخلاق، وبعض الأخلاق داخل في بعض.

الإيمان أساس الأخلاق :

كان العرب أهل شرك بالله تعالى فأوجد النبي صلى الله عليه وسلم أعظم الأخلاق التي كان يفتقدها ذلك المجتمع ، وهو الإيمان ، فإن الإيمان هو أساس الأخلاق ، وقد بين للعرب أن الكرم وغيره من الأخلاق التي بها يفاخرون، ما هي إلا بناء لا أساس له مع انتفاء الإيمان ، وأن من أتى بالإيمان الصادق أولى بالأخلاق ممن أطمع الجائع أو كسى العريان وقلبه غارق في الشرك ورجسه ، قال الله تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)^٤.

وكما أن الأخلاق الحسنة التي تواطأت الفطر السليمة على قبولها تظل ناقصة مشوهة هشة البناء إذا فقدت خُلق الإيمان فإنها كذلك لا تنفع صاحبها في

^١ - سنن الترمذي ٣٢٥/٤ حديث ٢٠١٨ .

^٢ - مسند أحمد بن حنبل ٢٥٠/٢

^٣ - الأخلاق الإسلامية وأسسها ص ٤٧١ .

^٤ - سورة التوبة ، الآية ١٩ .

الآخرة، ولا يُثاب عليها فعن عائشة رضي الله عنها^١ قالت : (قلتُ : يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعُهُ ؟ قال : لا ينفعه إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)^٢ .

وقد أوضح النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الأخلاق تتناسب طردياً مع الإيمان؛ فكلما زاد معدل الإيمان في القلب سمت الأخلاق ، والعكس بالعكس . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)^٣ .

وقال عليه الصلاة والسلام : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)^٤ .

وبالمقابل: كان الربط بين الكفر وسوء الخلق؛ فقد أخبر الله تعالى عن الكافرين وهم في النار فقال : (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمِ الدِّينِ)^٥ وقال الله تعالى مخبراً عنهم كذلك : (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينَ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ)^٦ .

^١ - عائشة بنت أبي بكر الصديق ولدت بعد المبعث بأربع سنوات تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، وكانت أفقه الناس وتوفيت سنة ٥٧ هـ ، الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني ، حققه محمد البجاوي ، دار النهضة للطبع والنشر القاهرة ، ١٦/٨ .

^٢ - صحيح مسلم ١/١٩٦ في ١ كتاب الإيمان ٩٢ باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل حديث ٢١٤ .

^٣ - سنن أبي داود ٢/٦٣٢ في ٣٤ كتاب ١٦ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه حديث ٤٦٨٢ .

^٤ - صحيح البخاري ١/١٤ في ٢ كتاب الإيكام ٦ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حديث ١٣ .

^٥ - سورة المدثر ، الآيات ٤٢-٤٦ .

^٦ - سورة الحاقة ، الآيات ٣٣-٣٥ .

وقال الله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ)^١ .

فغياب الأخلاق عند الكافرين كان تبعاً لغياب الإيمان عن قلوبهم، كما يتضح جلياً من الآيات السابقة .

ومن الأخلاق الإسلامية المحمودة ما يلي :

الصبر والحلم والرفق، والكرم والحياء والتواضع، والشجاعة والعدل والإحسان وقضاء الحوائج وغيض البصر وكف الأذى، والأمانة والصدق والرحمة والوفاء، وطلاقة الوجه وطيب الكلام، وحسن الاستماع وحسن الظن وتوقير الكبير وإجابة الدعوة والإصلاح بين الناس، وعلو الهمة والإيثار والهدية وقبولها، وجبر الخواطر ومراعاة المشاعر وغيرها. وليس من أهداف هذا البحث المختصر الحديث عنها بالتفصيل، وقد كتب فيها كثيرون من المتقدمين والمتأخرين.

دور الأدب في توجيه السلوك والأخلاق :

يقول الإمام الماوردي عن أدب النفس : (اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة ، وأخلاق مرسلّة ، لا يستغني محمودةا عن التأديب ، ولا يكتفي بالمرضي منها عن التهذيب ؛ لأن لمحمودةا أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبية ، فإن أغفل تأديبها تفويضا إلى العقل أو توكلأ على أن تتقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين ، وأعقبه التوكل ندم الخائبيين ، فصار من الأدب عاطلا ، وفي صورة الجهل داخلا ؛ لأن الأدب مكتسب بالتجربة ، أو مستحسن بالعادة ، ولكل قوم مواضعة ، وذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ، ويستفاد بالدربة والمعاطاة ، ثم يكون العقل عليه قيما وزكي الطبع إليه مسلما ، ولو كان العقل مغنيا عن الأدب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين ، وبمعقولهم مكتفين)^٢ .

^١ - سورة الماعون ، الآيات ١-٣ .

^٢ - أدب الدنيا والدين ص ٢٨٤ .

وقال ابن المقفع^١ : (ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا ، فإن الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء الذي يعود إليها من مستودعها)^٢ .

وقال أسامة بن منقذ^٣ : (الأدب سند للفقراء ، وزين للأغنياء ، و الناس في الأدب متفاوتون ، وهم على ثلاث طبقات : أهل الدنيا ، وأهل الدين ، وأهل الخصوصية من أهل الدين ، فأما أهل الدنيا فإن أكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب ، ومعرفة الصنائع ، وأما أهل الدين فإن أكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وطهارة الأسرار وحفظ الحدود وترك الشهوات واجتناب الشبهات وتجريد الطاعات والمصارعة إلى الخيرات ، وأما أهل الخصوصية فإن أكثر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعقود بعد العهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوادي والطوارق ، واستواء السر مع الإعلان وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور والقرية والدنو والوصلة ومقامات القرب)^٤ .

ويقول ابن رشيق القيرواني^٥ : (... وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ،

^١ - عبد الله بن المقفع: من أئمة الكتاب، وأول من عني في الاسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس ، ترجم عن الفارسية كتاب " كلیلة ودمنة " وهو أشهر كتبه ، وأنشأ رسائل غاية في الابداع، منها : الادب الصغير ، الأعلام للزركلي ١٤٠/٤ .

^٢ - أدب الدنيا والدين ص ٢٨٥ .

^٣ - أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، أبو المظفر، مؤيد الدولة (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ) : أمير، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (بقرب حماة) ، وهو من العلماء الشجعان ، له تصانيف في الادب والتاريخ ، منها : لباب الآداب و البديع في نقد الشعر ، الأعلام للزركلي ٢٩١/١ .

^٤ - لباب الآداب : أسامة بن منقذ ص ٦٩ .

^٥ - الحسن بن رشيق القيرواني، أبو علي: أديب، نقاد، باحث ، كان أبوه من موالى الازد ، ولد في المسيلة (بالمغرب) وتعلم الصياغة، ثم مال إلى الادب وقال الشعر، فرحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ ومدح ملكها، واشتهر فيها ، وحدثت فتنة فانقل إلى جزيرة صقلية، وأقام بمازر إحدى

وفرسانها الأمجاد، وسمحاتها الأجواد؛ لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبنائها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا ..)^١ .

الموضوعات السلوكية والأخلاقية في مقامات القرنين السابع والثامن الهجريين :
أخذت الموضوعات السلوكية والأخلاقية في مقامات القرنين السابع والثامن الهجريين مكانها مع غيرها من الموضوعات السياسية والاجتماعية والدينية ، وقد ظهرت هذه الموضوعات في الغالب في شكل وصايا ونصائح ودعوات وأمنيات من راوي المقامة .

يقول القلقشندي في مقامته : (حكى الناثر ابن نظام قال لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل مشمرا عن ساق الجد ذيل الاجتهاد مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد أنتهز فرصة الشباب قبل توليها وأغتتم حالة الصحة قبل تجافيتها ...)^٢ .

ففي هذه المقامة يوجه القلقشندي نظر الشباب إلى ضرورة اغتنام فترة الشباب في طلب العلم وتحصيله ، مستشهداً بنفسه في هذا المقام .

وفي المقامة القعقاعية لابن المعظم إشارة إلى بعض السلوك الأخلاقية ، فقد بدأت المقامة بمناظرة بين رجلين أحدهما طويل والآخر قصير ، يقول ابن المعظم بلسان الراوي المسمى القعقاع بن زنباع : (حضرت دار الكتب بمدينة السلام ، فرأيت بها رجلين يناظران ، ويماريان ، وفي مضمار الكلام يجاريان ، وبياريان ، أحدهما طويل القامة ، عظيم الهامة ، والآخر قصي القد ، أسيل الخد ، فتأملت

مدنها، إلى أن توفي سنة ٤٦٣هـ ، من كتبه : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، الأعلام للزركلي ١٩١/٢ .

^١ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه : الحسن بن رشيق القيرواني ، دار الكتب العلمية بيروت ص ٧ .

^٢ - صبح الأعشى ١٢٧/١٤ .

حالهما ، وسمعت مقالهما ، فإذا الطويل قاصر ، والقصير غير مقصر ، إلا أن
الطويل كان يتناول على القصير لطوله ، ويعارض فضله بفضوله ...)^١ .

ثم يمضي ابن المعظم في وصف الأخلاق التي اتصف كل واحد من هذين
الرجلين فقال الطويل مفتخراً بصفاته : (أليس يمدح الطويل بطول النجاد ، وطول
العماد ، كما يمدح السخي بوري الزناد ، وكثرة الرماد ، لأيس الطويل ذو الجهارة
والبهاء ، والقصير في الحقارة كالهباء ، وقصر القامة من لوازم الدمامة ...)^٢ .

فقال القصير معرضاً بالطويل ذاكراً صفاته السيئة وأخلاقه الذميمة : (يا
خيطة الباطل والرسم العاطل ، أنت أقل نفعاً من لات ومناة ، وإن كنت أطول من
ظل القناة ، أليس يوصف ليل الفراق بالطول ؟ كما يوصف يوم الوصال بالقصر ،
والطول يلزم الهوج والخرق ، والعرج والحمق ، كما أن القصر يقارن الكيس والدهاء
، والحقق والذكاء ...)^٣ .

فقله [طويل النجاد] ، النجاد : حمائل السيف ، تريد بطول نجاده طول
قامته ، وهذا مما يمدح به الشريف ، وفي النص السابق يشير الكاتب إلى الجدلية
الأزلية بين المتناقضين فبينما يفتخر الطويل بطول قامته ويزهو بنفسه ، يرى القصير
أن في الطول نوعاً من الخرق والحمق .

وفي المقامة المشهدة^٤ يسر ابن الوردي طائفة من الأخلاق والسلوك التي
اتصف بها أهل عصره فيقول على لسان الراوي : (... فقلت أيها الأمير الجليل ،
هل أبدى لهذا التحريم دليل ، فقال : لقد ذكر لذلك أدلة ، تدع أعزة حاضريها أدلة ،
منها شد رحالهم إلى غير المساجد الثلاثة^٥ ، ومشاركتهم أهل الكتاب في الأعياد

١ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٤ .

٢ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٥ .

٣ - المصدر السابق ص ٦ .

٤ - ديوان ابن الوردي ص ٣٥ .

٥ - إشارة إلى حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

والخبائث ، وتشبههم بالمجوس في إضرار النار ، وإضاعة المال المنهي عنها في الأخبار^١ ، واختلاط النساء بالرجال ، وركوب الأخطار والأوجال ، ولهوهم عن العبادة والجماعات ، وإقبالهم على اللعب والسماعات ، ومحاكاتهم الجاهلية في أسواقها ، وإحداث أحداث العشيرة في الشريعة ، ما ليس من قياسها ولا سياقها ، وزيادة عيد ما وردت به الرسالة ، وإرتكابهم أمرّ أمر مبتدع وكل بدعة ضلالة ، ويغني عن هذا كله خير فرد [كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد]^٢ ، هذا مع ما أحاط به علم الناهي ، من دلائل لا حصر لها ولا تناهي ، مما يقصر عن بعضه أشباهي ، فارجع أيها المسكين إلى بلدك ، وأحرص على تقويم أودك^٣ ، واستغفر لذنبك ، وتب إلى ربك من هذه البدعة من استحلها من الأنعام خيف عليه الردة من الإسلام ...)^٤ .

ففي هذه المقامة يبين الشاعر ابن الوردي أخلاق وسلوك أهل عصره وما تردى إليه حالهم وسوء مآلهم ، ولا يخفى لنا الأثر الديني الظاهر في المقامة ويتمثل ذلك في الإستشهاد بالحديث النبوي المشهور [كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد] ، والإشارة قبل ذلك إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه [لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ...] .

ومسجد الأقصى) ، صحيح البخاري ٣٩٨/١ في ٢٦ كتاب التطوع ١٤ باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة حديث ١١٣٢ .

^١ - إشارة إلى حديث عن المغيرة بن شعبة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات . وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال) ، صحيح البخاري ٨٤٨/٢ في ٤٨ كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس ١٩ باب ما ينهى عن إضاعة المال حديث ٢٢٧٧ .

^٢ - صحيح البخاري ٩٥٩/٢ في ٥٧ كتاب الصلح ٥ باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود حديث ٢٥٥٠ عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد) .

^٣ - الأود : العوج ، لسان العرب ٧٤/٣ .

^٤ - ديوان ابن الوردي ص ٣٦ .

ثم انظر إليه كيف أطل في بيان دلائل تحريم السفر والإرتحال لقصد تلك المشاهد لما يكون عندها من الشرك ، وقصد غير الله تعالى والتوجه إليه ودعائه وطلب الحوائج منه ، ولذا قال في هذه البدعة : [من استحلها من الأنام خيف عليه الردة من الإسلام] ومع ذلك يبقى الأثر الأخلاقي والسلوكي هو الأمر الظاهر والهدف المعلن لهذه المقامة التي ابتدعها ابن الوردي بلسان الراوي المشار إليه بأنه [إنسان من معرة النعمان] وفيها ذكر الترويح عن النفس بالسفر والخروج إلى مشاهدة أرض الله الواسعة وخيراتها الفسيحة ، يقول الراوي :

(لما آنست النفس شهرة شهر نيسان الذي هو لمنطق الطير فصل ، ولعين كل حيوان إنسان ، وقد جللت البسيطة من السندس بسطاً ، وكللت الأغصان من زهر الزهر سمطاً ، ورضيت الرياض عن سحب أذيال السحاب عليها ، ونظرت العيون بنظرها إليها ، حنت النفوس إلى معاودة العوائد ، وحثت على مشاهدة المشاهد^١ ، وارتقب فرح المفرح ومألفها ، ولوت عنقها عن عنقها ، وطلبت مركزها من دائرة الديور ، ورأت تقاعدها عن مقاعدها بتلك القصور من القصور^٢ ، فغلبت النفس اللوامة^٣ ، ولبست للسفر لامة ، وحصلت على المسرة ورجعت ، وشرعت في الرحلة وأسرعت ...)^٤ .

وهذا النص يتحدث فيه الكاتب عن ضرورة السفر والسياحة في أرض الله الواسعة للترويح عن النفس وقد ورد في بعض الأحاديث النبوية الحديث عن النهي عن السياحة ، فعن أبي أمامة رضي الله عنه : أن رجلاً قال يارسول الله إنذن لي في السياحة قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل)^٥ .

^١ - يقصد بهذه المشاهد قبور الأولياء وأضرحتهم ، انظر : ديوان ابن الوردي ص ٣٤ .

^٢ - بين القصور والقصور جناس تام ، الأولى : بمعنى المباني العظيمة ، والثانية : من قصر في الأمر قصورا ، انظر : ديوان ابن الوردي ص ٣٤ .

^٣ - إشارة إلى قوله تعالى : (وَلَا أُفْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) ، سورة القيامة ، الآية ٢ .

^٤ - ديوان ابن الوردي ص ٣٥ .

^٥ - سنن أبي داود ٧/٢ حديث ٢٤٨٦ .

ولكن بصورة عامة حث الإسلام على السياحة في الأرض ، وذلك من أجل التأمل في صنع الخالق العليم الحكيم ، فيزداد الإنسان إيماناً مع إيمانه ، ويقينا مع يقينه ، قال تعالى : {سُتْرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }^١ .

وأكبر مكان سياحي في الأرض يجعل الناس يعودون إلى الله ، ويشعرون بعظمته هو الذهاب للبيت العتيق حجا أو عمرة ، ذلك المكان الذي يعتبر أول مكان بني فيه بيت لعبادة الله تعالى وتوحيده في الأرض ، قال تعالى : {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ }^٢ .

ومن حكمة الله تعالى أن جعل ذلك المكان خالياً من المرغبات الدنيوية ، فليس فيه شلالات ، ولا أشجار وارفات ، ولا أنهار متدفقات ، ولا مناظر جميلات ، كما قال تعالى : {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }^٣ .

ومن ثم فإن الذي يذهب لزيارة البيت العتيق ليس له مطمع دنيوي إلا مغفرة الذنوب ، والتقرب إلى الله تعالى ، ولو ذهبنا إلى هناك لرأينا عظمة هذا الدين حقاً . وفي مقامة الشاب الظريف إشارة إلى بعض أخلاق وسلوك المحبين [بحسب غرض المقامة التي أفرد لها صاحبها لموضوع واحد هو الغزل] ، يقول الراوي وهو الشاعر نفسه :

(... فالذي خلع من الجمال ملابس ، وأذل لها نفوساً من العشاق ونفائس وجمع بين صبح غرته ، وليل طرته ، وأمال تمايل الخطار بخطرته ، وأطلق الدمع فيه بأسره ، وجعل القلوب مقيدة بأسره ، ما تعرضت له إلا وأعرض ، ولا رمت قربه إلا وصرح وعرض ، ، ولا طلبت منه الوصال إلا نفر عجباً وصال ، ولا بذلت له

^١ - سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

^٢ - سورة آل عمران ، الآية ٩٦ .

^٣ - سورة إبراهيم ، الآية ٣٧ .

المال ، إلا تنثنى دللاً ومال ، ولا عتبتة فاعتب ، ولا دانيته إلا تجنى وتجنب ، إلى أن أشعل القلب بنار فاشتغل به الطرف والفؤاد ، وأصبح مسكنه منه السويدا والسواد ...^١ .

فقد أبدع الشاب الظريف في وصف صفات المحبوب وهي الصفات المذكورة عن نقاد الأدب بصورة عامة ، فنحن نرى هنا أن الأديب ذكر من صفات المحبوب الآتي :

. الإعراض من لقاء المحب [ما تعرضت له إلا وأعرض] .

. النفور عن الوصال [ولا طلبت منه الوصال إلا نفر عجباً وصال] .

. الدلال والتنثني [ولا بذلت له المال ، إلا تنثنى دللاً ومال] .

. عدم تأثير العتاب فيه [ولا عتبتة فاعتب] .

. التجافي عن المحبوب وتجنب لقائه [ولا دانيته إلا تجنى وتجنب] .

وهذه الصفات التي ذكرها الشاب الظريف مما اجمع عليه النقاد الذين بينوا حال المحبين ومنها : شدة الغرام والوجد ، الإعراض والصد والهجر ، الشوق والنزاع ، ذكر الوداع ، المسرة عند الإياب ، الطيف والخيال ، الرقة والنحول ، البكاء والهمول ، إحماد المواصللة ولذة العناق ، شكوى البين والفراق واحتمالهما ، الأرق والسهاد ، تعاطي الصبر والتجلد ، العذول والوشاة والرقيب^٢ .

^١ - ديوان التلعفري ص ٥٥ .

^٢ - التذكرة الحمدونية : ابن حمدون ، دار صادر بيروت ، تحقيق 'حسان عباس ١٩٩٦م . ١٦٤/٢ .

الفصل الرابع

الأسلوب الفني في مقامات القرنين السابع والثامن الهجريين

المبحث الأول : اللغة والأسلوب

المبحث الثاني : تركيبات الجمل

المبحث الثالث : التصوير البياني والبديعي

المبحث الأول اللغة والأسلوب

اللغة هي أداة التعبير والتفاهم الإنساني ، وهي ضرورة من ضرورات المجتمع البشرى ، بل هي من أهم الضرورات على الإطلاق ، فلولاها لما وصلت الحال بهذه الجماعات المجتمعات البشرية إلى درجات الرقى والتقدم الحضاري ولولاها لما ساد التفاهم وبنيت الكيانات وقامت أواصر الوحدة الاجتماعية بين الجنس البشرى ، وأي لغة وليدة تطور تاريخي ، ومن ثم فإنّ اللغة العربية واحدة من بين اللغات التي تطورت بها المجتمعات وساد بها الرقى الحضاري^١ .

اللغة والأسلوب عند كتّاب المقامات :

تشكل اللغة مظهراً هاماً من مظاهر الحياة اليومية، وعنصراً بارزاً في حياة الأفراد، فبالإضافة لكونها وسيلة التعبير والتخاطب فهي تدخل في كافة فروع المعرفة والعلوم ويمكن النظر إليها على أنها نبض الحضارة البشرية لأنها الوسيلة الوحيدة التي تتواصل من خلالها الأجيال وتنتقل عبرها الخبرات والمعارف والمنجزات الحضارية من جيل لآخر .

أن اللغة البشرية تختلف اختلافاً كلياً عن تلك الوسائل التي تستخدمها تلك الحيوانات، فالحل يستخدم بعض الإشارات اللغوية، وهو ما يسمى الرقصات الاهتزازية أو الدائرية وذلك لتوصيل معلومات عن وجود مصدر الرحيق من حيث الاتجاه، كما أن بعض القروء تستخدم بعض الإشارات اللغوية للتنبيه عن مصادر الخطر ، وبالرغم من أن هذه الإشارات تحتل بعض الدلالات التي تتواصل من خلالها إلا أنها بحد ذاتها لا تشكل نظاماً لغوياً متكاملًا .

^١ - فقه اللغة العربية وخصائصها : أميل يعقوب ، الطبعة الأولى مايو ١٩٨٢م دار العلم للملايين - بيروت ص ١٠٨ .

مظاهر اللغة ووظائفها :

تأخذ أي لغة مظاهر متعددة فهي لا تقتصر على الرموز الصوتية المنطوقة فحسب بل تتعدى ذلك لتشمل وسائل أخرى غير منطوقة.

١/ المظهر اللفظي : ويشمل لغة الحديث المتمثل بالكلام المنطوق والمكتوب، ومن خلاله يتم التعبير عن الخبرات والمعارف والحاجات والمشاعر وهو وسيلة من وسائل التفكير والتخيل والتذكر وبالرغم من أهمية لغة الكتابة وتفردتها بميزتين هما : إمكانية انتقالها من مكان إلى آخر عبر مسافات طويلة، وأنها ثابتة لا تتعرض للتغيير الذي يحدث على الكلام المنطوق .

٢/ المظهر غير اللفظي : ويشتمل على الوسائل التي نستخدمها في التواصل مع الآخرين دون استخدام الرموز الصوتية المنطوقة أو المكتوبة وتشمل الإشارات والإيماءات والحركات الجسدية والتعبيرية والجمالية، ومثل هذه الوسائل ثقافية تختلف من مجتمع إلى آخر .

وتخدم اللغة العديد من الوظائف التي يصعب تنفيذها أو الإدلاء بها بدون وجود اللغة، يؤكد معظم علماء اللغة الوظيفية التعبيرية للغة في حين يرى جاكسون أن اللغة تؤدي أربع وظائف رئيسية تتمثل في : الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية، والوظيفة الندائية، والوظيفة المرجعية، والوظيفة التواصلية^١ .

أما كلين فيرى أن اللغة تخدم ثلاثة أدوار هي^٢ :

. التواصل والتفاعل مع الآخرين .

. تسهيل عمليات التفكير .

. تسهيل عمليات استدعاء معلومات خارج نطاق مخزون الذاكرة .

^١ - دراسات في فقه اللغة : صبحي الصالح . ط/دار العلم للملايين بيروت - الطبعة العاشرة

١٩٨٣م ص ٤٨ .

^٢ - فقه اللغة : إبراهيم السامرائي ، دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٨٣م ص

٣٢ .

وتشكل المقامات ببنيتها النصية وقدرتها السردية رائعة أدبية من روائع النص النثري العربي القديم ، إلى جانب المتعة التي تتميز بها والدهشة التي تولدها لدى المتلقي لهذا النوع من النصوص .

إن تلك الصفات وغيرها من باقي الصفات النقدية الأخرى، جعلت من المقامة مجالا للاهتمام من قبل دراسات وأبحاث نقدية متباينة ومتعارضة في ذات الوقت من حيث النتائج ، وهو ما شكل في النقد العربي الحديث تاريخا تأويليا غنيا يتطلب الكثير من التأملات والوقفات .

على الرغم من وجود دراسات وأبحاث نقدية كثيرة قامت بمقاربة وتناول المقامة بمناهج مختلفة ومتنوعة انتهت إلى نتائج عديدة "يظل هذا النص ملتبسا وغير واضح المعالم نوعياً ، مما يزيد في تعقيد المهمة هو أن المقامة مندرجة في دائرة التعدد والمزيج^١ .

يقول عبد الفتاح كيليطو : (المقامات تدخل ضمن الخطاب المروي بنسبة خيالية)^٢ .

إن التشكيل النصي للمقامة في ضوء على هذه المقولة النقدية المشار إليها يقوم حسب نظرنا على مرتكزين :
. المقامة خطاب مروي .
. خطاب خيالي .

إذا كان الخطاب كما تعرفه بعض الدراسات اللسانية هو تلفظ يتطلب متكلما وملقيا من مهامه التأثير على المتلقي بمعنى من المعاني، فإن المقامة عند عبد الفتاح كيليطو تستحضر بشكل أساسي مكون المروي الذي يحيل ضمنا إلى ما هو شفاهي، الشيء الذي يحدد النسق الثقافي العام الذي تشكل في سياقه جنس المقامة. بمعنى آخر لا يمكن الحديث عن مقامة من خارج الرواية وسؤال الخيال الذي يطبع

^١ - المقامات ، السرد والأنساق الثقافية : عبد الفتاح كيليطو، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي دار توبقال ، ص ٦ .

^٢ - الأدب والغربة ، دراسات بنيوية في الأدب العربي : عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال ، ص٧.

ويغني عناصر الشخصية المكونة لنص المقامة، وهي شخصية مرجعية ضرورية في البناء النصي لخطاب المقامة، وتستمد شرعيتها من الواقع المادي، غير أن توظيفها يعتمد على الخيال عبر ما يسنده الراوي لهاته الشخصيات من وظائف .

إن القارئ لكتاب الأدب والغربة، يلاحظ أن هذين المرتكزين لا يشكلان أساسا للتجنيس عند عبد الفتاح كيليطو بقدر ما يعتبران مدخلا لإبراز خصائص أخرى يستنبطها من خلال تفاعلاته وقراءاته لمقامات الهذاني والحريري.

وهكذا ، فخصائص النوع كما نجدها عند هذين المؤلفين يمكن تلخيصها في النقاط التالية^١ :

- . السند / يقتضي وجود أكثر من المتكلم الواحد .
- . السفر / باعتباره فضاء له دلالة ثقافية تاريخية .
- . النمط / يقصد به عيسى بن هشام والإسكندري كنمطين متناقضين .
- . الحكاية / تتأسس على لعبة الخفاء والتجلي .
- الأسلوب الرفيع / يقصد به الأسلوب المنفتح على جنسي الشعر والنثر وعلى أنواع أدبية أخرى إضافة إلى بلاغة المحسنات البديعية .
- إن الإشكال الذي يطرحه سؤال تجنيس المقامة عند عبد الفتاح كيليطو كما يلاحظ ذلك القارئ هو أن هذه الخصائص تكاد لا تنطبق على باقي المقامات، مقامة الزمخشري نموذجا . الشيء الذي يعني أساسا أن المقامة فن أدبي متمنع وعصي على المستوى النوعي .

هكذا نفهم أن المقامة وهي تتمتع أمام سؤال التجنيس، تتميز بخصوصية وافرة على مستوى أشكالها وأنواعها أغراضها .

ويبدو في الظاهر أن المقامة . بحكم أنها تعتمد على عنصر الرواية . هي حكاية، فإن ما يجعل أفق تجنيسها إشكاليا، أنها بقدر ما تشترك مع الحكاية في عناصر محددة (الشخصية ، الزمن ، الحكمة...) ، تتخالف معها . أي الحكاية . في مكونات أخرى (الإيقاع الشعري ، المحسنات البديعية ...) .

١ - الأدب والغربة ، دراسات بنيوية في الأدب العربي : عبد الفتاح كيليطو ص ٩٠ .

إن هذه التوصيفات تفرض على الدارس الوقوف إزاء سؤال تجنيسها . من موقع كونها خطابا حكايا . موقفا محيرا ، وهو ما ذهب إليه عبد الفتاح كيليطو في كتابه المقامات "لقد قلنا دون عناء كبير إن المقامة حكاية . تبدأ المصاعب حين يتعلق الأمر بموقعتها إزاء الأنماط الأخرى للحكاية التي عرفتھا الثقافة العربية"^(٥).

إن جنس المقامة على ضوء هذا العرض الذي عرضناه، يطرح نفسه أمام القارئ باعتباره جنسا مفتحا يقف عند حدود مجموعة من الأجناس الأدبية الأخرى، شعر، قصة ... يأخذ منها من المقومات بقدر ما يختلفه لنفسه، يتعالق معها نصيا، ويتجاوز. الشيء الذي يجعل من تجنيسها إشكالا نقديا مفتوحا على الدوام. وهو الإشكال الذي ظل كذلك يطرح نفسه في الأدب والغرابية من دون أن يخرج القارئ للكتاب بمواقف واضحة بخصوص سؤال تجنيس المقامة، لكن كتاب المقامات ، السرد والأنساق الثقافية، لنفس المؤلف ربما كان أكثر اقترابا في مقارنته النقدية للمقامة^١.

والمقامات التي بدأها الهمذاني وثنى بها الحريري ، والتي أخذت تستغل للوعظ الديني في عصر الانحدار بحيث ركز على التتميق في أسلوبها وحفلت بألوان البديع ومن زعمائها صلاح الدين الصفدي وابن الوردي والشاب الظريف ، وقد بقيت محافظة على طريق الأوائل باستخدام راوية وحدث وأقصوصة .

وتظل قضية الأسلوب اللغوي في الأدب العربي مثار خلاف ، فكثيرا ما يحتدم حولها النقاش ، بعيدا عن الواقع الثقافي للأدب العربي في القرن التاسع عشر، ومن المؤكد أن تخطي ذلك الواقع وتمخضاته الكبرى يثير استياء بالغا لدى الدارسين الذي انخرطوا بصورة حقيقية في كشف مسار نشوء الظواهر الأدبية وتطورها، وهو مسار لا يمكن ضبطه من خلال تاريخ الأدب التقليدي، إنما يحتاج إلى مقاربات ثقافية واجتماعية وأدبية ولغوية متنوعة لكي يرسم على نحو سليم . وقد قام جملة من الباحثين بتفسير انكسار الأسلوب اللغوي المتفصح الذي أشاعته المقامات العربية، استنادا إلى هيمنة المؤثر الغربي ، لكن هذا التفسير لم يأخذ بالاعتبار جملة

١ - الأدب والغرابية ، دراسات بنيوية في الأدب العربي : عبد الفتاح كيليطو ص ٩٣ .

التفاعلات اللغوية والأدبية في القرن التاسع عشر. فصادر، فيما نرى، على المطلوب باستعارته تفسيراً سهلاً وجاهلاً .

وأشار الناقد عبد الفتاح كيليطو في الفقرة الأخيرة من كتابه المقامات إلى التحوّل الذي ظهر في مفهوم الأدب في العصر الحديث ، وذلك حينما وجد الأدب العربي نفسه أمام مفترق طرق ، خلال القرن التاسع عشر، إذ بدأت تتبلور فكرة قبول الأدب بمعناه الحديث . ولأن الإنسان لا يصفي حساباته مع الماضي بالإشاحة عنه، فسيكون مفيداً الانكباب على هذا التحوّل والقيام بجرّد لما كسبته الثقافة العربية (أو خسرته) في هذا التحوّل .

وفي كتابه لسان آدم حاول من خلال الوقوف على نموذج مقامات الحريري ، أن يقدم وصفاً لجانب من ذلك التحوّل ، وبوضوح أشار إلى أن الحريري، الكاتب الأعظم انتشاراً بين القراء ما بين القرن الثاني عشر، والقرن التاسع عشر، صار اليوم منسياً للغاية^١.

لقد تعرضت الأنساق الأدبية لتحوّل عميق في العالم العربي نتيجة للتأثير الذي مارسه الأدب الأوربي، فصار الحريري رمزاً لكتابة لا يجب إعادة إنتاجها. نكتب اليوم ضد الحريري . ولما كان كيليطو يتحدث عن أنساق ، فمن الواضح أن الحريري قد طور نسقاً في التعبير الأدبي إلى درجة انغلاق فيها على نفسه، فأعيدت فيها صياغة البلاغة العربية في ضوءه. وحسب كيليطو، ففي الحقبة الكلاسيكية، كان الكتاب الذي يجد فيه كل عربي نفسه هو مقامات الحريري ، فتلك النصوص كانت تسوق القارئ في التعرجات المختلفة للأدب القديم: الشعر والنثر ، الأنواع الشعرية والسردية ، البلاغة ، الأمثال ، والشخصيات المثالية ..

ومنذ صدور المقامات حظيت بمرتبة رفيعة، المرتبة العليا، فتفوقت بذلك على جميع الكتب الأخرى. كان هذا الكتاب بالنسبة للجميع، مجموع الأدب، وحصيلة كل الكتب السابقة . ولم يكن تعظيمه، خارج اللغة العربية ، بأقل تألقاً: ترجم، واحتفي به في السريانية ، والفارسية ، والعبرية ، والحال أنه حين يبلغ كتاب مثل هذه الدرجة

١ - الأدب والغربة ، دراسات بنيوية في الأدب العربي : عبد الفتاح كيليطو ص ٩٥ .

من الامتياز ، فإن جهد الإبداع ينكبج : من العبث، بعد المقامات ،الكتابة والاستمرار في الكتابة .

إن الفشل الذريع لكل أولئك ، وما أكثرهم ،الذين قلدوا الحريري هو من هذه الناحية ذو دلالة . والمؤلف نفسه لم يكتب شيئاً بعد رائعته،إن لم يكن مؤلفين متواضعين في النحو.بعد أن كتب الكتاب ،لم يبق سوى الاكتفاء بالشرح أو الصمت. وهكذا كانت المقامات خاتمة إبداع الآداب العربية . يلزمنا أن نمضي مع كيليطو الذي رسم لنا مسار انهيار أسلوب المقامة ، وما يفضي إليه ذلك من تمزق وحيرة، فيقول : اليوم مات الحريري .. لم يعد العرب يتعرفون على أنفسهم في الصورة التي تعكسها عنهم المقامات بل قد يحصل لهم أن يتساءلوا كيف استطاع مثل هذا المؤلف ، في الماضي، أن يثير كل هذه الإعجاب. ويعتقدون أنهم قد فسروا كل شيء حين يحيلون على انحطاط قد يكون أصاب الآداب العربية، ويكون الحريري أحد المسؤولين الرئيسيين عنه.إن المؤلف الذي أبهج القراء طوال ثمانية قرون، لم يعد ينظر إليه إلا كمشعوذ متغضن ، وساحر رهيب ، وإليه ينسب الجنون الذي استبد بالذوق الأدبي الكلاسيكي^١ .

هذا الانقلاب في الموقف إزاء الحريري بدأ انطلاقاً من اللحظة التي اكتشف فيها العرب الأدب الأوربي . قياساً إلى هذا الأدب ، فإن المقامات وعدداً كبيراً من النصوص القديمة يحكم عليها بالتصنع ،والتفخيم ، والطنين ، وباختصار فهي غير قابلة للقراءة .عدم الأمانة هذه للتراث الكلاسيكي تسبب إحساساً بالخطأ وانزعاجاً عميقاً. فمن جهة لا يقبل العرب صورتهم الماضية التي يقدمها لهم الحريري (باعتبارها صورة رمزية لكتابة بالية) لكنهم ، من جهة أخرى ، ينقادون بصعوبة إلى التسليم بأن نتاجهم الأدبي لم يعد سوى انعكاس باهت للأدب الغربي.لذلك لا يتبنون نموذجاً لهم لا ألف ليلة وليلة ولا المقامات ، ولا الأدب الغربي . وفي نهاية المطاف، فإن غياب كتاب نموذجي يتطابق مع غياب نموذج .

١ - الأدب والغربة ، دراسات بنيوية في الأدب العربي : عبد الفتاح كيليطو ص ٩٧ .

وتطور النوع الروائي كان يرافقه تطور في الأداء اللغوي ، فالنوع يتطور بأسلوبه، والأسلوب يتطور بالنوع الذي يعبر به. ينتهي كل من الأسلوب والنوع إذا انفصلا عن بعضهما تماما، وإذا انغلقا على بعضهما تماما، وقع ذلك في الحالة الأولى مع المرويات السردية التي انفصلت البنية السردية المكوّنة لشروط النوع عن الأسلوب الخاص بها، فتفكك النوع ، وتطور الأسلوب حينما ورثه نوع بديل متصل بفضاء السرديات نفسه، ووقع ذلك في الحالة الثانية مع المقامات حيث انهيار النوع وأسلوبه لتشابكهما التام ، وتلازمهما الكامل . ينبغي دائما أن تترك مسافة رمزية تتفاعل فيها الأنواع والأساليب بحرية تتيح إمكانية تطورها معا. ومع ذلك فالمؤثر الغربي ينبغي أن يؤخذ بالاعتبار بدلالاته الثقافية العامة وليس اللغوية والأسلوبية الخاصة والمباشرة .

وليس خافيا أن الأساليب الأدبية تستجيب لمعايير الذوق السائد، وتتحوّل بتحوّلها ، ولا نعدم أن نجد كتّابا يتطلعون إلى تحديث الأساليب، ويقومون بذلك، فيلاقون عنتا في بداية الأمر، لكنّ ذلك بذاته يتسبب في ترقية الذوق وتطور الأساليب ، فالأساليب لا تتطور عبر المحاكاة للنماذج الجاهزة فيها، إنما في الانحراف التدريجي والمتواصل عنها. كما أن الأساليب يجري تقديرها في سياق ثقافي معين دون آخر، فإذا لم يعد اليوم مقبولا أسلوب الحريري؛ فذلك لا يعود إلى أنه ضعيف وركيك؛ إنما لأن الذوق الثقافي وجد أساليب أخرى تفوقه قدرة على التعبير عن حاجاته، وتتوافق مع متطلباته . إلى ذلك فالأساليب يجري تقديرها أو رفضها بحسب الحالة الثقافية للوسط الذي يتلقّى الكتابة، وتصلح مقامات الحريري وألف ليلة وليلة أن تكونا مثالا على ذلك، فكتاب المقامات للحريري الذي اكتشفه الأوربيون في القرن التاسع عشر، بفضل المستشرق سلفستر دي ساسي ، وترجم إلى معظم اللغات الأوربية الحية ، لم ينجح أبداً، في غزو جمهور غربي عريض. ظلت معرفته محصورة ضمن المتخصصين في الأدب العربي الذين يرون في معظمهم ، وعلى غرار أرنست رينان أنه كتاب في الظاهر، تافه في العمق، والذي إذا قومنا شكله حسب أفكارنا الأوربية يتجاوز كل ما يمكن تصوره في مجال سوء الذوق. وإذا قورن أمره بكتاب ألف ليلة وليلة ، الذي غدّى المخيال الغربي بصورة الشرق المطلوبة والمرغوب فيها،

فإنه، طبقاً لكل المعايير كتاب خاسر. ولكن، حينما نقلب وجه المقارنة ، وننظر إلى الكتابين في سياق الثقافة العربية القديمة ، فلا نجد إلا إشارات هامشية عن ألف ليلة وليلة عند المسعودي وابن النديم، وبدرجة أقل عند التوحيدي والمقرّي^١ .

وأهم الإشارات تلك التي يوردها ابن النديم ، الإشارة التي يكتنفها الازدراء فالكتاب غث بارد في ذهن ذلك المفهرس العظيم .

كتاب الحريري وحده استأثر، في الثقافة العربية ، منذ صدوره إلى القرن التاسع عشر بأكثر من ثلاثين شرحاً، كما يقول بروكلمان . فما الذي يجعل رينان يصف كتاب الحريري بأنه تافه في العمق ؟ وما الذي يجعل ابن النديم يحكم على كتاب ألف ليلة وليلة ، بأنه غث بارد؟ فيما، على العكس من ذلك يغزو الكتاب الأول جمهوراً عريضاً من الثقافة العربية ، والثاني جمهوراً عريضاً في الثقافة الغربية، إنه- فيما نرى- اختلاف المعايير والأنساق الثقافية للتأليف والتلقي في الثقافتين المذكورتين في عصرين مختلفين . أردنا بكل هذا التأكيد على أن الوعي الواضح بالتجديد اللغوي لم يكن عميقاً وجذرياً آنذاك، فما زالت الذائقة التقليدية مهيمنة، وتقريباً أسلوب أدبي يندرج في سياق الامتثال لسطوة تلك الهيمنة. لكن الفوارق اتضحت فقد جرت محاكاة النموذج المغلق بدرجة ما من قبل الطهطاوي وعلي مبارك- على سبيل المثال- بدرجة أقل مما قام به اليازجي، وقلة من الكتاب من تنبه إلى عدم جدوى الأخذ بنموذج مغلق ، كما هو، بل الأجدى محاولة تطويره، وتكييفه طبقاً للمتغيرات الثقافية العامة .

ومن أهم خصائص وصفات المقامة عند بعض النقاد أنها ليست قصة بالمعنى الكامل إلا أنها تشتمل على عناصر قصصية من حيث الحوار والمضمون والتصوير لعناصر الشر والفساد بالإضافة إلى احتواها على كلمات لغوية جعلت من المقامة تتجه نحو بلاغة اللفظ إذ إن القصة ليست الأساس وإنما الأساس هو العرض الخارجي والحلية اللفظية لذا فإن البعض من الأدباء اخذوا يبتكرون صوراً جديدة للتعبير ولكن في حدود .

١ - الأدب والغربة ، دراسات بنيوية في الأدب العربي : عبد الفتاح كيليطو ص ١١٠ .

ويتضح هذا الأمر بوضوح في مقامات الشاب الظريف فقد اجتهد في تحليلتها وتزيينها بالألفاظ وما يتعلق بها حسن استخدام للكلمات والأساليب الأدبية الرائعة ومن ذلك :

يقول الشاب الظريف : (تملكني غزال عزيز غرير ، وبدر منيف الحسن منير ، وغصن نظيم الزهر نضير ، ما نظر بأسود فاتر ، إلا نضى أبيض باتر ، له ثغر بارد وهو برق ، وصدغان تساويا بينهما فرق ، وعين لكل عقل سحّارة ، وحلاوة شقت كل مرارة ، وغصن قد يسمى معتدل وهو مائل ، ونرجس طرف يقال له ناظر وهو ذابل ، فلم أر قبل أعين أسهماً لها القلوب هدف ، ولا رضابه وشفاهه داراً له العقيق صدف ، قد غمد بالحاذة الفتور نصلاً ، وراش هذب الجفون نبلاً ، كالظبي في جيبه ونفاره ، وكالغصن لكن يجني على جاني أزهاره...)^١ .

فالذي يسمع كلمات غزال عزيز غرير ، وبدر منيف الحسن منير ، وغصن نظيم الزهر نضير ، يتبين له أن الشاب الظريف يتأنق كثيراً ويتألق في اختيار ألفاظه وسبك أسلوبه ويحرص على ترصيعه بجواهر الكلم ، وقد كان هذا من أبرز سمات الأدب في هذا العصر .

وقوله [تملكني غزال عزيز غرير ...] فيه التصريح بذكر المحبوب وعلى سبيل التذكير وقد جرى بعض الشعراء على ذلك ومنه قول الشاعر^٢ :

غلام كالغزال والغزالة ... رأيت به هلالاً في غلاله

كأن بياض غرته رشاد ... كأن سواد طرته ضلالا

كأن الله ارسله نبياً ... وصير حسنه أقوى دلاله

إذا ما زدت وصل زدت خبلا ... كأن حبال وصلك لي حباله

وقال الثعالبي : (اعوذ بالله من فلان الشادن الفاتن . وطرفه الفاتر الساخر . فقد رأيت به الغزال والغزالة والهلال في الغلالة فلم يشبع من حسنه ناظري . ولم يرو منه خاطري . وشبهت غرته القمرية بالرشاد والايمان الغض . وطرته السجيه بالضلال

^١ - ديوان الشاب الظريف ص ٦١ .

^٢ - رسائل الثعالبي ص ٥٤ .

والكفر المحض وحسبت ان الله ارسله نبيا. وهداه صراطاً سويا. وجعل حسنه اقوى معجزاته واوضح دلالاته. ومما بليت به منه انه متى ما زادني قرباً زدت حباً. وإذا زادني وصلاً. زدت خبلاً. فكأن حبال وصله حباله لصيدي. وكأن مساعدته اياي زيادة في قيدي. لا عدمت هواه. والرضى بما يرضاه ^١ .

وقال القلقشندي : (... اعلّموا أن صناعة الإنشاء أرفع وصناعة الحساب أنفع وقلم المكاتبه خاطب وقلم المحاسبة حاطب وأساطير البلاغات تنسخ لتدرس ودساتير الحسابات تنسخ وتدرس والمنشيء جهينة الأخبار وحقيبة الأسرار ونجي العظماء وكبير الندماء وقلمه لسان أسرار الدولة وفارس الجولة ولقمان الحكمة وترجمان الهمة وهو البشير والنذير والشفيع والسفير به تستخلص الصياصي وتملك النواصي ويقنّاد العاصي ويستدنى القاصي وصاحبه بريء من التبعات آمن كيد السعاة مقرّظ بين الجماعات غير معرض لنظم الجماعات ، فهذه أرفع المراتب وأشرف المناقب التي لا يعتورها شين ولا يشوبها مين وصدر الكلام يقتضي الترجيح ويؤذن بالترشيح والرفع أبلغ في الوصف من النفع فقد يتنفع بالنزر اليسير ولا يرتفع إلا بالأمر الكبير ...) ^٢ .

فالقلقشندي يسرد هنا بأسلوب سلس رقيق شيق أهمية صناعة الإنشاء ويقارن بينها وبين صناعة الحساب ويرجح كفتها ويبين أنها أرفع وأبلغ في الوصف .
وعلم الإنشاء أي إنشاء النثر هو : علم يبحث فيه عن المنثور من حيث أنه بليغ وفصيح ومشتمل على الآداب المعتبرة عندهم في العبارات المستحسنة واللائقة بالمقام ، ومبادئه : مأخوذة من تتبع الخطب والرسائل بل له استمداد من جميع العلوم سيما الحكمة العملية والعلوم الشرعية وسير الكمل وحكايات الأمم ووصايا الحكماء العقلاء وغير ذلك من الأمور الغير المتناهية .

وللنثر من حيث أنه نثر محاسن ومعائب يجب على المنشئ أن يفرق بينهما فيتحرز عن المعائب ولا بد أن يكون أعلى كعبا في العربية محترزا عن استعمال

^١ - رسائل الثعالبي ص ٥٥ .

^٢ - صبح الأعشى ١٣٣/١٤ .

الألفاظ الغريبة وما يخل بفهم المراد ويوجب صعوبته وأن يتحرز من التكرار وأن يجعل الألفاظ تابعة للمعاني دون العكس إذ المعاني إذا تركت في سجيته طلب لأنفسها ألفاظاً تليق فيها فيحسن اللفظ والمعنى جميعاً ، وأما جعل الألفاظ متكلفة والمعاني تابعة لها فهو كلباس مليح على منظر قبيح .

فيجب أن يجتنب عما يفعله بعض من لهم شغف بإيراد شيء من المحسنات اللفظية فيصرفون العناية إلى المحسنات ويجعلون الكلام كأنه غير مسوق لإفادة المعنى فلا يبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعنى ، ومن أعظم ما يليق لمن يتعاطى صناعة الإنشاء أن يكتب ما يراد لا ما يريد^١ .

وقال القلقشندي أيضاً (... مع سعة الباع في اللغة التي هي رأس ماله وأس مقاله وكنزه المعد للإنفاق ومعينه بل مغيثه وقت الضرورة على الإطلاق والنحو الذي هو ملح كلامه ومسك ختامه والتصريف الذي تعرف به أصول أبنية الكلمة وأحوالها وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها وعلوم المعاني والبيان والبدیع التي هي حلية لسانه وآية بيانه ...)^٢ .

ومما سبق يتضح لنا القلقشندي يرى أن اللغة هي المعيار الحقيقي الذي يحكم على صناعة الكاتب ، وبلا شك أن اللغة دور كبير في توجيه الخطاب الأدبي والشعري ، وذلك لأن اللغة تشكل مظهراً هاماً من مظاهر الحياة اليومية، وعنصراً بارزاً في حياة الأفراد، فبالإضافة لكونها وسيلة لتعبير والتخاطب فهي تدخل في كافة فروع المعرفة والعلوم ويمكن النظر إليها على أنها نبض الحضارة البشرية لأنها الوسيلة الوحيدة التي تتواصل من خلالها الأجيال وتنتقل عبرها الخبرات والمعارف والمنجزات الحضارية من جيل لآخر .

وبالنظر إلى النص المذكور عن القلقشندي نجده قد ذكر أهم أقسام اللغة العربية التي يتم التعويل عليها في صناعة الإنشاء وهذه الأقسام هي :

. النحو : [الذي هو ملح كلامه ومسك ختامه] .

^١ - أبجد العلوم ١١٥/٢ .

^٢ - المصدر السابق ١٣٥/١٤ .

. التصريف : [الذي تعرف به أصول أبنية الكلمة وأحوالها وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها] .

. علوم المعاني والبيان والبديع [وهي أقسام علم البلاغة] .

وقال ابن الوردي في المقامة المنبجية : (... ثم قال في تعسيلها ثلاث محاسن ، فأنشدته قول الثامن :

أحسن ما كانت كؤوس الطلا سوادحاً يبدو بها الخافي

فالنقش نقص ومن الرأي أن ترتشف الصافي من الصافي

فقال : أحسن هذا بعض الإحسان في شعره ، حيث قال : يبدو بها الخافي تورية بسرّه وجهه ، وجانس بين النقش والنقص ، ثم جاء أمراً بدعاً ، وأساء الأدب شرعاً ، إذ تسهل في الأمر ، وجعل من الرأي إرتشاف كأس الخمر ، إلا أن يريد رأي السقا ولا يريد رأي الثقات ، فيحسن إذاً له الخلاص ، وإلا فلات حين مناص ...)^١ .

في قوله [كؤوس الطلا] قال ابن منظور : (الطلاء ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه وتُسَمَّى العَجَم المَيْخُج وبعض العرب يسمي الخمر الطلاء يريد بذلك تحسين اسمها إلا أنها الطلاء بعينها)^٢ .

وفي قوله [وإلا فلات حين مناص] اقتباس من القرآن الكريم وذلك قول الله تعالى : (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ)^٣ .

وقال أهل التفسير : (قوله { مناص } مفعول من النوص والنوص في كلام العرب : التأخر والمناص : المفر)^٤ .

ويتضح الإهتمام باللغة والأسلوب الأدبي في مقامة القلقشندي التي أعلى فيها من شأن صناعة الإنشا والكتابة ، وحاول ان يجاري فيها أدباء عصره في الإهتمام باللفظ وترصيعه بالمحسنات ، يقول القلقشندي في مقامته : (... قلت لقد ذكرت قوما راقني وصفهم وشاقتني لطفهم ودعاني طيب حديثهم وحسن أوصافهم وجميل نعتهم

^١ - ديوان ابن الوردي ص ٣٢ .

^٢ - لسان العرب ١٥/١٠ .

^٣ - سورة ص ، الآية ٣ .

^٤ - تفسير الطبري ١٠/٥٤٧ .

إلى أن أحل بناديهم وأنزل بواديهم فأجعل حرفتهم كسبي وصنعتهم دأبي ليجتمع بالعلم شملي ويتصل بالاشتغال حلي فأكون قد ظفرت بمنيتي وفزت ببغيتي فأني قبيل من الكتاب أردت وإلى أي نوع من الكتابة أشرت ...)^١ .

ومن الملاحظ عند أدباء المقامات في هذا العصر أيضاً التكلف في الصنعة والإغراق في الوعورة وحشد المفردات الصعبة ويتضح هذا بصورة واضحة في مقامات ابن المعظم ، يقول الدكتور يوسف نور عوض :

(أما مقامات ابن المعظم فقد شاركت مقامات الحريري في بعض أهدافها كالإحتيال والوعظ ، ولكن صاحبها في الصنعة بإيراد المقابسات ، وحشد المفردات الصعبة قد أخل ببنائها ، وجعل من العسير أن نلمح لهذا الكاتب شخصية أسلوبية ظاهرة ، فهو لم يدرك المرامي الحقيقية لفن المقامة إذ حصر ذهنه في التكلف والإغراق في الوعورة مما أفسد عليه مقاماته)^٢ .

وفي المقامة القعقاعية لابن المعظم دليل واضح لما ذهب إليه يوسف نور عوض ، فقد حشد فيها ابن المعظم الكثير من الألفاظ الوعرة والمفردات العسيرة ومن ذلك قوله :

(... ليتبين رشذك من غيك ، ونطعك من عيك ، ونشرك من طيك ، حيك من ليك ، فقال : هات فقال أسمع : هي جسرب^٣ ، وخنساب^٤ ويعيق وسهلب وسلب وأتلع^٥ وتبع وشنحوط^٦ ومسطل ، وعليان وفيلق^١ وشمردل^٢ ...)^٣ .

^١ - صبح الأعشى ١٣٠/١٤ .

^٢ - فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٤٣ .

^٣ - الجَسْرَبُ : الطويل ، لسان العرب ٢٦٥/١ .

^٤ - الخُنُوسُ : الانقباضُ والاستخفاء خَنَسَ من بين أصحابه يَخْنِسُ وَيَخْنُسُ بالضم خُنُوساً وَخِنَاساً وَأَخْنَسَ انقبض وتأخر وقيل رجع وَأَخْنَسَهُ غيره خَلَفَهُ وَمَضَى عنه ، لسان العرب ٧١/٦ .

^٥ - التَّلْعُ محركةٌ : التَّرْعُ وطُولُ العُنُقِ . وقد تَلَعَ كَكَرَمَ وفرح فهو أَتْلَعُ وتَلِيعٌ . وتَلَعَ النهارُ كَمَنَعَ : طَلَعَ والضَّحَى : انبَسَطَتْ وتلع الرجلُ : أَخْرَجَ رأسه من كلِّ شيءٍ كان فيه ، القاموس المحيط ٩١٣/١ .

^٦ - الشَّنْحُوطُ : الطويل ، لسان العرب ٣٣٧/٧ .

فنحن نرى هنا كيف حشد وحشا ابن المعظم هذه المقامة بالغريب والعسير
من الألفاظ حتى خرجت المقامة من معناها .

^١ - الفَيْلَمُ والفَيْلَقُ العظيم من الرجال ومنه تَفَيْلَقَ الغلام وتَفَيْلَمَ بمعنى واحد الفَيْلَقُ العظيم وأصله
الكتيبة العظيمة ، لسان العرب ٣٠٩/١٠ .

^٢ - الشَّمَزْدَلُ بالذال غير معجمة من الإبل وغيرها القَوِيُّ السريع ، والفَتَيُّ الحَسَنُ الخَلْقُ والأنثى
بالهاء ، لسان العرب ٣٧١/١١ .

^٣ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ١٠ .

المبحث الثاني تركيبات الجمل

النحويّ يبحث في الكلام العربي من جهة إعراب مفرداته وجُمْلَه، وما يجب في تركيب الجمل البسيطة والمُرَكَّبَةِ كجُمْلِ الشرط، وما يجوز فيها من تقديم أو تأخير، وما يجوز في الكلام من ذكر أو حذف أو نيابة، مع تحديد أصول المعاني التي تدلُّ عليها صيغُ الأسماء والأفعال ومشتقاتها، ومتعلقات الفعل، وأصول المعاني التي تدلُّ عليها حروفُ المعاني.

والصَّرْفِيّ يبحث في الكلمة العربيّة من جهة بنائها وضوابطه في اللّسان العربي، وفي المعاني الأصول التي وُضعت صيغُ الكلمات للدلالة عليها. ويشاركُ النّحويّ الصّرْفِيّ في بعض ما هو مختصُّ به، وقد يشارك الصّرْفِيّ النحويّ في بعض مسائله الخاصة به.

أمّا عالم البلاغة فيوجّه اهتمامه حَوْلَ الكلمة والجُمْلَة العربيّة للمعاني التي تدلُّ عليها صيغُ الكلمات ، وأصُول التراكيب وفروعها، وللمعاني التي يَدُلُّ عليها التقديم والتأخير في مواضع الكلمات عمّا هو الأصلُ في التراكيب، وللمعاني التي يَدُلُّ عليها الذّكْرُ والحذف، والاقتصار، ووَضْعُ نوع من الكلام بدَلِ نوعٍ آخر، كظاھر بدل مضمّر، ومُضمّر بدَلِ ظاھر، واسْمُ موصول بدل اسم جنس، أو اسم عِلْمٍ، وغير ذلك ممّا فيه دلالةٌ على معنى يمكن بحسب الاستعمال العربيّ أن يُدَلَّ به عليه، ممّا قَصَدَ به بُلْغَاءُ أهل اللّسان الدلالةَ به عليه^١.

الكلمة والجُمْلَة في اللغة العربيّة :

الكلمة هي اللفظ المفرد الدال على معنى ، أي لفظ مفرد عيّنهُ الواضع لمعنى ، متى ذكر ذلك اللفظ فهم منه المعنى الذي عيّن هو له ، وفهمه منه هو دلالاته عليه^٢.

^١ - البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها : عبد الرحمن الميداني ص ٧ .

^٢ - مغني اللبيب عن كتب الأعراب ص ١٣٩ .

وتطلق الكلمة إطلاقاً لغوياً مراداً بها الكلام مثل : (لا إله إلا الله) تسمى كلمة التوحيد .

والكلمة تتكون من ثلاثة أنواع : أسم ، فعل ، وحرف ، ومن هذه الأنواع الثلاثة يتركب الكلام .

والكلام عند النحويين هو اللفظ المركب المفيد بالوضع العربي فائدة يحسن السكوت عليها ، وأقل ما يتركب منه الكلام : من كلمتين فأكثر والكلم هو اللفظ المركب من ثلاث كلمات فأكثر سواء أفاد أو لم يفد .

والكلمات المستعملة في كل اللغات تتكون من حروفها المفردة التي اعتبرت أساساً لها ، ومن ذلك لغتنا العربية فهي أصوات محتوية على بعض الحروف الهجائية وعددها تسعة وعشرون حرفاً واللغة فعل لسانی أو ألفاظ يأتي بها المتكلم ليعرف غيره ما في نفسه من المقاصد والمعاني . ولأهم كیفیات مخصوصة يخالف بعضها بعضاً في التعبير عما في ضمائرهم ومن هؤلاء العرب الذين استنبط من مقاييس كلامهم قواعد اللغة العربية والنحو^١ .

تعريف الجملة :

الجملة المفيدة كلام تام يدل على معنى أقله نسبة شيء إلى شيء إثباتاً أو نفيًا ، أو إنشاء ربط بين شيء وشيء آخر يكفي لإنشائه القول ، مثل أمر التكوين ، أو الأمر بفعل ما .

والجملة المفيدة تسمى عند علماء المنطق "قضية" وأقل ما تتألف منه الجملة عنصر أن يُعَبَّرَ عَنْهُمَا بِاللَّفْظِ، وهما:

(١) مُسْنَدٌ إِلَيْهِ، وَيُسَمَّى مُحْكوماً عَلَيْهِ، وَيُسَمَّى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَنْطِقِ مَوْضوعاً.

(٢) وَمُسْنَدٌ، وَيُسَمَّى مُحْكوماً بِهِ، وَيُسَمَّى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَنْطِقِ مَحْمولاً.

ويلاحظ بين المسند إليه والمُسْنَدُ شيء ثالث هو الإسناد، وهو الرابط المعنوي بينهما، وقد يوجد في اللفظ ما يدل عليه، كحركة الإعراب ، وكضمير الفصل بين المبتدأ والخبر .

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها : عبد الرحمن الميداني ص ١١ .

(٣) ويُلْحَقُ بِالْجُمْلَةِ الْمَفِيدَةِ تَوَابِعُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالْمُسْنَدِ إِنْ وُجِدَتْ، فَمِنْهَا الْمَفَاعِيلُ، وَالْأَدَوَاتُ، مَا يَدُلُّ عَلَى الْقِيودِ لِأَرْكَانِ الْجُمْلَةِ، كَالصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَالْقِيودِ الزَّمَانِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ، وَلَا تَتِمُّ جُمْلَةٌ مَفِيدَةٌ بِأَقَلِّ مِنْ مُسْنَدٍ إِلَيْهِ، وَإِسْنَادٌ يُلَاحِظُ ذَهْنِيَّةَ بَيْنَهُمَا.

تحليل بناء الجملة على اختلاف وجوها :

الْجُمْلَةُ الْكَلَامِيَّةُ بِنَاءٌ مِنْ كَلِمَتَيْنِ فَأَكْثَرُ مِنْ أَصُولِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ: "الاسم والفعل والحرف ذي المعنى".

ودلالة الكلمة في بناء الجملة تكون بواحد من الأمور التالية:
الأول: الوضع اللُّغَوِيّ الأوَّل، أو الوضع الاصطلاحيّ كمصطلحات العلوم.
الثاني: ما تَطَوَّرَ إِلَيْهِ الْوَضْعُ بِاسْتِعْمَالِ أَهْلِ اللَّغَةِ، أو فِي الْعَرَفِ الْعَامِ.
الثالث: ما يَجْرِي فِي الْكَلِمَاتِ مِنْ اسْتِعَارَاتٍ وَمَجَازَاتٍ جَرَى بِهَا أَوْ بِنَظَائِرِهَا لِسَانُ أَهْلِ اللَّغَةِ.

الرابع: مَا تَحْمِلُهُ الْكَلِمَاتُ مِنْ دَلَالَاتٍ لَزُومِيَّةٍ ذَهْنِيَّةٍ، تُدْرِكُ بِالذَّهْنِ مِنْ مَعَانِيهَا، كَالْأَمْرِ بِالْعِلْمِ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ ذَهْنًا اتِّخَاذَ وَسَائِلِهِ.

الخامس: مَا فِي الْكَلَامِ الْمَذْكُورِ مِنْ إِشَارَاتٍ تَدُلُّ عَلَى مَحْذُوفٍ يَقْتَضِيهِ الْكَلَامُ، كَحَرْفِ عَطْفٍ لَيْسَ مِنَ الْكَلَامِ الْمَذْكُورِ مَا يُعْطَفُ بِهِ عَلَيْهِ^١.

السادس: نِيَابَةُ مَذْكُورٍ عَنْ مَحْذُوفٍ، بِدَلَالَةِ قَرِينَةٍ ذَهْنِيَّةٍ أَوْ لَفْظِيَّةٍ، كَنَائِبِ الْفَاعِلِ مَعَ قَرِينَةٍ بِنَاءِ الْفِعْلِ عَلَى الصِّيغَةِ الْخَاصَّةِ بِمَا لَمْ يُذَكَّرْ فَاعِلُهُ.

السابع: اقتران كلمة بكلمة مع حركة إعراب ظاهرة أو مقدرة، كحال المبنيات من الأسماء، أو دون حركة إعراب كحال الحروف التي لا محل لها من الإعراب، عاملةً بغيرها أو غير عاملة.

أصول المعاني التي يدل عليها بالألفاظ في الجملة الكلامية :

تظهر أصول المعاني التي يراود الدلالة عليها بالألفاظ بعد ملاحظة إرادة التعبير في الجملة الكلامية عن ربط شيء بشيء لعلاقة ما قامت بينهما، كالأكل

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها : عبد الرحمن الميداني ص ١٠٨ .

والآكل، والنوم والنائم، والجمال والجميل، والقَدَم والقَدِيم والحدوث والحادث، والوجود والموجود، والعدم والمعدوم، وأَيَّة صِفَةٍ والموصوف بها، وأَيِّ حدثٍ وَمَنْ فعله أو قام به، وزمان الحدث، وكأنه، وآلته، وسببه، والباعث إليه، والغاية منه، وحدود كل شيء يُشار إليه بالعبرة الكلامية من كل ذلك، وقِيوده الوصفية الثابتة والمتحولة، تظهر لنا مِنْ أصول المعاني التي يرادُ الدلالة عليها بالألفاظ طائفة يَسهُلُ تمييزها وإحصاؤها، وتَبْقَى طائفةٌ أخرى يَصْعُبُ وضْعُها في مواضعها من الشجرة الفكرية لأصول المعاني^١.

حُسْنُ تركيب الجمل وانتقاء المفردات ذوات الدلالات الأدق:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام حُسْنُ تركيب الجمل، بتنظيم مفرداتها على وفق نَسَقٍ متلائم لا تتنافر فيه ولا تشاكس، كتتنظيم حَبَّاتِ عقد اللؤلؤ من قبل منظمٍّ ماهر، وكتتنظيم الجواهر على حلية نفيسة، من قبل صائغٍ بارع، مع العناية بالتزام أصول دلالات التراكيب التي نبّه عليها علماء المعاني.

وكذلك انتقاء المفردات الجميلة التي تحمل أقوى وأحلى وأدقّ دلالة على المعنى المراد، مع توافر عنصر الملاءمة بينها وبين مضمون الكلام بوجه عام، وحال المخاطبين به.

والقرآن الكريم كلّهُ هو النموذج الأعلى لذلك، ثم روائع أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم من بعد ذلك كلام كبار البلغاء والفصحاء^٢.

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ١٠٩ .

^٢ - المصدر السابق ص ٨٥ .

بناء المقامة وأثره في تركيب الجمل :

ينبغي أولاً التأكيد على أن الوحدات الكلامية للغة الطبيعية ليست مجرد سلسلة أو خيوطاً من صنع الكلمات، فهناك مكون الكلامي يفرض دائماً بالضرورة فوق المكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية .

إن هذه المميزات غير الكلامية للوحدة الكلامية مهمة في تحديد معناها كأهمية معنى الكلمة والمعنى النحوي ويدخل كلاهما في المكون الكلامي^١ .

إن الناظر في اللغة على وجه التقعيد والوصف والتفسير ينتهي بالضرورة إلى اعتبار المتغيرات الخارجية التي تكتنف المادة اللغوية واستعمالاتها ، وذلك لأن المعنى القاموسي أو المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى، بل هي جزء من معنى الكلام وذلك كشخصية المتكلم وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به^٢ .

إن مراعاة هذه الاعتبارات المختلفة تمثل الاتجاه الصحيح والضروري في الكشف عن المعنى وتطبيق هذا المنهج ينبغي أن يصدق على النصوص المنطوقة ذات المقام الحاضر الحي كما ينبغي أن يصدق على النصوص ذات المقام المنقضي والذي يمكن أن يعاد بناؤه بالوصف التاريخي، ومن هنا تأتي قيمة هذا المنهج لدراسة كتب التراث العربي، وإن الاكتفاء بالمعنى الحرفي أو معنى المقال أو معنى ظاهر النص يعتبر دائماً سبباً في قصور الفهم^٣ .

ولما كانت الظواهر اللغوية خاضعة لضغوط مقامية واعتبارات غير لغوية، وكانت مراعاة هذه الاعتبارات ضرورية وددت أن أقف عند فكرتي "المقام" و"المتكلم

^١ - اللغة وعلم اللغة :جون ليونز ، الناشر:دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، ص ٢٧-٢٨ .

^٢ - علم اللغة : محمود السعمران ، دار الفكر ، بيروت ص ٢٦٣ .

^٣ - اللغة العربية معناها ومبناها : تمام حسان ، عالم الكتب ، الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م ص ٣٧٢ .

والمخاطب" نظرا لما لهما من صلة بخلق الدلالات وتوجيهها بالتضافر مع المكونات الكلامية ذات الصلة بالبنى النحوية .

نظرية المقامات ومقتضيات الأحوال :

إن الافتراض الأساس - كما يقول جي آفرث- أن كل نص يعتبر من مكونات ظرف معين ، ولهذا لا يمكن بحال نكران تأثير دلالة سياق النص اللغوي وسياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتكثير^١ .

لقد كانت فكرة السياق أو المقام هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفي في الوقت الحاضر وهو الأساس الذي ينبني عليه الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال .

وإذا كان تحليل المقال في سياقه المقامي واجبا في اللسانيات الاجتماعية والتاريخية والنفسانية فإنه في مجال التحليل الأسلوبي أوجب، وسوف ترد الإشارة إلى أن الاختيارات الأسلوبية لا تحكمها ظواهر اللغة الخالصة فحسب بل تحكمها كذلك محددات المقام ونعني بها الخصائص التي تحدد الظرف الاجتماعي الذي سيق في إطاره الكلام، لأن القيمة الفنية كما يقول حمادي صمود قيمة سياقية تبرز من تلاحن عناصر النص وتماسكها ونظمها^٢ .

أ- تعريف المقام :

يذكر الدسوقي في حاشيته على السعد : مقامات الكلام : الأمور المقتضية لاعتبار خصوصية ما في الكلام"، وإذا اختلفت المقامات لزم اختلاف مقتضيات الأحوال لأن اختلاف الأسباب في الاقتضاء يوجب اختلاف المسببات ، إذ الاعتبار

^١ - اللغة العربية معناها ومبناها : تمام حسان ص ٣٧٢ .

^٢ - التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود ص ٥٢٨ .

اللائق بهذا المقام غير الاعتبار اللائق بذلك واختلافها عين اختلاف مقتضيات الأحوال^١.

ومقتضى الحال في التحقيق هو الكلام الكلي المكيف بكيفية مخصوصة على ما أشير إليه في المفتاح^٢.

والحال أمر يقتضي أن يؤتى بالكلام على صفة مخصوصة تناسبه كالإنكار مثلا إذا اقتضى أن يورد الكلام مع صاحب ذلك الإنكار مؤكدا، فالكلام الموصوف بالتأكيد مقتضاه ، فمثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال ، وقولك : "إن زيدا في الدار مؤكدا بـ"إن" كلام مطابق لمقتضى الحال^٣.

وهذا يدل دلالة واضحة على أن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنية يباين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل ، وكذا مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يباين مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يباين مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر ، وعلى هذه المقامات تتوزع الظواهر الأسلوبية من تقديم وتأخير وتعريف وتكثير وحذف وذكر وقصر وفصل ووصل وإيجاز وإطناب لتحصل المطابقة المطلوبة التي جعلت أساسا لتعريف البلاغة .

وانطلاقا مما سبق يظهر أن الحال والمقام متقاربا المفهوم ، والتغاير بينهما اعتباري فإن الأمر الداعي مقام باعتبار توهم كونه محلا لورود الكلام فيه على خصوصية ما، وحال باعتبار توهم كونه زمانا له ، وأيضا المقام يعتبر فيه إضافته

^١ - حاشية الدسوقي ١/١٢٥ .

^٢ - مفتاح العلوم : يوسف بن ابي بكر السكاكي ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، جامعة بغداد ١٩٨١م ص ١٦٣ .

^٣ - مختصر التفتازاني ١/١٢٢-١٢٣ .

إلى المقتضى فيقال : مقام التأكيد والإطلاق والحذف والإثبات، والحال يضاف إلى المقتضى فيقال حال التذكير وحال خلو الذهن وغير ذلك^١ .

وقد كان صاحب مواهب الفتاح أكثر وضوحاً وجرأة حين ساوى بين المقام والحال في قوله : " فتقرر بهذا أن المقام والحال شيء واحد، وكذا الاعتبار ومقتضى الحال، وأنه لا فرق بين المقام والحال الحقيقي^٢ " .

ومن المصطلحات التي تستعمل استعمال المقام والحال الموضع والمقدار والأقدار والمشاكلة والمطابقة والاقتضاء والظرف والسياق، وجميعها فروع عن أصل ثابت في تفكير اللغويين العرب وإن لم يتبلور على الصعيد الاصطلاحي هو فكرة المناسبة والملاءمة^٣ .

ويسميه القنوجي "بساط الحال"^٤ ، ويسميه جي آرثرث "سياق الظرف"^٥ .
ورود في كتاب "النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب" باصطلاح "المطابقات النحوية"^٦ .

إن المقام "هو الرصيد الحضاري للقول وهو مادة تغذيته بوقود حياته وبقائه ولا تكون الرسالة بذات وظيفة إلا إذا أسعفها السياق بأسباب ذلك ووسائله" .
والمقامات هي جملة الظروف الحافة بالنص بما في ذلك السامع نفسه ولئن لم يضبطها البلاغي العربي ضبطاً نظرياً فإن تواتر استعمالها كفيلاً بأن يعطي القارئ فكرة ضافية عن المراد منها وهو إجمالاً التلاؤم بين نوع الحديث وملابساته ونوع اللفظ فللجد موضع وشكل وللهزل موضع وشكل^٧ .

^١ - مفتاح العلوم : السكاكي ص ١٦٨-١٦٩ .

^٢ - مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح : ابن يعقوب المغربي ١٢٦/١ .

^٣ - التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود ص ٢٠٨-٢٠٩ .

^٤ - أبجد العلوم : القنوجي ٢٦٧/١ .

^٥ - اللغة والمعنى والسياق ص ٢٤٠ .

^٦ - النظريات اللسانية : محمد الصغير بناني ص ١٧٤ .

^٧ - التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود ص ٣٠٢ .

يقول تمام حسان : " فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قالبا وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءا منه كما يعتبر السامع والكلام نفسه وغير ذلك مما له اتصال بالتكلم وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل جوانب عملية الاتصال من الإنسان والمجتمع والتاريخ..والغايات والمقاصد^١ " .

ويشترط في الكلام حتى يكون بليغا أن يطابق تلك المقتضيات، فتتم المطابقة بين اللفظ والمعنى والكلمة، والكلمة والكلمة والكلام والمستمع والظروف الخاصة بكل خطاب والتي تتجدد في كل لحظة.

ب- المقام واللغويات العربية :

لقد اهتمت علماء العربية في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والبلاغية إلى ما يحف بظاهرة الكلام من الملاحظات، كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط، والأمثلة كثيرة على أصالة هذا المبدأ الفني في التراث البلاغي العربي ، فقد تحدث علماء القرآن عن أسباب النزول وأفردوه بالتأليف، وتحدث علماء الحديث عن أسباب ورود وتحدث الأدباء والنقاد عن أسباب وظروف الإنشاد ، ومن ذلك ما أورده الجاحظ في كتابه من أجوبة فيها توجيه لما نحن فيه. فمما نقله عن بعض أهل الهند قولهم : " جماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول " وأن " لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة...ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم^٢ " .

كما فطن المفسرون إلى الفرق بين ظاهر القرآن وباطنه فكان فهمهم لهذا الفرق تفريقا منهم بين المعنى المقالي والمعنى المقامي.

^١ - الأصول : تمام حسان ص ٣٣٣، وانظر : نظرية النحو العربي، نهاد الموسى ص ٨٤-٨٥ .

^٢ - البيان والتبيين ٩٢/١-٩٣ .

كما اعتنى النحاة بدورهم بالمقام الذي تتشكل فيه العناصر اللغوية، مشيرين بذلك إلى تأثير دلالة السياق اللغوي وسياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتكثير وغير ذلك مما درسه ما يعرف بعلم المعاني إذ يدرس أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند إليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل ، فالوظيفة النصية تختص ببناء الحدث اللغوي (المقال) وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ولقوانين النحو ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها^١ .

وللمقامة بناء تسير عليه مكون من دعائم لتصل إلى وحدة فنية ومن هذه

الدعائم :

١/ الحادثة :

لابد في الحادثة من بنائها على حكاية ثم عرضها بطريقة التسلسل ، والتتابع

.

٢/ عنصر التشويق :

ولا بد أيضا من اشتغالها على عنصر التشويق لينطلق الكاتب بعد ذلك إلى السرد ، وينبع هذا العنصر من نفسية أبطالها حتى يستثير انتباه القارئ .

٣/ السرد :

لا بد أن يكون السرد في المقامة مغري ، حتى يحمل القارئ على المتابعة وذلك بعرض المشاهد ، وربطها ببراعة مع بعضها البعض .

٤/ العقدة :

وهي صلب الموضوع وغايته والهدف من كتابة المقامة .

٥/ التدرج في الحل :

ومن خصائص المقامة التدرج في الحل ثم اعتمادها على التحليل الدقيق ليصل بعدها الكاتب إلى النهاية .

^١ - الدراسات الإحصائية للأسلوب : سعد مصلوح ، عالم الفكر للطباعة والنشر ص ١١٨ .

وقد امتدح النقاد والأدباء منذ القديم إهتمام الكاتب بألفاظه وتركيب جملة ، يقول ابن بسام : (الناقد أن يبحث عن الكلام ، ويفتش عن شرف المعاني، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ ، ويدع تزويق التركيب) ^١ .

يقول ابن الوردي في المقامة المشهية : (... هو الذي يدع أهل هذه البدعة ، وأطفأ شمعة السمعة ، وأمر بالمعروف المعروف ، وقبح العكوف على هذا المألوف ، وسد فرج الفرج ، وداوى جرح الحرج ، ونبه على لغط الغلط ، وكسر سقط السقط ، فحينئذ رجعت عن قصدي ، وأطرح كلفتني ، وأقسمت بفرحتي ، قبل حلول حفرتي ، لأتركن حرفتي ، ومن للقاضي المسكين ، من الذبح بغير سكين ...) ^٢ .

ويقول عبد القاهر الجرجاني : (... ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرد اللفظ، كيف والألفاظ لا تُقيد حتى تُؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمّدت إلى بيت شعرٍ أو فصلٍ نثرٍ فعددت كلماته عدّاً كيف جاء واتَّفَق، وأبطلت نضدّه ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبَنَسَقَه المخصوص أبان المراد) ^٣ .

وقال السكاكي : (التركيب متى وقع موقعه رفع شأن الكلام في باب البلاغة على حيث يناطح السماك وموقعه أن يصل من بليغ عالم بجهات البلاغة بصير بمقتضيات الأحوال ساحر في اقتضاب الكلام ماهر في أفانين السحر على بليغ مثله مطلع من كل تركيب على حاق معناه وفصوص مستتبعاته فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو ولا تشتري بثمنها ولا تجرى في مساومتها على سننها ما لم يكن المستخرج لها بصيرا بشأنها والراغب فيها خبيراً بمكانها) ^٤ .

١ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : علي بن بسام الشنتريني ، تحقيق إحسان عباس ، الناشر

: الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ٣١٠/١ .

٢ - ديوان ابن الوردي ص ٣٨ .

٣ - أسرار البلاغة ص ٩ .

٤ - مفتاح العلوم ص ٩٩ .

وينطبق قول السكاكي هذا مع قول القلقشندي في مقامته ، فمن بديع ما جاء فيها وصفه للغة الكاتب يقول (... مع سعة الباع في اللغة التي هي رأس ماله وأُس مقاله وكنزه المعد للإنفاق ومعينه بل مغيثه وقت الضرورة على الإطلاق والنحو الذي هو ملح كلامه ومسك ختامه والتصريف الذي تعرف به أصول أبنية الكلمة وأحوالها وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها وعلوم المعاني والبيان والبديع التي هي حلية لسانه وآية بيانه ...)^١ .

ويقول ابن المعظم في المقامة العنسية : (... فاکرمني القاضي وكفاني ، وملاً جفاني ، وما جفاني ، فخرجت من عنده وأنا اجر ذيل الغنى ، وأسر بنيل المنى ...)^٢ .

قوله [وملاً جفاني] الجَفَنَة معروفة أعظم ما يكونُ من القِصاع والجمع جِفَانٌ وجِفَنٌ عن سيبويه كهَضْبَةٍ وهِضَبٍ والعدد جَفَنَات بالتحريك لأن ثانيَ فَعْلَةٍ يُحَرِّكُ في الجمع إذا كان اسماً إلا أن يكون ياءً أو واواً فَيُسَكَّنُ حينئذ وفي الصحاح الجَفَنَة كالْقَصْعَةِ وجِفَنَ الجَزورَ اتخذ منها طعاماً^٣ .

واعتنى بعض كتّاب المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين بالتركيب وحاولوا أن يمزجوا بين المنثور والمنظوم ، فأكثرُوا من حشر الشعر في بعض المقامات ، ويتمثل هذا الأمر بصورة واضحة في مقامة الشاب الظريف التي أكثر فيها من الإستشهاد بالشعر حتى كادت تخرج من فن المقامات ، وقد كان الشاب الظريف يحشر شعره ويأتي به بمناسبة وبغير مناسبة ، ويرى بعض النقاد أن هذا الأمر يعود إلى معنى المقامة عند الشاب الظريف فهو يرى أن المقامة هي الكلام الذي يقال في المجالس الأدبية وكفى .

١ - صبح الأعشى ١٤/١٣٥ .

٢ - المقامات الإثننا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٢٨ .

٣ - لسان العرب ١٣/٨٩ .

يقول الشاب الظريف^١ : (فلما جرد الصبح حسامه ، وأذهب غيهب الليل
ظلامه ، خرجت وقد كثر الشوق والتشوق ، وأعقب ما تزايد من التأرق التحرق ،
فهديت إلى بعض الأصحاب بدمع كالسحاب وانشدته :

صبوت إلى الصبابة والغرام وودع ناظري طيب المنام
وسام القلب من أولاد سام غزال طرفه من آل حام
يريني الموت في سيف ورمح مقيماً في اللواظ والقوام
جعلت تصبري عنه ورائي وصيرت الغرام به أمامي
فهل لي مسعد في القلب يرثي لما ألقاه من حرق السقام
فحين أعلمته من الوجد ما أجد ، ومن الكمد ما تكابده الكبد ، وفهم من به همي
وهيامي ، ومن إليه ترامى مرامي أنشد :

تعدّ عن الغرام فلست تقوى على ما فيه من كمد وذل
فكم من مغرم قد مات عشقاً بمن تعنى ولم يظفر بوصل
فلما سمعت ما قاله ووعيت ، لويت عطفني عنه وما ألويت ، ورحت وبني
جوى وبني ، وعلمت أن ليس لي نصير في الغرام ولا ولي ، أنوح وأبوح بوجد ضمن
قلباً شجياً ، وانظم دموع طرف طام فيصير الخد رويأ وأنشد^٢ :

لا أسهر الله طرفاً نام عن سهري وأحرق القلب بالأشجان والفكر
ولا سقى داره يوماً إذا سقيت داري بدمعي إلا وابل المطر
فقلوه [جرد الصبح حسامه] كناية عن بزوغ الفجر وهو تعبير بلاغي لطيف ، فقد
شخص الشاب الظريف الصبح وجعله إنسان يمتشق سيف .

^١ - ديوان التلعفري ص ٥٩ .

^٢ - ديوان التلعفري ص ٦٠ .

المبحث الثالث التصوير البياني والبديعي

الصورة القنية :

تحتل الصورة مكانة مهمة في الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية القديمة من حيث مجال البحث والاهتمام بتحديد ماهيتها ووظيفتها في العمل الأدبي .
وعندما نطالع معاجم اللغة باحثين عن معنى (الصورة) ، فإننا نجد:
"المُصَوِّر: من أسماء الله تعالى، وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها، وكثرتها .
وتصورت الشيء: توهمت صورته، فتصور لي^١ .
قال ابن الأثير: (الصورة تَرَدُّ في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته على معنى صفته . يقال صورةُ الفعل كذا وكذا : أي هيئته . وصورة الأمر كذا وكذا : أي صفته)^٢ .
وقريب من ذلك ما جاء عند الفيومي^٣ ، والفيروزابادي^٤ ، والمأخوذ من معاني الصورة في معاجم اللغة ، أنها تعني الشكل ، والنوع ، والصفة ، والحقيقة .
يقول الراغب الأصفهاني: "الصورة ما ينتقش به الأعيان، ويتميز بها غيرها، وذلك ضربان^٥ :

- أحدهما محسوس يدركه الخاصة والعامة ، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان كصورة الإنسان والفرس، والحمار بالمعينة.

^١ - لسان العرب ٥٢٣/٤ .

^٢ - النهاية في غريب الحديث والأثر ١٢٢/٣ .

^٣ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ، الناشر : المكتبة العلمية - بيروت ٣٥٠/١ .

^٤ - القاموس المحيط ص ٥٤٨ .

^٥ - المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة، بيروت ، مادة (صور) ص ٨٥٨ .

. والثاني: معقول يدركه الخاصة دون العامة، كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل، والروية، والمعاني التي خص بها شيء بشيء .
ويقول علي صبح : (فمادة الصورة بمعنى الشكل، فصورة الشجرة شكلها، وصورة المعنى لفظه، وصورة الفكرة صياغتها..)^١ .
وان كان النقاد القدامى لم ينهضوا بمفهوم الصورة في المجال الاصطلاحي الدقيق ، ولم يخرجوا بها عن مدلولها اللغوي ، ولم يتبلور عندهم بعدها النقدي الاصيل باستثناء عبد القاهر الجرجاني الذي ابتدع لنا في استعمال الصورة دلالة اصطلاحية جديدة .

اذن فالجذور العربية لدراسة الصورة متوافرة وليست مفقودة وان اختلفت وتفاوتت درجة الاهتمام بين اشارات ولمحات بسيطة وعابرة وبين ادراك ووعي عميق لطبيعة الصورة واثرها في النص الادبي مع اهتمام بالنواحي الفنية والجمالية فيها اضافة الى وقفاتهم عند (ماهية الصورة ، ومكوناتها كالتشبيه وادواته وانواعه والاستعارة وانماطها)^٢ .

ومع ما ذكرنا من اهتمام نقدنا العربي بموضوع الصورة الا اننا نعترف بان هذا النقد قد عالجها معالجة تتناسب مع ظروفه التاريخية والحضارية ، فاهتم كل الاهتمام بالتحليل البلاغي للصورة القرآنية ، وتمييز انواعها وانماطها المجازية وركز في دراسة الصورة الفنية عند الشعراء الكبار امثال ابي تمام والبحتري وابن المعتز ، وانتبه الى الآثار اللافئة التي تحدثها الصورة في المتلقي ، وقرن هذه الآثار بنوع من اللذة ، والتفت نوعاً ما الى الصلة الوثيقة بين الصورة والشعر ، باعتبارها احدى خصائصه النوعية التي تميزه عن غيره^٣ .

^١ - الصورة الأدبية تأريخ ونقد : علي صبح ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، ص ٣ .
^٢ - دير الملاك - دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر : محسن أطيّش - منشورات وزارة الاعلام ١٩٨٢م : ٢٢١ .
^٣ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : جابر عصفور ، دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤م ص ٨ .

وسنعرض لبعض هذه الجهود ونظرة هؤلاء العلماء الى الصورة واولهم في هذا المضمار :

لقد اشار ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الى الصورة من خلال نظرتة التقويمية للشعر ، والاشارة الى الخصائص التي تتوافر فيه فرأى ان (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها الاعجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير)^١

اذن في هذا النص قد تحدث الجاحظ عن التصوير الذي يعد من اقدم النصوص في هذا المجال ، وبمثابة انه قد توصل الى اهمية جانب التجسيم واثره في اغناء الفكر بصور حسية قابلة للحركة والنمو، تعطي الشعر قيمة فنية وجمالية ، لايمكن للمتلقي الاستغناء عنها ، فحينما يكون الشعر جنساً من التصوير يعني هذا (قدرته على اثارة صور بصرية في ذهن المتلقي ، وهي فكرة تعد المدخل الاول او المقدمة الاولى للعلاقة بين التصوير والتقديم الحسي للمعنى)^٢ .

وقد افاد البلاغيون والنقاد العرب الذين جاءوا من بعد الجاحظ من فكرته في جانب التصوير (وحاولوا ان يصبوا اهتماماتهم على الصفات الحسية في التصوير الادبي واثره في ادراك المعنى وتمثله ، وان اختلفت آرائهم وتفاوتت في درجاتها)^٣ .

^١ - الحيوان : عمرو بن عثمان الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر - ١٩٦٦م ١٣٢/٣ .

^٢ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٣١٦ .

^٣ - الصورة الفنية معياراً نقدياً - منحنى تطبيقي على شعر الاعشى الكبير : عبدالاله الصائغ - دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٨٧م : ١٧٠ وما بعدها حيث يستعرض في هذا المجال اراء وجهود العلماء العرب مثل ابن قتيبة وابن طبا وطبا والفارابي والامدى وابن جني وغيرهم، اما راي قدامة بن جعفر وفكرته عن الصورة فقد اشار اليها الدكتور كامل البصير في كتابه بناء الصورة الفنية في البيان العربي دراسة موازنة ص ٣٣ .

ونجد ابا هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) قد اشار الى الصورة في موضوع الابانة عن حد البلاغة بقوله (والبلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن، وانما جعلنا المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة لان الكلام اذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقاً لم يسم بليغاً وان كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى)^١ .

وفي هذا النص اشارة من ابي هلال العسكري باهمية الصورة في النص الادبي وما يفعله ويتركه من اثر في قلب السامع ، وهو بهذا يكون قد تأثر وافاد من فكر الجاحظ كغيره .

واشار العسكري نص للعتابي عن المعنى والالفاظ واثرها في افساد الصورة (الالفاظ اجساد والمعاني ارواح وانما نراها بعيون القلوب فاذا قدمت منها مؤخراً او اخرت منها مقدماً افسدت الصورة وغيّرت المعنى)^٢ .

وعندما نتوقف عند الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) نجد ان منهجه في دراسة الصورة هو منهج متميز عما سبقه من العلماء العرب على الرغم من افادته الكبيرة من جهودهم فقد افاض في حديثه عن الصورة في كتابيه "اسرار البلاغة" و"دلائل الاعجاز" فمن اشارته اليها قوله (ومن الفضيلة الجامعة فيها انها تبرز هذا البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً)^٣ .

ذكر ذلك وهو يتحدث عن الاستعارة المقيدة ثم نراه في نص آخر يربط الصورة بدوافع نفسية بالاضافة الى الخصائص الذوقية والحسية حيث تجتمع هذه الخصائص جميعاً عبر وشائج وصلات حية لتعطي الصورة شكلاً ورونقاً وعمقاً مؤثراً لان (التمثيل اذا جاء في اعقاب المعاني او ابرزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الاصلية الى صورته كساها ابهة وكسبها منقبة ، ورفع من اقدارها

^١ - كتاب الصناعتين : ابو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل

ابراهيم - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه - د.ت : ١٩٠

^٢ - المصدر السابق ص ١٧٩

^٣ - أسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق هـ . ريتير - مطبعة وزارة المعارف - الطبعة الثانية ١٩٥١م ص ٤١ .

وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس ودعا القلوب اليها واستثار لها اقاصي الافئدة صباية وكلفاً ، وقسر الطباع على ان تعطيتها محبة وشغفاً^١ .

فبعد القاهر الجرجاني لم يهمل الاثر النفسي واهميته في تكوين وتشكيل الصورة فأتسام تحليلية العميق للخلق والابداع الشعريين على الذوق الفني المرهف وما تشيره مفردات البيان العربي او ضروريه الفنية من استجابة فنية في نفس متلقيها ، فبدا البيان العربي عند قائماً على الذوق والتذوق^٢ .

ويبلغ الجرجاني ذروة إبداعه الفني والنقدي في دراسته للصورة حينما ينظر إليها نظرة متكاملة لاتقوم على اللفظ وحده او المعنى وحده بل انهما عنصران مكملان لبعضهما ما اذ يقول في ذلك (واعلم ان قولنا الصورة انما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا)^٣ .

ويرى احد الباحثين ان مفهوم مصطلح الصورة عند الجرجاني قد استقر على أركان ثلاث^٤ :

أولهما: تناول الصورة والتصوير في خضم البحث البلاغي .

وثانيهما : هضم معاني الصورة لغةً واصطلاحاً من شتى مصادرها الأصلية وربطها بالنظرية الأدبية العربية التي ترى ان القول صناعة في عملية خلقها وفي غايتها .

وثالثهما : يتلمس مصادر الصورة الأدبية ووسيلة خلقها ومعيار تقويمها في الواقع بابعاده الموروثة ومقوماته الحيوية .

^١ - أسرار البلاغة ص ١٠١ وما بعدها.

^٢ - الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث : بشرى موسى صالح- المركز الثقافي العربي بيروت- الطبعة الاولى -١٩٩٢م ص ٢٤.

^٣ - دلائل الاعجاز: عبد القاهر الجرجاني -قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٩م ص ٣٢٠ .

^٤ - بناء الصورة الفنية في البيان العربي دراسة موازنة : كامل محمد البصير - مطبعة كلية الآداب - الجامعة المستنصرية ص ٤٢ .

فدراسة الصورة عند عبد القاهر هي دراسة متميزة ونظرته نظرة تغاير المفاهيم التي سبقت دراساته مما يحفزنا الى اعتداده الناقد الاول الذي بسط القول في الصورة مفهوماً واصطلاحاً^١.

فالتراث العربي قد عرف الصورة مصطلحاً ومفهوماً ولم يبخل حقها ، وان اختلفت تسمياتها لدى النقاد والبلاغيين العرب القدامى.

التصوير الفني في المقامات :

أولاً : البيان وصوره في مقامات القرنين السابع والثامن الهجريين :

مُمَارِسُ صِنَاعَةِ الْكَلَامِ قَوْلًا وَكِتَابَةً يُلَاحِظُ أَنَّ اللُّغَاتِ جَمِيعَهَا بِحَسَبِ أَوْضَاعِهَا اللُّغَوِيَّةِ، الَّتِي جَرَى فِيهَا وَضْعُ كُلِّ كَلِمَةٍ أَوْ عِبَارَةٍ لَتَدُلَّ عَلَى مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى، مَهْمَا اتَّسَعَتْ فَإِنَّهَا لَا تَكْفِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي تُدْرِكُهَا الْأَذْهَانُ، وَالِدَّلَالَةُ عَلَى الْمَشَاعِرِ الَّتِي تُحَسُّ بِهَا النَفُوسُ.

ومع أنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَوْسَعَ اللُّغَاتِ الْعَالَمِيَّةِ وَأَثَرَاهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْفِكْرِيَّةِ وَالْمَشَاعِرِ النَّفْسِيَّةِ، فَإِنَّ هَذَا الْحُكْمَ يَشْمَلُهَا، إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُدُودِ الْأَوْضَاعِ اللُّغَوِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ وَلِلْعِبَارَاتِ .

والذاكرة الإنسانية مهما عظمت قدرتها على استيعاب المفردات اللُّغَوِيَّةَ مَقْرُونَةً بِدَلَالَاتِهَا عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا، وَمَهْمَا عَظُمَتْ قُدْرَتُهَا عَلَى اسْتِدْعَاءِ مَا تَحْتَاجُ مِنْ هَذِهِ الْمَفْرَدَاتِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، لِلدَّلَالَةِ بِهَا عَلَى مَا تُرِيدُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْنَى، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَوْعِبَ وَتَحْفَظَ كُلَّ مَفْرَدَاتِ اللُّغَةِ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَذْكُرَ دَوَاماً كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَفْرَدَاتِ وَالتَّعْبِيرَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، لِتَقْدِمَهَا إِلَى أَدَاةِ التَّعْبِيرِ بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْقَلَمِ عِنْدَ الْحَاجَةِ^٢ .

لَكِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ أَتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قُدْرَةً فَائِقَةً عَلَى التَّعْبِيرِ عَمَّا يَرِيدُ مِنْ مَعَانٍ ذَهْنِيَّةٍ، وَمَشَاعِرِ نَفْسِيَّةٍ عَنْ طُرُقٍ أُخْرَى غَيْرِ طَرِيقِ الْأَوْضَاعِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي وُضِعَتْ بِهَا الْمَفْرَدَاتِ وَالْعِبَادَاتِ لَتَدُلَّ دَلَالَةً مُبَاشِرَةً عَلَيْهَا، فَهُوَ يَحْتَالُ لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا يَرِيدُ التَّعْبِيرَ

^١ - الصورة المجازية في شعر المتنبي ص ١٦ .

^٢ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٥٦٠ .

عنه من خلال ما تُسَعِّفه به ذاكرته من مفرداتٍ وعباراتٍ بواحد فأكثر من الطُّرُق
التالية :

الطريق الأول : طريق التَّشْبِيهِ والتَّمثِيل، واستخدام النِّظِير لِيَدُلَّ على
نظيره .

الطريق الثاني : طريق اللّوْازِمِ الفِكْرِيَّةِ الَّتِي تُدْرِكُهَا الْأَذْهَانُ لَدَى إِدْرَاكِ أَشْيَاءٍ
تستدعيها بالّلُزُومِ الذّهني، فيُذَكِّرُ الْأَلْفَاظَ الدَّالَّةَ على هذه الأشياءِ مشيراً بِهَا إلى
لوازمها الذهنيّة، طول الثوب الَّذِي يَسْتَدْعِي بِاللّزُومِ الذّهني طُولَ لابسِه، وَكَرُوبَةِ
النجوم رُوبَةٍ وَاضِحَةٍ الَّتِي تَسْتَدْعِي بِاللّزُومِ الذّهني كَوْنَ هذه الرُوبَةِ حاصِلَةً في اللَّيْلِ،
وهذا ما يُسَمَّى بالكناية.

الطريق الثالث : طريقُ ذِكْرِ أَشْيَاءٍ يُبَيِّنُ ذِكْرُهَا على أشباهها، أو أضدادها، أو
ما يخالفها، فيكون ذِكْرُهَا مشيراً بتعريضٍ إلى تِلْكَ الْأَشْبَاهِ أو الْأَضْدَادِ أو المَخَالَفاتِ،
وهذا ما يُسَمَّى بالتعريض.

الطريق الرابع : طريق استخدام لَفْظٍ مَكَانَ لَفْظٍ آخَرَ صَالِحٍ لِأَنْ يَدُلَّ على
معناه لعلاقة بينهما، وهذا ما يُسَمَّى بالمجاز.

وفتحت هذه الحيل التعبيرية آفاقاً واسعة جداً لانتقاء صُورٍ جَمَالِيَّةٍ لَا تُحْصَى،
يتحقّق بها الغرضان المهمّان من أغراض الكلام وهما :

. الغرض الأوّل : إِفْهَامُ الْمُتَلَقِّي ما يُريد المتكلّم التعبير عنه .

. الغرض الثاني : إِمْتَاعُهُ بِصُورٍ جَمَالِيَّةٍ يشتمل عليها الكلام، ولهذا الإمتاع
تأثيرٌ في النفوس ، وقد يكون وسيلة لقبول المضمون الفكري الذي دلّ عليه الكلام،
ولا اعتقاده، وللعمل بمقتضاه^١ .

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٥٦١ .

التشبيه والتمثيل في المقامات :

التشبيه والتمثيل في اللغة مترادفان معناهما واحد، وهو بيان وجود صفة أو أكثر في المشبه مُشابهة لما يَظهرُ من صفاتٍ في المشبه به. والتشابه اشتراك شيئين فأكثر في صفةٍ أو صفاتٍ متماثلات ، وقد يؤدي هذا الاشتراك إلى اللبس وعدم القدرة على التَّعْيِين، إذا كان المطلوب فرداً معيَّناً أو صنفاً معيَّناً فيه هذه الصفة أو الصفات ^١ .

المعنى الاصطلاحي :

المعنى الاصطلاحي عند البيانين للتشبيه والتمثيل مطابق للمعنى اللغوي، وقالوا في تعريفه أقوالاً أحسنها:

"الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنىٍ من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرضٍ ما".

وخصَّ البيانين لفظ "التمثيل" بالتشبيه المركَّب الذي يكون وجه الشبه فيه منتزِعاً من متعدّد.

التشبيه :

هو الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنىٍ من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرضٍ ما ولا يكون وجه الشبه فيه منتزِعاً عن متعدّد.

أركان التشبيه :

من الواضح بداهة أنّ لكلّ تشبيهٍ أركاناً أربعة تدلُّ عليها ألفاظٌ تُذكر في التشبيه، وقد يحذف بعضها لغرضٍ بياني :

. الركن الأول: المشبه .

. الركن الثاني: المشبه به .

. الركن الثالث : أداة التشبيه ، وتأتي أداة التشبيه حرفاً ، أو اسماً ، أو فعلاً .

فالحرف له لفظتان :

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٥٨٨ .

١/ "الكاف" ويليها المشبّه به مثل قول الله عزّ وجلّ في قوله تعالى : { وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ... }^١ .

٢/ "كَأَنَّ" ويليها المشبّه به، وتفيد التشبيه إذا كان خبرها جامداً أو مؤوّلاً بجامد، مثل قول الله عزّ وجلّ في قوله تعالى : { وَإِذَا تُلُتَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }^٢ .

قالوا: والتشبيه بكأنّ أبلغ من التشبيه بالكاف، لأنّها مركّبة من الكاف وأنّ.

والاسم له ألفاظ، منها: "مِثْل - شِبْه - شَبِيه - نظير - مِثِيل" ونحوها.

والفعل له ألفاظ، منها: "يُشَبِّه - يُمَاطِل - يُنَاطِر -" ونحوها من كلّ ما يدلّ

على تشبيه بشيء.

الركن الرابع : وجهُ الشبّه، وهو ما لوحِظَ عند التشبيه اشتراك المشبّه والمشبّه به في الاتّصاف به، من صفة أو أكثر، ولو لم يتساويا في المقدار، ولو كانت ملاحظة الاشتراك خياليّة غير حقيقيّة، كتشبيه رأس إنسانٍ منفردٍ مُرعبٍ برأس الغول ، وتشبيه السّاحرة بأنّ وجهها كوجه شيطان .

وقد أكثر الشباب الظريف من التشبيهات مستخدماً كل أدوات التشبيه المعروفة مثل ذكر المشبه والمشبه به وأداة الشبه كما يظهر في قوله : (... ثم ثنى عطفه ، وقد يئست عطفه ، فقلت أرضى منه بما سنع ، وأقنع إن بخل أو سمح ، فبينما أنا بعض الأيام أفكر ، وأقدم في الرأي وأؤخر ، إذ مرّ بي بعض الأصحاب ، فقال يا ذا الوله والانتحاب ، إن من أنت مغرم به مشوق قد زمّت لبينه النوق ، وقد عزم بلا اشتباه ، على الحج إلى بيت الله ، فذب سقماً ، وعض بنانك ندماً ، وقل لأجفانك يبيكين عوض الدموع دماً ، فصدعني قوله كما صدع الصفا المعول ، وبقيت كأنّي مرزأة تكلّي ترن وتعول ، ثم نهضت إلى توديعه ، وقد ودّع الجفن طول هجوعه ، فلم أر إلا نياقاً تسير ، وحدادة إلى المزار تشير ، واستقلت به طريقه ، وأنا أود أني رفيقه ، وأنشد :

^١ - سورة النحل ، الآية ٧٧ .

^٢ - سورة لقمان ، الآية ٧ .

ولما التقينا للوداع وللجوى سكون بقلبي طال منه خفوقه
لثمت ثناياه وقبّلت فرقه وقد جدّ وجد بالفؤاد يشوقه
فقد راعني يوم الفراق وراعني بحسن وحزن فرقه وفريقه
ثم بكى بدمع كالجمان المبدد ، واشتمل من غرامه وأنشد :
لما رأى روعي تحن لقربه حتى تعجل بالبعاد فراقها
تالله ما نظرت عيوني مذ نأى أحداً سواه من الأنام فراقها
فلم يبق من الجماعة إلا من أثى عليه وشكر ، وطرب من حميا بلاغته
وسكر ...)^١ .

فانظر كيف رسم هذه الصورة التمثيلية مستفيداً من مقدرة علم البيان في
توصيل المعاني فهو ويقول : [فصدعني قوله كما صدع الصفا المعول ، وبقيت
كأني مرزأة ثكلى ترن وتعول] فقد استخدمت التشبيه التمثيلي لتصوير حاله وقد
نزلت عليه مصيبة فراق المحبوب وانصدع لها كما ينصدع الحجر الصلد المعول
فاضحى حاله أشبه بحال تلك الثكلى التي تبكي وتكثر العويل على مصابها ، ولا
يخفى علينا استخدام حروف التشبيه [حرف الكاف وكأن] في هذا المثال .
وقال الشاب الظريف : (... يميم كالقضيبي ويرنو كالرشأ الريب ، قد
حمى ورد خده وأقاح ثغره بعقارب أصداعه وحيات شعره ...)^٢ .
فالشاعر يشبه المحبوب هنا بالقضيبي في الميل والميسان ، كما يشبهه بالرشأ
الريب في النظر .

وقال الشاب الظريف : (... فإني مررت ببعض الأحايين بسوق الرياحين ،
مع صاحب أحسن خلقاً من الهلال ، وألطف خلقاً من الراح الشمول والريح الشمال ،
وأنا أفأوضه في حديث الفتیان وأقول له فلان أحسن من فلان ، ثم نظرت عن
الشمال فإذا شادن كالهلال قد كساه الجمال أترف حل ، وأسكنه في أشرف حل :
كالغصن في هيف والبدر في شرف

^١ - ديوان الشاب الظريف ص ٦٣ .

^٢ - المصدر السابق ص ٥٨ .

والشمس في صلف والظبي في كحل
أغن معتدل الأطراف مائلها ويلاه من مائل الأطراف معتدل
له وجه كأن البدر شقيقه ، قد حباه من الروض آسه وشقيقه وثغر أقام به رحيقه ،
وخذ سرى إلى القلوب حريقه لشاب^١ .
فقد وصف الشاعر محبوبه بالهلال تارة وبالبدر تارة أخرى بل جعل البدر
شقيقه .

^١ - ديوان التلعفري ص ٦١.

الاستعارات في المقامات :

الاستعارة في اللغة : طلبُ شيءٍ ما للانتفاع به زمناً ما دون مقابل، على أن يَزُدَّ المستعير إلى المُعِير عند انتهاء المدّة الممنوحة له، أو عند الطلب.

الاستعارة في اصطلاح البيانين: استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِعَ له في اصطلاح به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب .

قال عبد القاهر الجرجاني : (اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروفٌ تدلُّ الشواهد على أنه اخْتُصَّ به حين وُضِعَ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعاريّة ^١) .

وعرّفها السكاكي : (هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به) ^٢ .

وهي من قبيل المجاز في الاستعمال اللغوي للكلام، وأصلها تشبيهٌ حُذِفَ منه المشبّه وأداة التشبه ووجهُ الشبّه، ولم يبق منه إلّا ما يدلُّ على المشبّه به، بأسلوب استعارة اللفظ الدالّ على المشبّه به، أو استعارة بعض مشتقاته، أو بعض لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلاً عن ذكر لفظ المشبّه، ملاحظاً في هذا الاستعمال ادّعاء أنّ المشبّه داخل في جنس أو نوع أو صِنْف المشبّه به، بسبب مشاركته له في الصفة التي هي وجه الشبّه بينهما، في رؤية صاحب التعبير ^٣ .

وأركان الاستعارة على هذا أربعة :

١/ اللفظ المستعار .

٢/ المعنى المستعار منه، وهو المشبّه به.

^١ - أسرار البلاغة ص ١٠ .

^٢ - مفتاح العلوم ص ١٦٣ .

^٣ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٦٣٦ .

٣/ المعنى المستعار به، وهو المشبّه .

٤/ القرينة الصارفة عن إرادة ما وُضِعَ له اللَّفْظ في اصطلاح به التخاطب.

والقرينة دليلٌ من المقال، أو من الحال، أو عقليٌّ صرف.

ولم يذكر البيانّيون هذا الركن وقد رأيت إضافته لأنّه إذا فقدت القرينة لم تصحّ الاستعارة .

قالوا في التفريق بين الاستعارة والتشبيه أنّه يشترط في الاستعارة تناسي التشبيه، وادّعاء أنّ المشبّه فردٌ من أفراد المشبّه به، ولا يُجمَعُ فيها بين المشبّه والمشبّه به على وجه يُنبئ عن التشبيه، ولا يُذكرُ فيها وجه الشبّه، ولا أداة التشبيه لا لفظاً ولا تقديرًا .

وقد امتدح عبد القاهر الجرجاني الإستعارة بأنها : (أمدٌ ميداناً ، وأشدُّ افتتاناً ، وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعةً وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً في الصّناعة وغوراً ، من أن تُجمَعَ شُعَبُها وشُعُوبُها ، وتُحصَر فنونها وضروبها ، نعم ، وأسحرُ سِحراً ، وأملأ بكل ما يملأ صدراً ، ويُمتع عقلاً ، ويُؤنس نفساً ، ويوفر أنساً ، وأهدى إلى أن تُهدي إليك أبداً عَذَارَى قد تُخَيَّر لها الجمال ، وعُنيَ بها الكمال وأن تُخرج لك من بحرِها جواهر إن باهتتها الجواهر مدّت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليّة محاسن لا تُنكر ، وردّت تلك بصُفرة الخجل ، ووكلتها إلى نسبتهَا من الحجر وأن تُثير من معدنها تيراً لم تر مثله ، ثم تصوغ فيها صياغاتٍ تُعطّل الحليّ ، وتُريك الحليّ الحقيقي وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا ، وفضائل لها من الشرف الرُتبة العليا ، وهي أجلُّ من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفي جملةً جمالها ، ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مُستجدةٍ تزيد قدره نُبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً)^١ .

يقول الشاب الظريف مستخدماً الإستعارات في تقريب ورسم صوره الفنية في مقامته : (... وقل لأجفانك يبكين عوض الدموع دماً ، فصدعني قوله كما صدع

^١ - أسرار البلاغة ص ١٤ .

الصفاء المعول ، وبقيت كأني مرزأة تكلّي ترن وتعلو ، ثم نهضت إلى توديعه ، وقد ودّع الجفن طول هجوعه ، فلم أر إلا نياقاً تسير ، وحدادة إلى المزار تشير ، واستقلت به طريقه ، وأنا أود أني رفيقه ، وأنشد :

ولما التقينا للوداع وللجوى سكون بقلبي طال منه خفوقه
لثمت ثناياه وقبّلت فرقه وقد جدّ وجد بالفؤاد يشوقه
فقد راعني يوم الفراق وراعني بحسن وحزن فرقه ورفيقه
ثم بكى بدمع كالجمان المبدد ، واشتمل من غرامه وأنشد :
لما رأى روعي تحن لقربه حتى تعجل بالبعد فراقها
تالله ما نظرت عيوني مذ نأى أحداً سواه من الأنام فراقها
فلم يبق من الجماعة إلا من أثنى عليه وشكر ، وطرب من حميا بلاغته
وسكر ...)^١ .

فانظر إليه كيف أجاد في تشخيص الجفن جرّد منه إنساناً على سبيل
الإستعارة المكنية فقال : [ودّع الجفن طول هجوعه] ، وهاهي الروح أيضاً تحن إلى
قرب المحبوب أيضاً على سبيل الإستعارة المكنية .

ويذهب ابن المعظم في هذا الإتجاه [اتجاه الإستعارة المكنية] حينما يذهب
إلى تشخيص الهوى ويجعله إنساناً يغلب ويسلب ويخلب ويغوي ويغري ويسرق
وينهب وكل ذلك على سبيل المجاز الي تركز عليه الصورة الفنية المبنية على
الإستعارات فيقول : (... ما لي خصم إلا الهوى ، الذي أوقعني في أبعد الهوى
وأني ما رأيت مثله غلاباً ، سلاباً ولا قلاباً ، خلاباً ، لم يزل يغويني ويغريني ، وما
يدري أنه يرديني ، وسرق الخبايا وينهب الخفايا ، وكذلك العي والعياء ، والجهل
والحياء ، فقال إن هذا لهو الداء العياء ، والداهية الدهياء ...)^٢ .

^١ - ديوان الشاب الظريف ص ٦٣ .

^٢ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ١٥ .

وقال ابن المعظم : (... فرجف قلبي ووجف ، وأخذة الأسى والأسف على ما أسرف وأسلف ، وخالف وخلف واعترف بما اغترف وتكسر على ما تعاسر ، وتحسّر على ما تجاسر ...)^١ .

فقد قام ابن المعظم بتشخيص القلب وأثبت له الخوف والإرتجاف على سبيل المجاز الذي استفاد منه الديب في بناء الصورة الفنية التي خرجت على سبيل الإستعارة المكنية .

^١ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٥٢ .

الكنايات في المقامات :

المعنى اللغوي : الكناية في اللغة : فهي أن تتكلم بشيء وتريد غيره. يُقالُ
لُغَةً: كَنَى عَنِ الأَمْرِ بغيره يَكْنِي كِنَايَةً، أي: تَكَلَّمَ بغيره ممَّا يُسْتَدَلُّ به عليه ، ويُقالُ:
تَكْنَى إِذَا تَسَتَّرَ، مِنْ كَنَى عَنْهُ إِذَا وَرَى .

فأصل الكناية ترك التصريح بالشيء، وستُّهُ بحجابٍ ما، مع إرادة التعريف به
بصورة فيها إخفاء ما بحجابٍ غير ساترٍ سِتْرًا كاملاً .

وفي الاصطلاح : الكناية هي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في اصطلاح
التخاطب للدلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحبٍ له، أو يُشارُ به عادةً
إليه، لما بينهما من الملابس بوجهٍ من الوجوه .

وتُطلقُ أيضاً على استعمال اللفظ من قِبَلِ المتكلم فيما ذُكر في التعريف.
وبهذا نلاحظ أن المعنى الاصطلاحي للكناية قريبٌ من المعنى اللغوي لها.

فرق ما بين الكناية والمجاز:

إنَّ إرادة المعنى الأصلي للفظ مع إرادة المعنى الآخر الذي يُكْنَى باللفظ عنه
جائزٌ ولكنها غير لازمة دائماً، فقد يُرادان معاً، وقد تُهْمَلُ إرادة المعنى الأصلي ويرادُ
المعنى الآخر فقط، فقد يُقالُ: فُلَانٌ كثيرُ الرَّمَادِ، أي: مضافٌ جواد، مع أنَّه لا
يَطْبُخُ الطعامَ لضَيُوفِهِ الكثيرين بنار الحطب الذي يُخَلَّفُ رماداً، إنّما يطبخُ لهم
بالأفران الكهربائية أو الغازية .

وبهذا يظهر الفرق بين الكناية والمجاز، فالمجاز لا يصحّ معه إرادة المعنى
الحقيقي للفظ، بل يتعيّن فيه إرادة المعنى المجازي فقط، مثل: خطب الأسد المغوار
خُطْبَةً عظيمة في الجيش ألهب بها المشاعر، واستثار الحماسة. فلفظ "الأسد" هنا
مجاز عن الرجل الشجاع، ولا يصحّ أن يُرادَ به معناه الحقيقي، وهو الحيوان المفترسُ
المعروف^٢ .

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٦٣٦.

^٢ - المصدر السابق ص ٥٦٧.

وتدخل الكناية في عموم التعبير عن المراد بأسلوب غير مباشر، فهي ممّا يتوارى، أو يختفي بساتر، ويُدلُّ على المقصود بلازم له، أو مقارن له، أو بطرفٍ من أطرافه، أو نحو ذلك.

أقسام الكناية :

قسّم البيانويون الكناية إلى كناية عن صفة، وكناية عن موصوف، وكناية عن نسبة حكميّة بين المُسند والمُسند إليه (= المحكوم به والمحكوم عليه) وهذه الأقسام أقسامٌ تحليليّة غير ذات جدوى - على ما أرى - في تربية ذوق بياني أدبيّ، وقد رأيت الإعراض عن شرح هذه الأقسام وتحليل الأمثلة على وفقها، والاكتفاء بذكر مثال لكل منها، والاهتمام ببيان ما هو ذو فائدة بيانيّة أدبيّة.

. فعبرة: "طويل النجاد" كناية عن صفة هي طول قامته.

. وعبرة: "جاء قابض يده" كناية عن موصوف، أي: جاء البخيل.

. وعبرة: "إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا" كناية عن نسبة إمداده

لها بالبقاء في الوجود، كالكهرباء لبقاء النور في المصباح الكهربائي إذا انقطع إمداده انعدم النور منه، ولله المثل الأعلى.

ويرى بعض العلماء تقسيم الكناية إلى قريبة وبعيدة :

أمّا الكناية القريبة: فهي الكناية التي قلّت لوازمها الذهنيّة، أو كانت فيها العلاقة أو الملازمة بين المكنّى به والمكنّى عنه أمراً لا تتدخل فيه وسائط ذوات عدد، وهذه الكناية تكون في العادة وفي معظم الأمثلة واضحة ظاهرة، يسهل على معظم الناس إدراك المقصود منها.

كأن نقول: فلانٌ ثوبه طويل، وقلنسوته كبيرة، وحذاؤه يتسع لقدمين، أي: هو

طويل القامة، عظيم الرأس، كبير القدم.

وقد تكون مع قُرْبها خفيّة إذا كان اللزوم فيها أو كانت العلاقة أو الملازمة

بين المكنّى به والمكنّى عنه أمراً خفياً^١.

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٥٦٨ .

وقد حفلت مقامات القرنين السابع والثامن الهجريين بالكثير من الكنايات ،
وقد أجاد بعض كتّاب تلك المقامات في توظيف الكناية لرسم الصور الفنية وهذه
بعض الأمثلة على ذلك :

قال ابن المعظم في المقامة العنسية : (... فاکرمني القاضي وكفاني ، ،
ومأ جفاني ، وما جفاني ، فخرجت من عنده وأنا أجر ذيل الغنى ، وأسر بنيل
المنى ، فحسدني بعض الحاضرين ، فقال للقاضي أتدري ما فعل هذا الخادع ، وما
صنع هذا الملحف المصدع ، قال لا قد أنشب شصه ، وجلا فصه ، وتلا نصه ،
ونصب عليك الحبائل ، وندد بك في القبائل ...)^١ .

فعبارة [فخرجت من عنده وأنا أجر ذيل الغنى] كناية عن وصف لكثرة المال
الذي وهبه هذا القاضي للراوي .

وقال الشاب الظريف : (... فوالذي خلع من الجمال ملابس ، وأذل له نفوساً
من العشاق نفائس ، وجمع بين صبح غرته وليل طرته ، وأمال تمايل الخطار
بخطرته ، وأطلق الدمع فيه بأسره ، وجعل القلوب مقيدة بأسره ، ما تعرّضت له إلا
وأعرض ، ولا رمت قربه إلا وصرّح وعرض ، ولا طلبت منه الوصال إلا نفر عجباً
وصال ، ولا بذلت له المال ، إلا تنثى دلالةً ومال ...)^٢ .

فتعبير [وجعل القلوب مقيدة بأسره] كناية عن شدة تعلق القلوب بهذا
المحبوب فقد جعلها الشاعر أشبه بالأسير المقيد الذي لا يستطيع فكاً من أسره .
وقال ابن المعظم : (... وإن خصمك ألد الخصام ولكن ما لعروته انفصام
فاحتبس واعتكف على التكرار والدرس والجهد وكد النفس ، والإنكباب على الدراسة
على التوالي ، وظماً الهواجر وسهر الليالي ...)^٣ .

فقوله [ظماً الهواجر] كناية عن الصيام والنهار ، أما قوله [سهر الليالي]
فكناية عن القيام وعدم النوم بالليل .

^١ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٢٨ .

^٢ - ديوان التلعفري ص ٥٥ .

^٣ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ١٥ .

وقال الشاب الظريف : (... فإذا أنا منه حاطب ليل غير مقمر ، وشائم برق
خَلَب غير ممطر ، فإذا عهود وصاله أكذب من طيف خياله ...)^١ .
فقول الشاعر [حاطب ليل] وهو كناية عن موصوف وفي المثل [أَخْبَطُ مِنْ
حَاطِبِ لَيْلٍ] لأن الذي يحتطب ليلاً يجمع كلَّ شيء مما يحتاج إليه وما لا يحتاج
إليه فلا يدري ما يجمع^٢ .

وقال ابن الوردي في المقامة الأنطاكية : (... وما أنطاكية لو كان عندك
إنصاف إلا طرف سكنته الأطراف ، فلو أنك جمعت بين الأختين وأرهقت العدة
لنقص البيعتين ، وأغلقت باب البحر وجسرت على قطع الجسر ، وسودت البيضاء
وأبيضت الخضراء ...)^٣ .

فقول ابن الوردي [وسودت البيضاء وأبيضت الخضراء] كناية عن صفة بذل
الجهد وإفراغ الوسع في عمل الشيء .

وقال الشاب الظريف : (... فلما سمعت ما قاله ووعيت ، لويت عطفي عنه
وما ألويت ، ورحت وبى جوى وبى ، وعلمت أن ليس لي نصير في الغرام ولا ولي
...)^٤ .

فالكناية هنا عن صفة وهي في قوله [لويت عطفي] والمراد بهذه الكناية هنا
التحول والإنصراف عن الشيء .

وقال ابن المعظم : (... وقال والله لم يبق في كنانتي سهم ، وليس ينزع عن
قومك سهم ، فقلت يا فتى هذا بساط قد طويته منذ حين وهو عندي يستوجب
التهجين ، فإن تعريض العمر للإضاعة مع قلة البضاعة ، من شيم الأغمار ، ومن
لا يهتم بقصر الأعمار ، ومهدي بهذا النمط ولم يعترض نففض الشمط ، والغصن
إذ ذاك رطيب ، وبرد الشباب قشيب ...)^٥ .

^١ - ديوان التلعفري ص ٥٤ .

^٢ - مجمع الأمثال ٢٦١/١ .

^٣ - ديوان ابن الوردي ص ٢٧ .

^٤ - ديوان التلعفري ص ٥٩ .

^٥ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٣٨ .

فانظر إلى جمال الكناية في قوله [لم يبق في كنانتي سهم] وهو تعبير
كنائي جميل .

قال ابن منظور : (والكنانة جعبة السهم تتخذ من جلود لا خشب فيها أو
من خشب لا جلود فيها الليث الكنانة كالجعبة غير أنها صغيرة تتخذ للنبل ، قال ابن
دريد : كنانة النبل إذا كانت من آدم فإن كانت من خشب فهو جفير ، وفي الصحاح
: الكنانة التي تجعل فيها السهام)^١ .

وأيضاً من بديع الكنايات قوله [والغصن إذ ذاك رطيب] أراد بذلك القول أنه
كان في ريعان الشباب وشرح الصبا .

^١ - لسان العرب ١٣/ ٣٦٠ .

البدیع فی المقامات :

اكتشف البلاغيون في النصوص البليغة ذات البيان الرفيع منثورات جمالية متفرقة، لفظية ومعنوية، وهذا المتفرقات المتناثرات يغسُر تأليفها في أبواب وفصول، ولا يتضح في معظمها إلحاقها بعلمي المعاني والبيان، وسمّوا كلّ واحدٍ ممّا اكتشفوه منها باسم خاصّ به، وجمعوها في مُسمّى علم واحد، أطلقوا عليه اسم "علم البدیع" .

وهذه الجماليّات البديعة التي يوجد فيها جماليّات معنويّة عبّروا عنها بعبارة "محسّنات معنويّة" ويوجد فيها جماليّات لفظيّة عبّروا عنها بعبارة "محسّنات لفظيّة" لها طبيعة مشابهة لأنواع الزينة التي تتزيّن بها النساء، كقُرْطٍ، وسوارٍ، وخلخالٍ، وبقاةٍ ورْدٍ، ونبات أخضر مزهر، وتلّوين بصبغٍ أبيض أو أحمر أو أخضر أو أصفر أو غير ذلك، وتصفيف شعر وتثنيته وإرساله أو رفعه أو خفضه، وتقصير ثوب أو إطالته، أو شقّ جانب منه، أو تثقيب أو توشيته وتطريزه وزخرفته، أو حركات خفّة في الجسم، وتثنّ وتكسر في القامة وتضمير للخصر وإبرازٍ وتعظيم لمواضع جماليّة، إلى غير ذلك ممّا يدركه ذوّاقو الجمال، ويصعبُ إحصاؤه، وقد أحسّ البلاغيون أنّ الجماليّات التي اشتمل عليها علما المعاني والبيان جماليّات ذاتية، أمّا جماليّات علم البدیع فهي جماليّات عرضية.

فإذا كانت هذه الجماليّات البديعة على اختلافها في الكلام أو في الأجسام، أو في غير ذلك من كلّ ما يرى أو يُسمع أو يُدرك بالفكر مصطنعةً متكلّفةً، مُكرّهةً إكراهاً على الدخول في مواضع غير ملائمة لها، أو مكدوسة كدساً دون حسّ جماليّ رفيع، أعطت تأثيرات عكسيّة وربّما أفسدت الجوانب الجميلة التي كانت تُلحظ في المزيّن بها قبل إضافتها للتزيين بها^١ .

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٧٤٥ .

التورية :

التورية وتُسمّى "الإيهام" وهي : أن يذكّر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل الحقيقة والمجاز، أحدهما ظاهر قريب يتبادر إلى ذهن وهو غير مراد ، والآخر بعيد فيه نوع خفاء وهو المعنى المراد، لكن يُورَى عنه بالمعنى القريب ، لِيَسْبِقَ الذهن إليه وَيَتَوَهَّمَهُ قبل التأمل ، وَبَعْدَ التأمل يَتَنَبَّه المتلقّي فيُذَرِّكُ المعنى الآخر المراد ، وأصل التورية في اللغة: إرادة الشيء وإظهار غيره إيهاماً^١ .

يقول ابن الوردي : (... وإذا عين كعين الخنساء تجري على صخر ، ويقال ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادي ولا فخر ، فرويت كبد صاد من تلك العين ، ولكن نغص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين ، هذا وماؤها يجري على رأسه خدمة للورد ، ويطوف بنفسه سواء العاكف فيه والباد ...)^٢ .

ففي استخدام كلمة [عين] تورية لطيفة فقد أورد الكاتب ابن الوردي ، معنيين قريب وبعيد ، فالمعنى القريب المذكور في الكلام العين وهي الجارحة المعروفة وليس بمراد ، أما المعنى البعيد فهو عين الماء وهو المعنى المراد .

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٧٤٨ .

^٢ - ديوان ابن الوردي ص ١٦ .

الجناس :

الجناس ويسمى أيضاً "التجنيس" وهو في اللغة: المشاكلة، والاتحاد في الجنس، يقال لغة: جائسه، إذا شاكله، وإذا اشترك معه في جنسه، وجنس الشيء أصله الذي اشتق منه، وتفرع عنه، واتحد معه في صفاته العظمى التي تقوم ذاته . والجناس في الاصطلاح هنا: أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى ، وهو فنٌ بديعٌ في اختيار الألفاظ التي توهّم في البدء التكرير، لكنها تفاجئ بالتأسيس واختلاف المعنى .

ويُشترط فيه أن لا يكون متكلفاً، ولا مُستكراً استكراهاً، وأن يكون مستعذباً عند ذوي الحسّ الأدبي المرفه، وقد نَفَر من تصنّعه وتكلفه كبارُ الأدباء والنقاد^١ . قال ابن المعتز : (وهو أن تجيء الكلمة تُجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها. وقال الخليل الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو فمنه ما تكون الكلمة تُجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها)^٢ . وكعادة الأدباء في القرنين السابع والثامن الهجريين اهتم كتّاب المقامات بالمحسنات اللفظية كثيراً وأوردوها في مقاماتهم التي كان الهدف من كتابة بعضها في الأصل الإهتمام باللفظ دون غيره من مكونات المقامة .

ويقول ابن الوردي في المقامة المشهدية : (... هو الذي بدع اهل هذه البدعة ، وأطفأ شمعة السمعة ، وأمر بالمعروف المعروف ، وقبّح العكوف على هذا المألوف ، وسد فرج الفرج ، وداوى جرح الحرج ، ونبّه على لخط الغلط ، وكسر سقط السقط ...)^٣ .

١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٨٢٨ .

٢ - البديع لابن المعتز ص ٧ .

٣ - ديوان ابن الوردي ص ٣٨ .

فنحن نرى كيف حشد ابن الوردي في هذا النص الكثير من أنواع الجناس مثل : [شمعة / السمعة] و [العكوف / المألوف] و [جرح الحرج] و [لغط الغلط] .

وقال ابن المعظم في إحدى مقاماته : (... فاكرمني القاضي وكفاني ، ، وملاً جفاني ، وما جفاني ...)^١ .

فالجناس بين [جفان] الأولى وهي جمع جفنة وقد تقدّم شرح معناها ، وبين جفان الثانية وهي من الجفاء وهو البعد وعدم الوصل ، قال ابن منظور : (جَفَا الشيءُ يَجْفُو جَفَاءً وَتَجَافَى لَمْ يَلْزَمْ مَكَانَهُ ، الْجَفَاءُ الْبُعْدُ عَنِ الشَّيْءِ جَفَاهُ إِذَا بَعْدَ عَنْهُ وَأَجْفَاهُ إِذَا أَبْعَدَهُ)^٢ .

ويقول القلقشندي في مقامته : (... قلت لقد ذكرت قوما راقني وصفهم وشاقني لطفهم ودعاني طيب حديثهم وحسن أوصافهم وجميل نعتهم إلى أن أحل بناديهم وأنزل بواديهم فأجعل حرفتهم كسبي وصنعتهم دأبي ليجتمع بالعلم شملي ويتصل بالاشتغال حلي فأكون قد ظفرت بمنيتي وفزت ببغيتي فأبي قبيل من الكتاب أردت وإلى أي نوع من الكتابة أشرت ...)^٣ .

فالجناس بين قول الأديب [راقني وشاقني] وبين كلمتي [منيتي وبغيتي] وقد أكثر الشاب الظريف من ذكر الجناس في مقاماته وفي شعره أيضاً فمما جاء في الشعر : قال في الغزل^٤ :

لي من هواك قريبة وبعيدة ... ولك الجمال بديعة وغريبة
يا من أعيد جماله بجلاله ... حذراً عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عيني فإنك نورها ... أو لم تكن قلبي فأنت حبيبته
هل حرمة أو رحمة لمتيم ... قد قل فيك نصيره ونصيبه
ألف القصائد في هواك تغزلاً ... حتى كأن بك النسيب نسيبه

^١ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٢٨ .

^٢ - لسان العرب ١٤/١٤٧ .

^٣ - صبح الأعشى ١٤/١٣٠ .

^٤ - ديوان الشاب الظريف ص ٥٥ .

هب لي فؤاداً بالغرام تشبه ... واستبق فؤاداً بالصدور تشبيهه
لم يبق لي سراً أقول تذييعه ... عني ولا قلب أقول تذييه
فهذه اللوحة الأدبية مليئة بالتجنيس ، فقد جانس الشاعر بين [جماله وجلاله] وبين
[حرمة و رحمة] وبين [تذييعه وتذييه] وكله جناس غير تام .
وقال في مقامته : (... وقد يئست عطفه ، فقلت أرضى منه بما سنج ، وأقنع إن
بخل أو سمح ...)^١ .

ولا يخفى علينل الجناس الغير تام في كلمتي [سنج وسمح] .
ويقول ابن المعظم مستخدماً الجناس في بناء صوره الفنية : (... ما رأيت
مثله غلاباً ، سلاباً ولا قلاباً ، خلاباً ، لم يزل يغويني ويغريني ، وما يدري أنه
يرديني ، وسرق الخبايا وينهب الخفايا ، وكذلك العي والعياء ، والجهل والحياء ،
فقال إن هذا لهو الداء العياء ، والداهية الدهياء ...)^٢ .

فانظر إليه كيف توفق في جمع هذا العدد الكثير من الصور المتجانسة في
هذه السطور فقد جانس بين [غلاب سلاب ولا قلاب وخاب] وبين [يغوي ويغري
[، وبين يدري ويردي] ، و [الخبايا والخفايا] ، و [العي والعياء] .

وقال ابن المعظم أيضاً : (... حكى الصلصال بن الدهلمس دخلت على
عالم موصوف بالفقاهة ، معروف بالنباهة لأسأله عن بعض المسائل ، واستكشف
عنه ما عن من النوازل ، فوجدته حزينا كئيباً فقلت له ما هذه الكآبة ، وأنت بهذه
المثابة ، أما والله إن العالم العامل ملك سريره سريره ، وبصائر بصيرته ، وخزائنه
رزائنه ، وجنده جده وجده ، وخدمه قدمه وترسه درسه ، وسلاحه صلاحه ...)^٣ .

فقد جانس بين [بالفقاهة والنباهة] والفقاهة من الفقه وهو العلم بالشيء
والفهم له وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم كما
غلب النجم على الثريا والعود على المنذل .

^١ - ديوان الشاب الظريف ص ٦٣ .

^٢ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ١٥ .

^٣ - المصدر السابق ص ٢٠ .

قال ابن الأثير : (واشتقاقه من الشَّقِّ والفتح وقد جعله العُزْفُ خاصاً بعلم الشريعة شَرَّفَهَا الله تعالى وتخصيصاً بعلم الفروع منها)^١ .

والفقه في الأصل الفهم ، يقال : أُوتِيَ فلانٌ فقهاً في الدين أي فهماً فيه قال الله عز وجل [لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ]^٢ أي ليكونوا علماء به وفقَّهه الله ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال : (اللهم علِّمه الدين وفقَّهه في التأويل)^٣ أي فهَّمه تأويله ومعناه فاستجاب الله دُعاءه وكان من أعلم الناس في زمانه بكتاب الله تعالى وفقَّهه فقهاً بمعنى عِلْمٍ عِلْماً^٤ .

أما النباهة فمن نُبَه الرجل بالضم شُرِفَ واشتهر نباهةً فهو نَبِيهٌ ونابهٌ وهو خلاف الخامل ونَبَّهْتُه أنا رفعتَه من الخمول يقال أَشْبِعُوا بِالْكُنَى فَإِنَّهَا مَنبَهَةٌ ، وفي الحديث [فَإِنَّهُ مَنبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ]^٥ أي مَشْرِفَةٌ وَمَعْلَاةٌ من النَّبَاهَةِ يقال نُبَّهَ نُبُّهُ إذا صار نَبِيهاً شريفاً والنَّبَاهَةُ ضد الخُمُولِ^٦ .

وهناك كلمت أخرى متجانسة في النص وهي : [بصائره / بصيرته] ، [خزانته / رزاقته] ، [جنده / جده] ، [خدمه / قدمه] ، [ترسه / درسه] ، [سلاحه / صلاحه] .

وقال ابن المعظم : (... ثم أن الفتى لم يقبل مني مقالتي ، وأقبل إلى السلطان فعرفه حالتي ، فما راعني إلى المراكب وتوجه المراكب ، قلم أجد بداً من حضور سدته ، حذراً من تشديده وشدته ، فلم كلمته قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين ، فطلفت في ذكر الأعدار ، وذكرت إحتياج مثلي إلى الأسفار ...)^٧ .

^١ - النهاية في غريب الحديث والأثر ٩٠٣/٣ .

^٢ - سورة التوبة ، من الآية ١٢٢ .

^٣ - النهاية في غريب الحديث والأثر ٩٠٣/٣ .

^٤ - لسان العرب ٥٢٢/١٣ .

^٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٤/٥ .

^٦ - لسان العرب ٥٤٦/١٣ .

^٧ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٤٢ .

فقد جانس الأديب بين كلمتي [المراكب والمواكب] وأيضاً بين كلمتي
[سده وشده] .

الطباق :

الطباق : ويسمى: المطابقة، والتكافؤ، والتضاد ، والطَّبَاقُ في اللغة^١ : وضعُ طَبَقٍ عَلَى طَبَقٍ ، كوضعِ غِطاءِ القِدْرِ مُنْكَفِئاً عَلَى فَمِ القِدْرِ حَتَّى يُغَطِّيَهُ بِإِحْكَامٍ، ومنه إطباقُ بَطْنِ الكَفِّ عَلَى بَطْنِ الكَفِّ الآخَرِ، تقول : طابَقَ الشَّيْءُ عَلَى الشَّيْءِ مُطَابَقَةً وَطَبَاقاً، أي: أَطْبَقَهُ عَلَيْهِ، وهذا الإطباق يقتضي في الغالب التعاكس فَبَطْنُ الغطاءِ عَلَى بَطْنِ القدرِ يقتضي أن يكون ظهر الغطاءِ إِلَى الأعلى وَظَهْرُ القِدْرِ إِلَى الأسفل .

والطباقُ في الاصطلاح : هو الجَمْعُ في العبارة الواحدة بين معنيتين متقابلين، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهاماً، ولا يشترط كون اللَّفْظَيْنِ الدَّالِّينِ عليهما من نَوْعٍ واحدٍ كاسمين أو فعلين، فالشرط التقابل في المعنيتين فقط. والتقابل بين المعاني له وجوه ، منها ما يلي^٢ :

. تقابل التناقض : كالوجد والعدم ، والإيجاب والسلب .

. تقابل التضاد : كالأسود والأبيض ، والقيام والقعود .

. تقابل التضائيف : كالأب والابن ، والأكبر والأصغر، والخالق والمخلوق .

ومن الطباق نوع يختصُّ باسم "المُقابَلة".

المقابلة : هي طباقٌ مُتَعَدِّدٌ عَنَاصِرِ الفَرِيقَيْنِ المُتَقَابِلَيْنِ، وفيها يؤتى بمعنيتين فأكثر، ثُمَّ يُؤْتَى بما يُقَابَلُ ذَلِكَ على سبيل الترتيب.

والعنصر الجماليُّ في الطباق هو ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أنَّ المتقابلات أقرب تخاطراً إلى الأذهان من المتشابهات والمتخالفات .

ومن الأمثلة التي تدل على أن كتاب هذين القرنين [السابع والثامن] قد استخدمتا الطباق ضمن أنواع المحسنات البديعية الأخرى قول ابن الوردي في المقامة

^١ - لسان العرب ٢٠٩/١٠ .

^٢ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٧٥٢ .

المنبجية : (... فقال : شغله البادي والحاضر ، والواقع والطائر ، فوالى بين أربع دالات ، حتى كأنه راهن على هذه الثقالات ...)^١ .

فالطابق بين كلمتي [البادي والحاضر] ، وأيضاً بين كلمتي [الواقع والطائر

[.

وقال أيضاً : (... فلما علمت أن مولانا قاضي القضاة كمال الدين ، شيخ الإسلام والمسلمين ، لا زال نداءه مثل حرف النداء ، كفيلاً بضم الأقرين والبعداء من وصل به نال عرفاً ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفاً ، حتى يكون علمه علماً منصوباً ، وعواطفه للمعارف خبراً مبتدأً به منسوباً ، ولا برح مرفوعاً بفعل الحسنى ، فهي على الفتح تبنى ، هو الذي بدع أهل هذه البدعة ، وأطفأ شمعة السمعة ...)^٢ .

فهذا النص يعج بألوان البيان والبديع ، ففي قوله [الأقرين والبعداء] طابق وفي قوله [وصل به نال عرفاً] كناية عن صفة العطاء في هذا الممدوح ، وفي قوله [وعواطفه للمعارف خبراً مبتدأً به منسوباً] تورية وكذا في قوله [ولا برح مرفوعاً بفعل الحسنى ، فهي على الفتح تبنى] ، وهناك جناس بين كلمتي [شمعة / السمعة] .

ومثله قول الشاب الظريف : (... وغدا بديعاً في الجمال ، من حسنه المتطابق المثال ، وبها جماعة يتذكرون الأدب ، ويروون الشعر والخطب ، وبينهم شاب بدأت عليه أمارات الغرام ، وكست جسمه حلل السقام [كناية] ينثر من جفنه أدمعاً ينظمها في خده ، ويندب شجون غرامه وشؤون وجده ، فأحببت أن اعلم بشأنه وأحيط بسبب أشجانه فدنوت من الجماعة مسلماً عليهم ، وقد ساقني وشاقني ما رأيت من الروية إليهم ، فما منهم إلا من حي بأحسن ما حييت ، وأبدى محيا يقول له الناظر أحييت ، فقلت يا خير من احتبى وألطف من معنى الزهر في زمن الصبا

^١ - ديوان ابن الوردي ص ٣٣ .

^٢ - المصدر السابق ص ٣٨ .

وعيون الفضائل وأعيان الأفاضل أي ألم ألم بهذا الشاب ، وسقم لو شاب الرضيع
لشباب^١ .

وففي قوله [كست جسمه حلل السقام] كناية نسبة شدة المرض إلى هذا
الشباب حتى أنه بدا كأنه يرفل في حلل السقام .

ثم جانس الشاعر بين كلمتي [شاب وشاب] والأولى معناها أصاب وخالط
وأصلها من الشوب ، جاء في لسان العرب :

الشَّوْبُ الخَلْطُ شَابَ الشَّيْءُ شَوْبًا خَلَطَهُ وَشُبُّهُ أَشْوَبُهُ خَلَطْتُهُ فَهُوَ مَشُوبٌ
وَاشْتَابَ هُوَ وَاشْتَابَ اخْتَلَطَ^٢ .

والشباب الثانية معناها أصبح شاباً من الشَّبَابِ الفَتَاءِ والحدائثُ شَبٌّ يَشِبُّ شَبَاباً
وشبيبة^٣ .

وهناك طباق بين كلمتي [الرضيع والشاب] .

^١ - ديوان التلعفري ص ٥٧ .

^٢ - لسان العرب ١ / ٥١٠ .

^٣ - المصدر السابق ١ / ٤٨٠ .

السجع :

السَّجْعُ ، يقال لغة: سَجَعَتِ الحمامَةُ أو النَّاقَةُ سَجْعاً، إِذَا رَدَّدَتْ صَوْتَهَا عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ ، ويقال: سَجَعَ المتكلمُ في كلامه، إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لَهُ فَوَاصِلُ كَفَوَاصِلِ الشَّعْرِ مُقَفًى غير موزون .

والسَّجْعُ في البديع: هو تَوَاطُؤُ الفاصلتين من النَّثْرِ على حرف واحد، وهو في النَّثر كَالْقَافِيَةِ في الشعر^١ .

وأفضل السجع ما كانت فِقْرَاتُهُ متساويات، مثل : قول الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه المتضمن الحثَّ على الإنفاق في الخير، والتحذير من الإمساك : (اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا) .

وقول أعرابي ذهب السَّيْلُ بِأَبْنِهِ : (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْلَيْتَ، فَإِنَّكَ طَالَمَا قَدْ عَافَيْتَ) .

يُقالُ لغة: بَلَاهُ وَأَبْلَاهُ، إِذَا اخْتَبَرَهُ، والمصائب من الأمور التي يختبر الله بها عباده كالنَّعَمِ ، قولهم: "الْحَرُّ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا أَعَانَ كَفَى، وَإِذَا قَدَرَ عَفَا".

وقد جاء في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم النَّهْيُ عن سَجْعِ الْكُفَّانِ، إِبْعَاداً عن التَّشْبِهِ بِهِمْ، وَهُوَ غير السَّجْعِ الذي إِذَا كان تَلْقَائِيًّا غير متكلف ولا مُلتَزِمَ به في كُلِّ الكلام، كان من المحسنات اللفظية، وكان من البديع، لوروده في القرآن وفي أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.

والأَسْجَاعُ مَبْنِيَّةٌ على سَكُونِ الْأَعْجَازِ (أي : الأواخر) مثل : "مَا أَبْعَدَ مَا قَاتَ، وَمَا أَقْرَبَ مَا هُوَ آتٌ".

والأصل في السَّجْعِ، أَنْ يَكُونَ في النَّثْرِ، لَكِنَّهُ قد يَأْتِي دَاخِلَ فِقْرَاتِ الْبَيْتِ من الشعر، فَيَزِيدُهُ حُسْنًا إِذَا كان مُستوفياً شروطه الفنيَّة غير متكلف.

وتأدَّب بعض العلماء فخصَّ ما هو ملاحظٌ في القرآن من سجع باسم "فواصل".

^١ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٨٤١.

ويُطلق على الفِقرَةِ المنتهية بالفاصلة: "سَجْعُه" وجمعها "سَجَعَات" ويُطْلَق عليها "قَرِينة" لمقارنتها لأختها، وتجمع على "قرائن" ويُطْلَقُ عليها "فِقرَة" وجمعها "فَقَرَاتُ" و"فِقَرَات" و"فِقَر".

وارتبط السجع بالمقامات في الأساس فهي فن مسجوع ، ومن الأمثلة على السجع قول الشاب الظريف : (... إن حليته درّ ، وأن تركته فرّ ، فسرت بعض الأيام إليه ، لأقص وجدي عليه ، فلما تمثلت بين يديه أنشد والنفس قد علقت به آمالها ، وعلمت أن إليه مرجعها ومآلها ...)^١ .

ويقول القلقشندي في مقامته : (... وأنزل بواديهم فأجعل حرفتهم كسبي وصنعتهم دأبي ليجتمع بالعلم شملي ويتصل بالاشتغال حبلي فأكون قد ظفرت بمنيتي وفرت ببغيتي ...)^٢ .

ويقول ابن المعظم : (... فاكرمني القاضي وكفاني ، وملاً جفاني ، وما جفاني ، فخرجت من عنده وأنا اجر ذيل الغنى ، وأسر بنيل المنى ...)^٣ .
وقد أورد ابن الأثير معايير السجع وجودتها فقال :

(إذا صورت في نفسك معنى من المعاني، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يؤاتك ذلك إلا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه، ولا يكون محتاجاً إلى الزيادة ولا النقصان، إنما تفعل ذلك لأن المعنى الذي قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه، وإذا دلت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعاً إلا أن تضيف إليه شيئاً آخر أو تنقص منه، فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذي يذم من السجع ويستقبح، لما فيه من التكلف والتعسف، وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام، وإذا تهيأ للكاتب أن يأتي به في كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم: يستعبد كرائمها، ويستولد عقائمه، وفي مثل ذلك فليتنافس، وعن مقامه فليقاعس ... فإن قيل فإذا كان السجع أعلى درجات

^١ - ديوان التلعفري ص ٦٢ .

^٢ - صبح الأعشى ١٣٠/١٤ .

^٣ - المقامات الإثنتا عشر : الشيخ محمد بن المعظم ص ٢٨ .

الكلام على ما ذهب إله، فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعاً؟ وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع ، قلت في الجواب: إن أكثر القرآن مسجوع، حتى إن السورة لتأتي جميعها مسجوعة، وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لا يؤاتي في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب .

وهنا وجه آخر هو أقوى من الأول، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً^١ .

واعلم أن للسجع سراً هو خلاصته المطلوبة فإن عري الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلاً، وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري، وسأبينه هنا، وأقول فيه قولاً هو أبين مما تقدم، وأمثلة لك مثلاً إذا حذوته أمنت الطاعن، والعائب، وقيل في كلامك ليبلغ الشاهد الغائب، والذي أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك التطويل بعينه، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها، وإذا وردت سجعتان يدلان على معنى واحد كانت إحداها كافية في الدلالة عليه، وجل كلام الناس المسجوع جار عليه، وإذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فإنك ترى أكثر المسجوع منه كذلك، والأقل منه على ما أشرت إليه .

ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية، على غرام الناس بهما، وإكبابهم عليهما، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذي أنكرته .

١ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي ، المتوفى ٦٣٧ هـ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، عدد المجلدات : ٢ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ م ٦٩/١ .

ثم يمضي ابن الأثير فيشير إلى ما يحتاجه الكلام المسجوع فيقول :
فالكلام المسجوع إذاً يحتاج إلى أربع شرائط الأولى اختيار مفردات الألفاظ على
الوجه الذي أشرت إليه فيما تقدم، الثانية: اختيار التركيب على الوجه الذي أشرت
إليه أيضاً فيما تقدم، الثالثة: أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى، لا
المعنى تابعاً للفظ، الرابعة: أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على
معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها، فهذه أربع شرائط لا بد منها ^١ .

^١ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٦٩/١ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات احمده حمداً كثيراً إذ هياً لي من السبل لإتمام هذا البحث الذي تناولت فيه فن المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين ، وفيما يلي أهم نتائج هذا البحث :

أولاً : تعد المقامة أحد فنون النثر العربي وهي عبارة عن كتابة حسنة التأليف ، أنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة أدبية ومدارها على رواية لطيفة مختلفة تُسندُ إلى بعض الرواة ، ووقائع شتى تعزى إلى أحد الأدباء ؛ والمقصود منها غالباً جمع درر وغرر البيان وشوارد اللغة ونوادر الكلام ، منظوم ومنثور، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعة والرقائق الأدبية ، وابتكر هذا الفن بديع الزمان الهمذاني وتلاه الحريري .

ثانياً : هناك خلاف كبير بين العلماء حول أصل المقامات فقد زعم البعض أن أصل المقامات فارسي ، وأنها انتقلت من اللغة الفارسية إلى العربية ، ويرد على ذلك بأن المقامات قد ظهرت في اللغتين العبرية والسريانية بعد ترجمة مقامات الحريري ، والصواب أن المقامة فن عربي أصيل ، وهدفه الأساسي هو تعليم اللغة العربية وأساليبها ، ومعرفة فنونها وأفنانها .

ثالثاً : للأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية أثر كبير ودور مؤثر في صناعة المقامات في كافة العصور وعلى نحو خاص في القرنين السابع والثامن الهجريين ، ولم يكن أدباء فن المقامات في هذا العصر بمعزل عن الحياة السياسية المضطربة في هذا العصر فالأديب ابن بيئته يؤثر فيها ويتأثر بها ، لذا لم تخل بعض تلك المقامات من الإشارة إلى تلك الحياة السياسية والحديث عن بعض ملامحها من فتوحات وثورات واضطرابات وغير ذلك .

رابعاً : من أهم الأدباء الذين تفننوا في كتابة المقامة في القرنين السابع والثامن الهجريين بالتركيز : [ابن الوردي والقلقشندي والشاب الظريف وابن المعظم] .

خامساً : إن فن المقامة يتلمس علاج المجتمع في حلة من اللفظ ، إن المتلقي يعجب بالصياغة ، وحسن السبك، وجمال السجع ، فينشغل بها ولا يفرغ لما

تهدف اليه المقامة في مضمونها إلا بعد اكتمال المقامة وعمق التفكير في المضمون

.

سادساً : هناك من ألف مقامات بهدف توصيل العظات الدينية والنصائح الخلقية إلى القارئ مثلما فعل أبو القاسم الزمخشري ، ومنهم من استخدم شكل المقامة ليتناول بشكل غير مباشر بعض الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، وكان الأثر الديني ظاهراً في مقامات هذا العصر مدار الدراسة .

سابعاً : حفلت مقامات القرنين السابع والثامن الهجريين بالكثير من الخصائص الفنية في اللغة والأسلوب ويظهر ذلك في الإهتمام باللغة وتركيب الجمل بالإضافة إلى التصوير الفني الذي قام على المحسنات البديعية واللفظية .

التوصيات :

وفي الختام نرجو الباحثة أن يتحقق الآتي :

- الإهتمام أكثر وأكثر بموضوع المقامات ودراستها وتوفير المصادر التي تناولتها بالبحث والتتقيب .

- حبذا لو تصدي بعض الباحثين لدراسة فن المقامات في العصر الحديث ليكتمل هذا المشروع .

- الإهتمام بتوفير المصادر والمراجع الحديثة والوسائط التقنية التي تساعد في توفير المعلومات .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

رقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١	[وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا]	٨٣	البقرة	١١١
٢	[وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ]	٢٢١	.	٨٣
٣	[قَانِنَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ]	٣٥	النساء	٨٣
٤	[اطيعوا الله واطيعوا الرسول]	٥٩	.	٧١
٥	[لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ]	١١٤	.	١١١
٦	[وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا]	١٢	المائدة	٥٠
٧	[إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ]	١٥٦	الأعراف	١٠٤
٨	[وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا]	١٦٠	.	٥٠
٩	[خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ]	١٩٩	.	١١٠
١٠	[أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ]	١٩	التوبة	١١٢
١١	[إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ]	٣٦	.	٥٠
١٢	[رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي]	٣٩	الحجر	٩٩
١٣	[وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ]	٧٧	النحل	١٥٩
١٤	[فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ]	٤٩	مريم	١٠٤
١٥	[وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ]	٢٦	النور	٨٣
١٦	[وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا]	٥	الفرقان	١٠٥
١٧	[وَإِذَا تَنَتَّلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى]	٧	لقمان	١٥٩
١٨	[الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ]	٣٥	فاطر	١٢
١٩	[أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا]	٢١	غافر	٧٢
٢٠	[لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ]	٤٢	فصلت	٥
٢١	[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ]	١٠	الحجرات	١١١
٢٢	[مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ]	٢٨	الحاقة	٧٣

٢٣	[هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّة]	٢٩	.	٧٣
٢٤	[ن والقلم وما يسطرون]	١	القلم	١٠٥
٢٥	[ما أنت بنعمة ربك بمجنون]	٢	.	١٠٥
٢٦	[وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ]	٤	.	١١٠
٢٧	[إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ]	٣٣	الحاقة	١١٣
٢٨	[فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ]	٣٥	.	١١٣
٢٩	[مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ]	٤٢	المدثر	١١٣
٣٠	[وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ]	٤٦	.	١١٣
٣١	[وَلَا أَفْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ]	٢	القيامة	١١٩
٣٢	[بِأَيْدِي سَفَرَةٍ]	١٥	عبس	٧٠
٣٣	[كِرَامٍ بَرَزَةٍ]	١٦	.	٧٠
٣٤	[وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ]	١٠	الإنفطار	١٠٥
٣٥	[كِرَامًا كَاتِبِينَ]	١١	.	٧٠
٣٦	[اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ]	٣	العلق	١٠٥
٣٧	[عِلْمَ بِالْقَلَمِ]	٤	.	٧٠
٣٨	[عِلْمَ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ]	٥	.	٧٠
٣٩	[أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ]	١	الماعون	١١٤
٤٠	[فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ]	٢	.	١١٤
٤١	[وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ]	٣	.	١١٤

فهرس الأحاديث النبوية

رقم	طرف الحديث	الصفحة
١	[إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا]	٧٢
٢	[أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلَتْ وَادِيًا]	٨٤
٣	[أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم]	١١٢
٤	[ألا أدلكم على خلفائي]	١٠٣
٥	[أَلَا تَزَوَّجْتَهَا بِكَرًا ثَلَاثًا]	٨٤
٦	[الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]	٧٢
٧	[إن السلطان ظل الله في الأرض]	٧٣
٨	[رِ اللّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ]	٨٣
٩	[إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات]	١١٨
١٠	[إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه]	١١١
١١	[إن من أحبكم إليّ وأقربكم]	١١٢
١٢	[أى النساء خير ؟]	٨٣
١٣	[البر حسن الخلق]	١١١
١٤	[تَزَوَّجُوا الْوُلُودَ الْوُدُودَ]	٨٤
١٥	[تزوجت يا زيد ؟]	٨٥
١٦	[تقوى الله وحسنُ الخلق]	١١١
١٧	[تُتَكَحُّ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعِ]	٨٢
١٨	[زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ فَأُرِيْتُ]	٩٩
١٩	[العالم سلطان الله في أرضه]	٧٢
٢٠	[عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ]	٩٩
٢١	[فعليك بذات الدين]	٨٢
٢٢	[كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد]	١١٨

٢٣	[لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة]	١٠٠
٢٤	[لا ينفعه إنه لم يقل يوماً]	١١٣
٢٥	[لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة]	٧٢
٢٦	[لا يؤمن أحدكم حتى يحب]	١١٣
٢٧	[اللهم أرحم خلفائي]	١٠٣
٢٨	[ما ذئبان جائعان أرسلتا في زريبة]	٧٣
٢٩	[ما من شيء أثقل في ميزان]	١١١
٣٠	[من سعادة بن آدم ثلاثة]	٨١
٣١	[من فاته العصر فكأنما]	١٠٦

فهرس الأعلام المترجم لهم

رقم	الإسم	الصفحة
١	إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني	١٤
٢	أحمد بن الحسين أبو الطيب المتنبى	٩٤
٣	أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية	٣٩
٤	أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي	١٢
٥	أحمد بن علي بن محمد العسقلاني	٣٨
٦	أحمد بن محمد بن عبد ربه	١٥
٧	أسامة بن مرشد بن علي	١١٤
٨	إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي	٣٩
٩	امرؤ القيس بن حجر الكندي	٩٦
١٠	ببیرس بن عبد الله البندقراري	٣٣
١١	الحسن بن رشيق القيرواني	١١٦
١٢	الحسين بن عبد الله بن سينا	٢٧
١٣	خليل بن الأمير عز الدين أيبك	١٦
١٤	زهير بن أبي سلمى المزني	١١
١٥	سلامه بن جندل بن عبد عمرو	١٢
١٦	الضحاك بن مزاحم الهلالي	١٠٣
١٧	عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي	٣٨
١٨	عبد الرحمن بن محمد بن خلدون	٤١
١٩	عبد الله بن المقفع	١١٥
٢٠	عبد الملك بن قريب الاصمعي	٩٥
٢١	عبد الوهاب بن احمد بن علي الشعراني	٤٢
٢٢	علي بن بسام الشنتريني الاندلسي	٩٥

٢٣	علي بن محمد حبيب ، أبو الحسن الماوردي	٩٣
٢٤	عُمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي	٢٨
٢٥	عمرو بن بحر بن محبوب الكناني	١٥
٢٦	عمرو بن كلثوم بن مالك	٧٦
٢٧	قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي	١٠٣
٢٨	لبيد بن ربيعة العامري	١١
٢٩	مجاهد بن جبر	١٠٣
٣٠	محمد بن الحسن بن دريد	١٤
٣١	محمد بن سعيد بن أحمد القيرواني	٩٥
٣٢	محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني	٩٥
٣٣	محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة	١٤
٣٤	محمد بن علي بن عبد القادر المقرئ	٢٦
٣٥	محمد بن علي بن محمد الشوكاني	٥٤
٣٦	محمد بن علي بن محمد بن عربي	٢٨
٣٧	محمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان	٤٢
٣٨	محمد بن محمد الغزالي	١٦
٣٩	محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي	٣٩
٤٠	محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي	٩٤
٤١	ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي	٥٢
٤٢	يحيى بن حبش الحكيم شهاب الدين السهروردي	٢٧
٤٣	عائشة بنت أبي بكر الصديق	١١٣

فهرس المصادر والمراجع

- ١/ أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم : صديق بن حسن القنوجي ،
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٩٧٨ م ، تحقيق : عبد الجبار زكار
- ٢/ إحياء علوم الدين : محمد بن محمد أبو حامد الغزالي ، دار المعرفة - بيروت
- ٣/ الأخلاق الإسلامية وأسسها : عبد الرحمن حبّكة الميداني ، دار الفكر بيروت
- ٤/ أدب الدنيا والدين : علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، دار الفكر بيروت
- ٦/ الأدب في العصر المملوكي : محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ،
الطبعة الأولى .
- ٧/ الأدب والغربة ، دراسات بنيوية في الأدب العربي : عبد الفتاح كيليطو ، دار
توبقال .
- ٨/ أسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق هـ . ريتز - مطبعة وزارة المعارف
- الطبعة الثانية ١٩٥١ م .
- ٩/ الإسلام في حضارته ونظمه : أنور الرفاعي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة .
- ١٠/ الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني ، حققه محمد البجاوي ،
دار النهضة للطبع والنشر القاهرة .
- ١١/ الأعلام : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة العاشرة
١٩٩٢ م .

١٢/ أعيان العصر وأعوان النصر : الصلاح الصفدي ، دار الفكر بدمشق ١٩٩٨م .

١٣/ إنباء الغمر بأبناء العمر : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق حسن حبشي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ١٩٩٨م .

١٤/ البداية والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، مكتبة المعارف ، بيروت .

١٥/ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، دار المعرفة بيروت .

١٦/ البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها : عبد الرحمن الميداني ، دار الفكر بيروت .

١٧/ بناء الصورة الفنية في البيان العربي دراسة موازنة : كامل محمد البصير - مطبعة كلية الآداب - الجامعة المستنصرية .

١٨/ البَيَانُ والتَّبَيُّنُ ، أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرِ الْجَاحِظُ ، تَحْقِيقُ : دُرَيْشُ جُوَيْدِي ، الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ ، صَيْدَا ، بَيْرُوتُ ، لُبْنَانُ ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ، ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩م .

١٩/ تاج العروس من جواهر القاموس : السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر ، مطبعة حكومة الكويت ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م .

٢٠/ تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ١٩٨١م

٢١/ تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان ، دار المعارف بمصر .

٢٢/ تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول : شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ ، الطبعة السادسة .

٢٣/ التاريخ الإسلامي : أحمد شلبي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩م .

٢٤/ التاريخ الإسلامي : محمود شاكر ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت لبنان .

٢٥/ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : حسن ابراهيم حسن ، طبعة النهضة المصرية ١٩٨٢م .

٢٦/ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية : بشير رمضان التليسي ، دار المدار الإسلامي ، ٢٠٠٢م ، الطبعة الأولى .

٢٧/ تاريخ الخلفاء : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط الأولى ١٩٥٢م ، مطبعة السعادة مصر .

٢٨/ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار : عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، الناشر : دار الجيل - بيروت .

٢٩/ تاريخ النقد الأدبي عند العرب : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م .

٣٠/ تذكرة الحفاظ : محمد بن أحمد أبو عبد الله الذهبي ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى .

٣١/ التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية : محمد منير مرسى ، القاهرة : عالم الكتب ١٤٢١ هـ .

٣٢/ التربية الإسلامية وفلاسفتها : أحمد شلبي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة .

٣٣/ تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن : محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر ، دار الفكر بيروت .

٣٤/ تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت .

٣٥/ تقريب التهذيب : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ، دار الرشيد - سوريا ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ - ١٩٨٦ م ، تحقيق : محمد عوامة .

٣٦/ الثقافة والعولمة / صراع الهويات والتحديات : أحمد فراج ، الهيئة العامة لقصور الثقافة . كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الدلتا سنة ٢٠٠٣ م .

٣٧/ ثمرات الأوراق : أبو بكر بن حجة الحموي ، دار الكتب العلمية . تحقيق مفيد قميحة ١٩٧١ م

٣٨/ الجامع الصحيح سنن الترمذي : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون .

٣٩/ الجليس الصالح والأنيس الناصح : المعافى بن زكريا ، دار الفكر ، دمشق ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، الطبعة الأولى ١٩٨١ م .

٤٠/ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة : جلال الدين أبو بكر السيوطي ، دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى ١٩٦٨ م .

٤١/ الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة : شوقي أبو خليل .

٤٢/ الحضارة العربية الإسلامية : علي حسن الخربوطلي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

٤٣/ الحيوان : عمرو بن عثمان الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ١٩٦٦ م .

٤٤/ الحياة الأدبية في مصر (العصر المملوكي والعثماني) لمحمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب العربي القاهرة .

٤٥/ الخطط المقرية : أحمد بن علي المقريري ، منشورات دار العرفان للطباعة ، لبنان .

٤٦/ الدراسات الإحصائية للأسلوب : سعد مصلوح ، دار عالم الفكر للطباعة والنشر .

٤٧/ دراسات في فقه اللغة :صباحي الصالح . ط/دار العلم للملايين بيروت -
الطبعة العاشرة ١٩٨٣ م .

٤٨/ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة .

٤٩/ دلائل الاعجاز : عبد القاهر الجرجاني -قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر -
مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٩ م .

٥٠/ دير الملاك - دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعرالعراقي المعاصر : محسن
أطيمش - منشورات وزارة الاعلام ١٩٨٢ م .

٥١/ ديوان الشاعر المشهور محمد بن يوسف بن مسعود التلعفري ، ويلييه مقامة
رقية المبنى رائقة المعنى لتاج الأدباء شمس الدين المعروف بالشاب الظريف ،
تصحيح محمد سليم الأنسي ، مكتبة الأنسية بيروت

٥٢/ ديوان الشاب الظريف : تقديم وشرح وتعليق صلاح الدين الهواري ، دار الكتاب
العربي ، بيروت ، ٢٠٠٤ م .

٥٣/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : علي بن بسام الشنتريني ، تحقيق إحسان
عباس ، الناشر : الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس

٥٤/ الرسائل : عمرو بن عثمان الجاحظ ، دار الجيل بيروت .

٥٥/ زهر الآداب وثمر الألباب : إبراهيم بن علي بن تميم الحصري ، تحقيق صلاح
الدين الهواري ، دار الفكر ، ٢٠٠٥ م .

٥٦/ السلوك لمعرفة دول الملوك : أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئزي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧م .

٥٧/ سنن ابن ماجه : محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ، الناشر : دار الفكر - بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

٥٨/ سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، دار الفكر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .

٥٩/ سنن البيهقي الكبرى : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، الناشر : مكتبة دار الباز - مكة المكرمة ، ١٤١٤ - ١٩٩٤م تحقيق : محمد عبد القادر عطا .

٦٠/ السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية : أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني ، دار المعرفة للطباعة والنشر .

٦١/ سير أعلام النبلاء : أحمد بن محمد الذهبي ، مؤسسة الرسالة بيروت .

٦٢/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحي بن العماد الحنبلي ، دار الآفاق الجديدة .

٦٣/ الشعر والشعراء : عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، دار الحديث القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

٦٤/ صبح الأعشى في صناعة الإنشا : أحمد بن علي القلقشندي ، الناشر : دار الفكر - دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، تحقيق : يوسف علي طويل .

٦٥/ صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

٦٦/ الصناعتين : أبو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه .

٦٧/ الصورة الأدبية تأريخ ونقد : علي علي صبح ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة .

٦٨/ الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث : بشرى موسى صالح- المركز الثقافي العربي - بيروت- الطبعة الاولى - ١٩٩٢م .

٦٩/ الصورة الفنية معيارا نقديا - منحنى تطبيقي على شعر الاعشى الكبير : عبدالاله الصائغ- دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٨٧م .

٧٠/ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : جابر عصفور ، دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤م .

٧١/ ضحى الإسلام : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٦٧م .

٧٢/ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، مكتبة القدسي القاهرة ، ١٣٥٤هـ .

٧٣/ طبقات الشافعية : عبد الوهاب بن علي السبكي ، دار هجر القاهرة تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو .

٧٤/ العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي ودراسات علمية أخرى : توفيق الطويل
، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٧٥/ العقد الفريد : أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، دار إحياء التراث العربي
، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م .

٧٦/ علم اللغة : محمود السعران ، دار الفكر ، بيروت .

٧٧/ العمدة في محاسن الشعر وآدابه : الحسن بن رشيق القيرواني ، دار الكتب
العلمية بيروت .

٧٨/ فتح الباري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق محب الدين الخطيب
دار المعرفة بيروت .

٧٩/ فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم : زكريا هاشم زكريا ، ، دار
نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة .

٨٠/ فقه اللغة : إبراهيم السامرائي ، دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثالثة
١٩٨٣ م .

٨١/ فقه اللغة العربية وخصائصها : أميل يعقوب ، الطبعة الأولى مايو ١٩٨٢ م
دار العلم للملايين - بيروت .

٨٢/ فن المقامات بين المشرق والمغرب : يوسف نور عوض ، دار القلم بيروت ،
الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .

٨٣/ فوات الوفيات : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥١ م .

٨٤/ القاموس المحيط : محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م .

٨٥/ الكامل في اللغة والادب : أبو العباس بن يزيد المبرد ، دار الفكر بيروت .

٨٦/ الكشكول : البهاء العاملي ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الأولى

٨٧/ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة ، دار الفكر بيروت ١٩٨٢ م .

٨٨/ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : علي بن حسام الدين المتقي الهندي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩ م .

٨٩/ لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ، الناشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة الأولى .

٩٠/ اللغة وعلم اللغة : جون ليونز الناشر دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى .

٩١/ اللغة العربية معناها ومبناها : تمام حسان ، عالم الكتب ، الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٩٢/ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣ م ، تحقيق : محمد حامد الفقي .

٩٣/ المدخل الاجتماعي للأدب : سيد البحراوي ، القاهرة ، دار الثقافة العربية سنة ٢٠٠١ م .

٩٤/ المدخل الاجتماعي للأدب : شوقي ضيف ، القاهرة ، دار المعارف . الطبعة الثامنة .

٩٥/ مراكز ومعاهد التعليم في الإسلام : عبد الغني عبد الفتاح محمد النوري ، مجلة التربية ، العدد ١١٦ .

٩٦/ المسند : أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، الناشر : مؤسسة قرطبة - القاهرة .

٩٧/ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ، الناشر : المكتبة العلمية - بيروت .

٩٨/ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية بيروت .

٩٩/ المعجم الأوسط : أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، الناشر : دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥ هـ تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني .

١٠٠/ معجم البلدان : شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ، دار الكتب العلمية - بيروت .

١٠١/ معجم المطبوعات المطبوعات العربية : يوسف أليان سركيس ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى .

١٠٢/ معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م .

١٠٣/ مفتاح العلوم : يوسف بن ابي بكر السكاكي ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، جامعة بغداد ١٩٨١ م .

١٠٤/ المقامات الإثنتا عشر : أحمد بن المعظم بن المختار الرازي ، مطبعة الدولة التونسية ١٣٠٣ هـ .

١٠٥/ المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة، بيروت .

١٠٦/ مقامات بديع الزمان الهمذاني : دار الآفاق الجديدة بيروت ، ١٩٨٢ م

١٠٧/ المقامة : شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة السابعة .

١٠٨/ المقامات ، السرد والأنساق الثقافية : عبد الفتاح كيليطو، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي دار توبقال .

١٠٩/ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لجمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩١ هـ . ١٩٧٢ م

١١٠ / نهاية الأرب في فنون الأدب : أحمد بن عبد الوهاب النويري ، دار الفكر
بيروت .

١١١ / هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين : إسماعيل بن محمّد أمين
بن مير سليم باشا البغدادي ، وكالة المعارف . اسطنبول ١٩٥٥ م .

١١٢ / الوافي بالوفيات لصالح الدين خليل الصفدي ، دار إحياء التراث بيروت ،
٢٠٠٠ م .

فهرس الموضوعات

رقم	الموضوع	الصفحة
١	آية قرآنية	أ
٢	الإهداء	ب
٣	شكر وتقدير	ج
٤	المقدمة	٩ . ١
٥	أهمية البحث	٥
٦	أسباب اختيار الموضوع	٦
٧	أهداف البحث	٦
٨	منهج البحث	٦
٩	خطة البحث	٨
١٠	التمهيد : فن المقامات نشأتها وتطورها	١٦ . ١٠
١١	الفصل الأول : الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في القرنين السابع والثامن الهجريين	٤٢ . ١٧
١٢	المبحث الأول : الحياة السياسية	١٨
١٣	المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية	٢٥
١٤	المبحث الثالث : الحياة الأدبية	٣٢
١٥	الفصل الثاني : كتاب المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين	٦٣ . ٤٣
١٦	المبحث الأول : ابن الوردي	٤٤
١٧	المبحث الثاني : ابن المعظم	٤٩
١٨	المبحث الثالث : القلقشندي والشاب الظريف	٥٢
١٩	الفصل الثالث موضوعات المقامات في القرنين السابع والثامن الهجريين	١٢١ . ٦٤

٦٥	المبحث الأول : الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية	٢٠
٩٣	المبحث الثاني : الموضوعات الدينية	٢١
١٠٩	المبحث الثالث : الموضوعات السلوكية والأخلاقية	٢٢
١٨٤ . ١٢٢	الفصل الرابع : الأسلوب الفني في المقامات القرنين السابع والثامن الهجريين	٢٣
١٢٣	المبحث الأول : اللغة والأسلوب	٢٤
١٣٨	المبحث الثاني : تركيبات الجمل	٢٥
١٥١	المبحث الثالث : التصوير البياني والبديعي	٢٦
١٨٥	الخاتمة	٢٧
٢٠٨ . ١٨٧	الفهارس	٢٨
١٨٨	فهرس الآيات القرآنية	٢٩
١٩٠	فهرس الأحاديث النبوية	٣٠
١٩٢	فهرس الأعلام المترجم لهم	٣١
١٩٤	فهرس المصادر والمراجع	٣٢
٢٠٧	فهرس الموضوعات	٣٣